

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

السيرة الميسرة لنبي الرحمة

محمد ﷺ

تأليف

د. عبد الله بن عبد الرحمن الخرعان

عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ والحضارة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣١ هـ

دار الكتب
للنشر والتوزيع

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

السيرة الميسرة لنبي

الرحمة محمد ﷺ

رَفَعُ
عبد الرحمن بن عبد الرحمن
أسكنه الله الفردوس

ح دار كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع الرياض ١٤٢٨ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخرعان، عبد الله بن عبد الرحمن زيد

السيرة الميسرة لنبي الرحمة محمد ﷺ، / د. عبد الله ابن

عبد الرحمن زيد الخرعان - الرياض ١٤٢٨ هـ.

٢٥٤ صفحة ٢٤×١٧ سم

ردمك: ٩٧٨-٩٩٦٠-٥٨-٢٤٣-٦

أ. العنوان

١. سيرة النبوية

١٤٢٨/٤٨٣٤

ديوي ٢٣٩

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٤٨٣٤

ردمك: ٩٧٨-٩٩٦٠-٥٨-٢٤٣-٦

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

دار كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨ - ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠



E-mail: eshbelia@hotmail.com

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

السيرة الميسرة

لنبي الرحمة محمد ﷺ

تأليف

د. عبد الله بن عبد الرحمن الخرعان

عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ والحضارة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣٠هـ

دار كنوز الشريعة
للنشر والتوزيع



رَفْعُ

عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

المقدمة

الحمد لله الذي اصطفى من عباده رسلاً يهدونهم سبل السلام، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور، القائل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. أحمده وأثني عليه أن هدانا صراطه المستقيم، وجعلنا مسلمين، وأصلي وأسلم على من بعثه الله رحمة للعالمين وبعد:

فلما أراد الله أن يكون نبيه محمد ﷺ أسوة حسنة لجميع البشرية هياه لذلك، فجاءت سيرته شاملة شمول دين الإسلام، وكاملة كمال شريعته، وعامة عموم رسالته لكل عصر ومصر. فسيرة كهذه جديرة بالاهتمام والتأمل.

ولا يملك من يطلع على سيرة الحبيب المصطفى ﷺ ويتمعن في أحداثها - من المسلمين - إلا أن تحرك الإيمان في قلبه، وتأجج عواطف الحب فيه تجاه نبيه العظيم وصحابته الكرام، كما يورث ذلك - عند غير المسلمين - دواعي الإعجاب والتقدير لهذا النبي العظيم وصحابته الكرام، على ما بذلوه من جهد لإقامة الدين الحق، وإنقاذ البشرية الحائرة.

وجوانب السيرة النبوية متعددة تتعذر الإحاطة بها في كتاب مهما كبر حجمه؛ لذا فليس من المؤمل أن يُلِمَّ هذا الكتاب بجميع تلك الجوانب، ولكن أمل أن يكون قد اشتمل على قدر منها بما يعطي المطلع عليه صورة صادقة عن تلك السيرة العطرة، ودافعاً للاستزادة من نبعها العذب، وحافزاً على مواصلة القراءة لأحداثها واستلهاهم العبر النافعة منها.

وقد حاولت أن أقدم سيرته ﷺ بعرض يختلف عما دأب عليه كتاب السيرة النبوية من سرد أحداثها وفق السنين، فقد قمت بعرض أحداث السيرة النبوية بعد الهجرة بحسب مواقف القوى المعادية للإسلام آنذاك، ليدرك القارئ حجم كل قوة من تلك القوى، وتنوع أساليبها في مواجهة الإسلام، كما حرصت في الحديث عن شمائل الرسول ﷺ على إبراز تعامله مع أعدائه، وهو ما يحتاج المسلمون اليوم إلى تبيينه، لاسيما الناشئة منهم، حتى لا تشط بهم الأفكار المنحرفة عن الهدى النبوي في ذلك.

هذا وقد قدمت المادة العلمية وفق المنهج العلمي الموثق، فاعتمدت على الروايات الصحيحة والمصادر الموثوقة في ذكر أحداث السيرة التي يتأكد فيها الاعتماد على الصحيح من الروايات، وقد آثرت الإيجاز وتحاشيت التفصيل في سرد الأحداث، وقد ضمنت الكتاب عددا من الخرائط والجداول الموجزة للأحداث التي تصل حلقات الأحداث وتغني عن التفصيل، وحاولت أن أقف عند بعض الأحداث المهمة لاستلهاام الدروس، واستخلاص العبر.

ويأتي صدور هذا الكتاب في الوقت الذي يواجه الإسلام حملات مغرضة لتشويه صورته للصد عنه، وفي الوقت الذي أظهرت بعض المؤسسات والأفراد في الغرب صوراً مسيئة لنبي الهدى ﷺ، أملتأ عليهم أحقادهم على الإسلام ورسوله الكريم، فأعتمدتهم عن الوصول لحقيقة سيرة هذا النبي العظيم وسمو رسالته.

كما يأتي صدور هذا الكتاب - أيضاً - في الوقت الذي جفا كثير من أبناء الإسلام سنة نبيهم، وأشغلهم الافتتان بمحضارة الغرب المادية عن إدراك ما في دينهم من مظاهر العظمة والفوز في الدنيا والآخرة لو كانوا يعلمون.

لذا أمل أن يسهم هذا الكتاب في الرد على أولئك الحاقدين، ويكشف الحقيقة للحائرين، ويسهم في تبصرة أبناء المسلمين بمظاهر العظمة في سيرة نبيهم ورسالته، ما يحملهم على الاعتزاز بدينهم و التمسك به.

هذا، وقد حاولت أن أقدم مادة هذا الكتاب بأسلوب سهل ميسر يتناسب مع مختلف الأعمار والمستويات، وسميته "السيرة الميسرة لنبي الرحمة". فأرجو أن يحقق الغرض المرجو منه، والله أسأل أن يخلص النية، ويصلح العمل، ويسدد الخطى، ويجمعنا بحبيينا المصطفى ﷺ في دار السلام، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

د. عبد الله بن عبد الرحمن الخرعان

a_a_kh_78@hotmail.com.

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الأول مدخل عامّة

وفيه:

أولاً: أهداف دراسة السيرة النبوية.
ثانياً: حاجة البشر إلى بعثة الأنبياء
عليهم السلام.

ثالثاً: مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام.

رابعاً: واجبنا تجاه الأنبياء عليهم السلام.

خامساً: تفاضل الأنبياء عليهم السلام.

سادساً: أهمية سيرة النبي محمد ﷺ،

ومظاهر تميزها.

سابعاً: مصادر السيرة النبوية.

أولاً: أهمية دراسة السيرة النبوية:

من خلال دراسة سيرة نبينا وحبينا ﷺ يمكننا تحقيق عدد من الفوائد العظيمة والأهداف النبيلة ومن أهمها ما يلي:

[١] تحقيق الاقتداء برسول الله ﷺ الذي أمرنا به الله في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١) وكذلك تحقيق إتباعه الوارد في قوله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)^(٢) وهذا وذاك لا يتحقق إلا بمعرفة سيرته ﷺ والوقوف على هديه في جميع أحواله.

[٢] تحقيق محبة المسلم لربه عز وجل التي علقها الله باتباع رسوله ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) واتباع الرسول ﷺ - كما سبق - لا يتحقق إلا بالوقوف على هديه وسنته من خلال معرفة سيرته ﷺ.

[٣] تحقيق محبة الرسول ﷺ التي لا يكمل إيمان المسلم إلا بها كما جاء في قوله ﷺ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)^(٤) ومن مقتضى محبته السير على هداه وهذا لا يتحقق إلا بالتعرف على سنته وأعماله، كما أن الوقوف على ما بذله الرسول ﷺ في سبيل تبليغ رسالة ربه و الدعوة إلى الإسلام، وما تعرض في سبيله من عن وابتلاءات حتى أظهر الله به الدين وأثار به دروب الهدى للسالكين إلى يوم الدين، كل ذلك يورث محبة الرسول ﷺ وإدراك فضله على العالمين.

[٤] الوقوف على تطبيق أحكام الإسلام والتخلق بأخلاقه، من خلال الوقوف على الواقع العملي للمصطفى ﷺ بالتعرف على أعماله وأحواله وتعامله ﷺ.

[٥] زيادة الإيمان في نفس المؤمن بالاطلاع على دلائل نبوته ومعجزاته ﷺ.

(١) سورة الأحزاب، الآية [٢١].

(٢) قال النووي في الأربعين النووية: «هذا حديث صحيح روياه في كتاب الحججة بإسناد صحيح».

(٣) سورة آل عمران، الآية [٣١].

(٤) متفق عليه.

[٦] تثبيت المؤمنين وتسليةهم في سبيل ما يعترضهم من محن وابتلاءات في حياتهم الشخصية أو في سبيل تطبيقهم للإسلام ودعوة الناس إليه، فسيرته وحياته ﷺ مليئة بالدروس والعبر في هذا المجال.

[٧] الوقوف على ما بذله الصحابة الكرام ﷺ من مؤازرة للنبي ﷺ ونصرة لدين الله، وما قدموا في سبيل ذلك من تضحيات كبيرة بصورة لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيل، وهذا ما جعلهم يستحقون أن يكونوا خير القرون على الإطلاق، كما جاء عن المصطفى ﷺ في قوله: (خَيْرُ النَّاسِ قُرْنِي).^(١) وهذا يستدعي محبتنا لهم والترضي عنهم والسير على خطاهم.

[٨] الوقوف على صور من الإيمان الحيّ عندما يخالط قلوب البشر؛ فيحولهم إلى أناس غير عاديين في وضوح أهدافهم، وعلو هممهم، وتدفق عواطفهم، وسمو غاياتهم، وعظيم تضحياتهم. وهذا جعلهم - وإن مشوا على الأرض - في اتصال مع الله والملائكة الأعلى، فمنهم من اهتز عرش الرحمن لموته، وشاركت الملائكة في تشييع جنازته، ومنهم من نزلت الملائكة لتغسيله حين مات، وآخر تنتزل الملائكة لتسمع ترغمه بالقرآن، ومنهم من يأتي لأجله جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ ليلبغه السلام من ربه، ولم يكن لهم ذلك إلا حين خالط الإيمان الحيّ قلوبهم، وهذا بدوره يحرك عواطف الخير في المؤمن، ويزيد إيمانه إيماناً، ويعمل عمله في قلب غير المؤمن فيدفعه إلى طريق الإيمان.

[٩] دراسة السيرة النبوية خير معين على فهم كتاب الله وسنة رسول الله، من خلال فهم الآيات والأحاديث التي لها صلة بأحداث السيرة ووقائعها.

[١٠] بيان ما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من الأخلاق الكريمة، من خلال الوقوف على تعامله مع غيره ابتداءً بتعامله مع ربه، ثم تعامله مع سائر البشر من حوله من ذوي قربي، وأصحاب، وخدم، بل حتى مع أعدائه وحرصه على هدايتهم، وحتى مع الحيوان والرفق به، وغير ذلك مما جعله يستحق شهادة الله له بحسن الخلق في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.^(٢)

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري.

(٢) سورة القلم، الآية [٤].

ثانياً: حاجة البشر إلى بعثة الأنبياء والرسول:

بعث الله الأنبياء عليهم السلام إلى الناس لغايات عظيمة، وأهداف سامية، من أهمها:

[١] تعريف البشر بخالقهم، والحكمة من وجودهم:

إن أرباب العقول المتأملين في هذا الكون العظيم، بأرضه، وسماؤه، وأفلاكه، وما فيه من أحياء، وما يحويه من آيات عظيمة، يدركون أن له خالقاً عظيماً، ومدبراً حكيماً، قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١). ولكنهم لا يدركون صفات هذا الخالق، ولا يعرفون حقيقته؛ إذ ليس بمقدور عقولهم معرفة ذلك، وإدراكه بالتفصيل. ولقد ضلّ من أراد التعرف على الله، أو وصفه باجتهاد منه. فهناك من قال بوحدة الوجود، وهناك من يزعم بأن الطبيعة هي المتصرفة بنفسها، وهناك من جعل الله ولداً، وهناك من يعتقد في بعض المخلوقات النفع أو الضرر، كالنور أو الظلام، وغير ذلك من الانحرافات. لذا كان لا بد من إرسال الرسل؛ لتعريف البشر بخالقهم، وتعليمهم صفاته، كما جاء عنه سبحانه وتعالى.

وكما كان البشر بحاجة إلى الرسل لتعريفهم بخالقهم، فهم أيضاً بحاجة لبيان الهدف، والحكمة، من خلقهم في هذه الحياة، وهو عبادة الله، والسير على صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢).

[٢] الإخبار بالغيبيات وأحداث الدار الآخرة:

هناك من ينكر الحياة بعد الموت، ويرى أن الموت هو نهاية الأحياء، كما قال الله عن هؤلاء: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٣). وهناك من يدرك بفطرته السليمة أن هناك حياة

(١) سورة لقمان، الآية [٢٥].

(٢) سورة الذاريات، الآية [٥٦].

(٣) سورة الجاثية، الآية [٢٤].

أخرى بعد الموت، ولكن هؤلاء لا يعلمون تفاصيل هذه الحياة، لأن أخبارها من أمور الغيب، التي لا يدركها العقل، ولا يمكن التوصل إليها إلا بالنقل الصحيح ممن يعلمها، وهو الله. والرسول هم المخبرون عن الله في ذلك. فهم يبشرون من يعبد الله على حق بالنعيم في الجنة، وينذرون المخالفين لأمر الله بالعذاب الأليم في النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(١).

[٣] تصحيح الانحرافات التي تطرأ على البشر:

عندما تطول المدة بعد موت الأنبياء والرسول؛ تتعرض الشرائع التي جاؤوا بها إلى التحريف، ويبدأ الضلال يسري في أعمهم؛ فيعم الجهل، ويحل الشرك محل الدين الصحيح؛ فيحتاج الأمر إلى إرسال رسل، يردون البشر إلى جادة الصواب، ويصححون الانحرافات، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان بين نوح وادم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين^(٢) كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

ودخل الشرك في حياة الناس حين لبس الشيطان على بعض بني آدم، واستدرجهم إلى الشرك، وعبادة ما سوى الله. وذلك أنه كان هناك قوم صالحون بين

(١) سورة الأنعام، الآيات [٤٨-٤٩].

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٦٤/١. رواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح. ولم يخرجاه.

(٣) سورة البقرة، الآية [٢١٣].

آدم ونوح، اشتهروا بالصلاح وكثرة العبادة، فجاء بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فأوحى لهم إبليس: لو صورتموهم صوراً، تذكركم بهم، وعبادتهم؛ فيزيدكم ذلك نشاطاً في العبادة، كلما نظرتهم لهم. ففعلوا. فلما ماتوا نشأ قوم من بعدهم، فأوحى لهم إبليس: بأن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم، فبدأ بذلك الشرك.^(١)

فنوح عليه السلام أول رسول بعد حدوث الشرك في ذرية آدم، ثم تتابع إرسال الرسل والأنبياء،^(٢) كل نبي يبعث في قومه، وربما بعث أكثر من نبي ورسول في عصر واحد، كموسى وهارون عليهما السلام، وإبراهيم ولوط عليهما السلام، حتى كان آخرهم وخاتمهم نبينا محمد بن عبد الله ﷺ.

٤] حاجة البشر إلى بعض الشرائع لضبط حياتهم:

يحتاج البشر في حياتهم إلى بعض الضوابط، التي توفر لهم سبل العيش الآمن السعيد، وتحقق لهم العدل والمساواة في تعامل بعضهم مع بعض، اجتماعياً واقتصادياً، وهذا ما تضمنته الشرائع التي جاء بها الرسل. فنجد بعض الرسل يركز في دعوته لقومه - بعد اهتمامه بالتوحيد - على إصلاح جانب من جوانب الحياة، قومه بحاجة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوُوا رَبَّكُمْ أَفَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

(١) انظر: حول بداية الشرك في ذرية آدم: الشوكاني: فتح القدير: ٣٠٠/٥: الألوسي: روح المعاني: ٧٧: ٢٩.

(٢) أصبح ما قيل في الفرق بين الرسول والنبي: أن الرسول من أرسل بشريعة جديدة، وأنزل معه كتاب، وأما النبي فهو من بعثه الله ليدعو إلى شريعة من قبله. انظر: كتاب النبوات لابن تيمية: ٢٥٥، تفسير أضواء البيان للشنقيطي: ٧٣٥/٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية [٨٥].

ثالثاً: مضمون دعوة الأنبياء:

يشارك جميع الأنبياء والرسل في الدعوة إلى التوحيد الخالص لله تعالى، فهو أول ما دعوا إليه أقوامهم، وأمضوا مدة رسالتهم مجتهدين في ترسيخ معانيه في حياة أممهم. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾^(٢)، وقال: ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٣).

والتوحيد الذي دعا إليه الأنبياء هو توحيد الألوهية: وهو إفراد الله بالعبادة^(٤). وهذا التوحيد متضمن لأنواع التوحيد الأخرى، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إله إلا الله، فلا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله. وذلك يتضمن ما أثبتته الله لنفسه من الأسماء والصفات، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٥). وما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

(١) سورة الأنبياء، الآية [٢٥].

(٢) سورة النحل، الآية [٣٦].

(٣) سورة فصلت، الآية [١٤].

(٤) العبادة كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، مثل: الدعاء، والخوف، والحب، والرجاء، والتذرع، والذبح، والتوكل، والاستعانة، إلى غير ذلك من العبادات، التي يجب أن تكون كلها خالصة لله عز وجل. (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ص ١٤)

(٥) سورة البقرة، الآية [١٦٣]. وانظر كلام ابن تيمية في فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ١٢، ١٣.

الْمُسْلِمِينَ^(١)، وورد في كثير من الآيات أن الرسل كانوا يفتتحون دعوتهم لأقوامهم بهذا التوحيد، بقولهم: أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ^(٢).

ويؤكد الرسول المصطفى ﷺ اشتراك الأنبياء كلهم في دعوة أقوامهم إلى التوحيد، بقوله: (إِنَّا مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ دِينَنَا وَاحِدٌ)^(٣).

وهذا التوحيد هو الذي فطر الله الناس عليه، كما قال تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^(٤)، وقول الرسول ﷺ: (يقول الله عز وجل: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَنَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ)^(٥)، وكما قال ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه)^(٦). وكانت البشرية على هذا التوحيد منذ أن نزل آدم على الأرض، وأخذته منه ذريته جيلاً بعد جيل، واستمروا عليه عشرة قرون، كما سبق ذكره.

رابعاً: واجبنا تجاه الأنبياء عليهم السلام:

كما يجب علينا أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل الذين ذكرهم الله في القرآن^(٧)، والذين لم يذكرهم، ويقتضي الإيمان بهم أن نقدرهم ونحترمهم ولا نفرق - في الإيمان - بين أحد منهم، فلا نوجد نبوة أحد منهم، لقوله تعالى: «وَأَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ

(١) سورة الأنعام، الآيات [١٦٢ - ١٦٣].

(٢) سورة الأعراف، الآيات [٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]، وسورة هود، الآيات [٥٠، ٦١، ٨٤].

(٣) فتاوى ابن تيمية ١ / ٣٥٧.

(٤) سورة الروم، الآية [٣٠].

(٥) صحيح مسلم: كتاب الجنة: ٨ / ١٥٨، ١٥٩.

(٦) صحيح البخاري: كتاب الجنائز: ٣ / ١١٨، صحيح مسلم: كتاب القدر: ٨ / ٥٢، ٥٣.

(٧) وعددهم خمسة وعشرون هم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وأيوب، وذو الكفل، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ^(١). ولكن ليس لنا أن نتبع سوى شريعة خاتمهم محمد بن عبدالله ﷺ؛ لأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء والرسل من قبله. لقوله تعالى: «وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»^(٢) وقوله ﷺ: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار)^(٣).

خامساً: تفاضل الأنبياء:

يتفاضل الأنبياء عليهم السلام في الدرجة، والمنزلة، كما قال تعالى: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ»^(٤)، وقوله: «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا»^(٥)، وأفضلهم على الإطلاق محمد ابن عبدالله ﷺ؛ لأن الله اصطفاه واختاره ليختتم به أنبياءه، ويجعل دينه أكمل الأديان، وأعظمها، لقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا»^(٦)، وقوله ﷺ: (فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً

(١) سورة البقرة، الآية [٢٨٥].

(٢) سورة آل عمران، الآية [٨٥].

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ: ٢٤٠/١.

(٤) سورة البقرة، الآية [٢٥٣].

(٥) سورة الإسراء، الآية [٥٥].

(٦) سورة الفتح، الآية [٢٨].

ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون^(١) وقوله ﷺ: (أنا سيد الناس يوم القيامة)^(٢).

وعلى الرغم من أن نبينا محمد ﷺ آخر الأنبياء إلا أن ذكره وفضله قد شاع، وسبق ظهوره. فقد ورد ذكره وفضله على لسان بعض الأنبياء، وذكر في بعض الكتب السماوية، كالطهارة والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣)، ومن ذلك حديث أبي أمامة رضي الله عنه حين قال: قلت يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: (دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورأت أمي نوراً أضاءت منه قصور الشام)^(٤). ودعوة إبراهيم هي التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَانْتِعِزْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٥)، وبشارة عيسى هي ما ورد في القرآن الكريم على لسانه في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ^(٦).

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد / ٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء / ٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية [١٥٧].

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٢٦٢/٥، والطبراني في المعجم الكبير: ٧٧٢٩، والبيهقي في الدلائل:

٨٤/١، وابن سعد في الطبقات: ١٠٢/١. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢٢٢/٨. إسناد أحمد

حسن وله شواهد تقويه. ولزيد من تخريج هذا الحديث وشواهد انظر: صحيح السيرة النبوية

لإبراهيم العلي: ٢٥.

(٥) سورة البقرة، الآية [١٢٩].

(٦) سورة الصف، الآية [٦].

سادساً: تميز سيرة النبى محمد ﷺ عن سير غيره:

شهد تاريخ البشرية منذ القدم - ولا يزال يشهد - عدداً من بني البشر، الذين برزوا في مجتمعاتهم، وعلا ذكر سيرهم بين أقوامهم، كالملوك العادلين، والقادة الأبطال، والزعماء المصلحين، أو الشعراء المبدعين، وأرباب الفكر والاختراع، وغيرهم، ممن اشتهر لدى العامة ذكر سيرهم، وبرزوا على مسرح التاريخ. ولكن هناك طائفة من بني البشر غير هؤلاء، ذكرهم أشرف، وسيرهم أعظم وأعم نفعاً، ذلكم هم الأنبياء. ذلك لأن عظمة سير غيرهم من بني البشر تبدو في جانب، أو جوانب، محدودة الأثر والنفع في حياة البشر، بينما سير الأنبياء والرسل تكون أعم نفعاً، وأشمل أثراً في حياة البشر، وعلى مدى الزمن؛ حيث اختارهم الله واصطفاهم لهداية البشر، وجعل حياتهم نبراساً لأقوامهم، ينير لهم الطريق في هذه الحياة، في جوانبها المختلفة، وجعلهم محلاً للاقتداء، كما قال تعالى بعد ذكر عدد من الأنبياء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتُهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(١). نعم لقد كانت سير الأنبياء أكمل السير في حياتهم، وبين أقوامهم؛ وبعد مبعث النبي محمد بن عبد الله ﷺ أصبحت سيرته أكمل سير الأنبياء، وأعظمها، وهي السيرة الوحيدة - من بين سير الأنبياء - الصالحة للاقتداء إلى قيام الساعة، وجاء تميز سيرته نبي الرحمة ﷺ من عدة وجوه، نذكر أهمها:

١] تكامل حلقاتها، ودقة تفاصيل أطوارها، من الولادة حتى الوفاة،

تعد سيرة المصطفى ﷺ السيرة الوحيدة - من بين سير الأنبياء - من حيث: تكامل حلقاتها، ووضوح أطوارها، منذ ولادته حتى وفاته، وتفاصيل أحداثها مدونة معلومة، في جميع مراحل عمره. أما غيره من الأنبياء فيكتنف سيرهم الغموض، في عدد من مراحل حياتهم. فهناك من الأنبياء من لا نعرف عنهم شيئاً إلا أن الله أرسلهم: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ

(١) سورة الأنعام، الآية [٩٠].

مُوسَى نَكَلِيمًا^(١). أما الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن، فمنهم من لا نعرف عنه إلا الاسم، والكثير منهم لا نعرف من سيرهم إلا حوارهم لأقوامهم، ومعجزاتهم التي أيدهم الله بها. وحين نتبين سيرة كل من موسى وعيسى عليهما السلام بحكم أن سيرتهما أشهر سير الأنبياء قبل نبينا محمد عليهم السلام، فسنجد أن موسى عليه السلام - وهو أشهر رسول لبني إسرائيل، والذي أنزلت عليه التوراة، وأكثر الأنبياء السابقين ذكراً في القرآن الكريم - سنجد أن كثيراً من أطوار سيرته مجهول. فنحن لا نعرف عنه إلا مولده والظروف التي أحاطت به، وعيشه في أول عمره في بيت فرعون، ثم هجرته إلى مدين، وزواجه فيها، ومكثه بها عشر سنين، لا نعلم تفاصيل سيرته خلالها، ثم عاد إلى مصر، وفي الطريق أوحى الله إليه، وعاد إلى مصر ليدعو فرعون وملأه، وليرفع عن قومه - بني إسرائيل - ظلم فرعون. وقد بين الله تفاصيل الحوار بين موسى وفرعون، والمعجزات، والآيات، التي لم يتفجع بها فرعون وملأه، ثم هلاك فرعون وملئه، ونجاة بني إسرائيل. ولهذا فإن هناك حلقات مجهولة في سيرة موسى عليه السلام، وفترات غامضة من حياته، اشتملت على كثير من أخلاقه، وعبادته، وتعامله مع من حوله، وغير ذلك مما هو فيه محل الاقتداء، لكننا لا نعلم عنها شيئاً.

أما عيسى عليه السلام، فيقول في شأن سيرته علامة الهند في عصره، السيد سليمان الندوي رحمته الله: «ومن أقرب الرسل عهداً بالإسلام عيسى عليه السلام، الذي يزيد عدد المنتسبين إليه - بحسب إحصاءات الأوربيين - على عدد الديانات الأخرى، وإن المرء ليستغرب حين يعلم أن شؤون حياته، وأحوال معيشته، أخفى من غيره وأغمض، وقد أسدل الزمان عليها حجاباً، أكتف مما نراه في حياة العظماء الآخرين من الرسل، الذين يعدون من أصحاب الأديان المشهورة». ثم قال: «إن عيسى عليه السلام عاش في هذه الدنيا ثلاثاً وثلاثين سنة، كما يروي الإنجيل، والأنجيل الموجودة في الأيدي - على ما في رواياتها من ضعف ولبس - مقصورة على ذكر أحواله لمدة ثلاث

(١) سورة النساء، الآية [١٦٤].

سنوات، في أواخر حياته وحسب. فنحن لا نعلم عن حياته علم اليقين إلا أنه ولد، وجيء به إلى مصر، وأراه الله آية أو آيتين في صباه، ثم غاب عن الناس، وظهر لهم وهو في الثلاثين من عمره... فأين قضى عيسى عليه السلام الثلاثين أو الخمس وعشرين على الأقل من حياته؟ وفيم قضاها؟ وبأي الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره؟ إن الدنيا لا تعلم عن ذلك شيئاً، ولن تعلم...^(١).

أما سيرة نبينا محمد ﷺ، فقد دونت بتفصيل دقيق، وبيان واضح، منذ ولادته وحتى وفاته، بشكل لم يحدث من قبله ولا من بعده. حيث دون فيها أقواله، وأفعاله، وابتساماته، وحتى سكونه وصمته، حال إقامته وسفره، وفي سلمه وجهاده، وفي منزله وخارجته.

وقد أجبرت هذه الميزة الكبيرة لسيرة المصطفى ﷺ غير المسلمين على الاعتراف بها. فقد كتب (جون ديون بورت) في مقدمة كتابه عن السيرة الحمديدية سنة ١٨٧٠م وعنوانه "الاعتذار من محمد والقرآن"، قال في مقدمته: «لا ريب أنه لا يوجد في الفاتحين، والمشرعين، والذين سنوا السنن، من يعرف الناس حياته، وأحواله، بأكثر تفصيلاً، وأشمل بياناً، مما يعرفون من سيرة محمد وأحواله»^(٢).

ويقول الإنجليزي با سورت سميث: «.. لا شك أن في الوجود شخصيات لا نعلم عنها شيئاً، ولا نتبين حقيقتها أبداً، أو تبقى منها أمور مجهولة. بيد أن التاريخ الخارجي لمحمد ﷺ نعلم جميع تفاصيله، من نشأته إلى شبابه، وعلاقته بالناس، وروابطه، وعاداته، ونعلم أول تفكيره، وتطوره، وارتقاءه التدريجي، ثم نزول الوحي العظيم عليه نوبة بعد نوبة، ونعلم تاريخه الداخلي بعد ظهور دعوته، وإعلان رسالته...»^(٣).

(١) سليمان الندوي: الرسالة الحمديدية: ٥٧، ٥٨. وعن حياة عيسى عليه السلام واختفائه انظر الأسم والملوك للطبري: ١/٥٩٣ وما بعدها.

(٢) نقلاً عن سليمان الندوي: الرسالة الحمديدية: ٩٨.

(٣) المرجع السابق: ١٢١.

[٢] صحة نقلها وثقة مصدرها:

إن مما يميز سيرة نبينا محمد ﷺ - بالإضافة إلى ما سبق - وصولها إلينا بطرق صحيحة، ومن مصادر بلغت أعلى درجات الثقة والصدق. فمن أهم مصادر سيرته ﷺ: القرآن الكريم؛ حيث ورد فيه جزء كبير من سيرته ﷺ، اشتمل على أوصافه، وأخلاقه، وأطوار دعوته، ووصف بعض معاركه، ومواقف أعدائه من دعوته، وكيف تعامل معهم.

والمصدر الثاني للسيرة النبوية كتب السنة النبوية. وقد دونت السنة النبوية بطريقة فريدة، لم تدون بها سيرة نبي قبله. فما وصل من سيرة موسى وعيسى عليهما السلام لم يدون إلا بعد مفارقتهما لهذه الحياة. فالتوراة لم تدون إلا بعد موسى بقرون^(١)، مما جعلها تتعرض لكثير من التحريف، ودخلها آراء كثير من الكتاب، وبسبب ذلك وقع فيها بعض التناقض. أما الأناجيل فقد دونت بعد رفع عيسى عليه السلام بأكثر من ستين سنة، وتجهل اللغة التي دونت بها، ومن قام بترجمتها، كما دخل التحريف كثيراً من هذه الأناجيل، بعد عدة قرون، على أيدي القساوسة والملوك.

أما سنة نبينا محمد ﷺ فقد دونت في حياته بطريقتين:

الطريقة الأولى: الحفظ المتقن:

حيث تخصص مجموعة من الرواة المؤمنين الصادقين بملازمة الرسول ﷺ، وأوقفوا حياتهم، وفرغوا أذهانهم، لحفظ كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو تقرير، بل حتى وصف أحواله، من تبسمه، ومشيته، وصمته، وغير ذلك. وذلك في سفره وإقامته، بل حتى في بيته^(٢). وقد اشتهر العرب قبل الإسلام بقوة الحفظ، واعتنوا به عناية كبيرة، فاعتمدوا عليه في حفظ تاريخهم، وأشعارهم، وأنسابهم.

(١) محمود شاكر: السيرة النبوية: ٣٠.

(٢) وأهم هؤلاء الرواة ﷺ: أبو هريرة، وروى (٥٣٧٤) حديثاً، وعبدالله بن عباس (٢٦٦٠) حديثاً، وأم المؤمنين عائشة (٢٢١٠) أحاديث، وعبد الله بن عمر (١٦٣٠) حديثاً، وجابر ابن عبدالله (١٥٦٠) حديثاً، وأنس بن مالك (١٢٨٦) حديثاً، وأبو سعيد الخدري (١١٧٠) حديثاً.

الطريقة الثانية: الكتابة:

حيث كان عدد من الصحابة رضي الله عنهم يقوم في عهد الرسول ﷺ بكتابة ما يسمعه، ويراه، من سنة الرسول ﷺ. ومن أشهرهم: عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقد كان يكتب ما يسمعه في صحيفة سماها "الصادقة"، ومنهم عبد الله بن عباس رضي الله عنه الذي ترك بعد وفاته حمل بعير من كتبه. ثم جاء جيل التابعين الذين نقلوا ما رواه الصحابة، حفظاً، وكتابة، وضربوا في جمع السنة النبوية أمثلة رائعة في التفاني، والدقة. فقد قاموا بالرحلة لتدوين الحديث، وقطعوا المسافات الطويلة من أجل حديث واحد، يذكر لأحدكم. ثم تسلم تابعو التابعين المهمة، بالأمانة نفسها، ودونت كتب الحديث، ووضعت الشروط لرواية السنة، حماية لها من التحريف، والكذب^(١). وقد اهتم بعض الرواة والكتاب بجمع ما له صلة بسيرة الرسول ﷺ، واستخلاصها من السنة. إذاً فسيرته ﷺ، دونت في زمن مبكر، ونقلت إلينا بطريقة موثوقة، تجعلها السيرة الوحيدة الصحيحة، الصالحة للاقتداء بها بصورة متكاملة.

[٢] شمولها لجميع جوانب الحياة البشرية:

يختلف البشر في عيشتهم في هذه الحياة، فهم أقسام وأنواع عدة، من حيث مراكزهم الاجتماعية، ومن حيث مسؤولياتهم ومهامهم في هذه الحياة، وأوضاعهم في أطوار حياتهم. وكل هؤلاء بحاجة إلى قدوة مثالية جامعة، تتكامل فيها جوانب الحياة البشرية، يتأسون بها في حياتهم. ولا نجد هذه القدوة المتكاملة إلا في سيرة نبينا محمد ﷺ. فما بين أيدينا من سير للأنبياء غيره ينقصها هذا الجانب. فعيسى عليه السلام مثلاً لم يتزوج، ولم تكن له ذرية، كما أنه لم يكن حاكماً يرأس دولة. وفي سيرة موسى عليه السلام، التي بين أيدينا، جوانب ناقصة، تحتاجها الحياة البشرية للاقتداء بها، في الجوانب الاجتماعية، كعلاقته مع زوجه وأهله، وفي الجوانب السياسية، كمنهجه في الحكم، والتعامل المالي، وغير ذلك^(٢). أما سيرة محمد ﷺ فهي كما قال سليمان

(١) لمعرفة مراحل تدوين السنة انظر: صبحي صالح: علوم الحديث ومصطلحه: ١٤ وما بعدها.

(٢) انظر حول هذا الكلام عن موسى إلى السيرة النبوية لمحمود شاكر: ٢٩، ٣٠.

الندوي رحمه الله: «جامعة، يجد فيها الناس كلهم، على اختلاف طوائفهم، الأسوة الكاملة، في جميع ألوان الحياة، وأطوارها»^(١).

فيجد فيه الحاكم قدوته في سياسة دولته، والأب يجد فيه قدوته في تربيته لأولاده، والزوج في تعامله مع زوجته، وهو معلم بارع حين يعلم أصحابه، يجد فيه المتعلم قدوته، وهو تلميذ مؤدب حين يتلقى الوحي من جبريل، وزاهد صادق في زهده، وتاجر صدوق في تعامله، وعامل أمين في رعيه للغنم، وغني شاكراً، وفقير صابر، ويتيم محتاج للرعاية والعطف، كما أنه كان كافلاً للأيتام، راعياً لهم، وهو داع إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما أنه مجاهد لا يخشى في الله لومة لائم، وهو عابد لا يمل من التقرب لله بأنواع العبادات، وقائد عسكري محنك له نهجه الخاص في إدارة المعارك، والتعامل مع الأعداء، كان في انتصاره متواضعاً كما كان حال انكساره عزيزاً، إلى غير ذلك من الأحوال البشرية، التي جمعها الله في سيرته، فاستحق أن يكون بذلك قدوة صالحة لجميع بني البشر، في جميع أحوالهم، وأطوارهم. فصلوات الله وسلامه عليه.

سابعاً: مصادر السيرة النبوية:

أولاً: القرآن الكريم:

وهو المصدر الأول والأساس لسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد ورد في القرآن من الحقائق والأحداث المتعلقة بالسيرة النبوية، ما يعطي صورة عامة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فورد فيه ذكر لبعض أحوال العرب قبل البعثة من الناحية الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، وطرفاً من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾^(٢) كما ذكر ما كان عليه من خلق كريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣) وورد فيه ذكر مواقف أعداء الدين الإسلامي

(١) الرسالة المحمدية: ١٣٢.

(٢) سورة الضحى، الآيات [٦-٨].

(٣) سورة القلم، الآية [٤].

وأساليبهم في الصد عنه، وجاء فيه طرف من ذكر الهجرة، وذكر المعارك الحربية الكبرى مع المشركين، مثل معركة بدر، وأحد، والأحزاب، وصلاح الحديبية، وفتح مكة، وغزوة حنين، وبعض المعارك مع اليهود، وورد فيه ذكر بعض المعجزات النبوية، كمعجزة الإسراء والمعراج. وغير ذلك مما يعطي صورة عامة عن سيرة الرسول ﷺ. وقد تميز القرآن الكريم كمصدر للسيرة بما يلي:

[١] تفرده بأعلى درجات الصدق؛ إذ هو أوثق كتاب على وجه الأرض، حيث نقل بالتواتر القطعي الموثوق، وتكفل الله بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١)

[٢] تميزه بالربط بين مقدمات الأحداث ونتائجها، والتركيز على بيان الأسباب وتعليل العواقب. كبيان سبب ما أصاب المسلمين في أحد بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢)

[٣] الكشف عن خفايا النفوس والإخبار عما تكنه الضمائر، فهو منزل من عند الذي يعلم السر وأخفى، فجاء في معرض ذكر خبر زواج الرسول ﷺ من أم المؤمنين زينب رضي الله عنها: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٣).

[٤] وصف المشاعر النفسية التي تبدو من مختلف الأطراف في أجواء بعض الأحداث. يقول تعالى واصفا الحالة النفسية لأهل المدينة من مسلمين ومنافقين في غزوة الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ

(١) سورة الحجر، الآية [٩].

(٢) سورة آل عمران، الآية [١٦٥].

(٣) سورة آل عمران، الآية [١٦٧].

الْحَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿٥٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿٥١﴾
 ويبين حالة المنافقين النفسية بقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾. أما شعور المؤمنين فينبه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾^(٢).

[٥] الإخبار بأمور تخفى على البشر، مثل إخباره بمشاركة الملائكة في القتال في بعض المعارك، وإخباره بوجود مؤمنين في مكة مع الكافرين يخفون إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَأَهْذَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْتَغِ خَلْعَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٣). وكذلك إخباره بوجود أعداء يخفون أنفسهم عن المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(٤).

[٦] بيان الأخطاء وتصويب المواقف التي قد تبدو من الرسول ﷺ أو أصحابه؛ فمثلاً حين أخذ الرسول ﷺ برأي من قال بإطلاق أسرى المشركين في بدر مقابل الفداء نزل العتاب وتصويب رأي من قال بقتلهم في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ

(١) سورة الأحزاب، الآيتان [١٠-١١].

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان [١٢ و ٢٢].

(٣) سورة الفتح، الآية [٢٥].

(٤) سورة الأنفال، الآية [٦٠].

يَكُونُ لَهُ أَمْرٌ حَتَّى يُتَخَيَّرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(١).

ولتمام الاستفادة من القرآن في أحداث السيرة يجدر الرجوع إلى كتب التفسير، خاصة المتقدمة منها كتفسير الطبري وابن كثير - رحمهما الله - مع التنبيه إلى ضرورة تحييص الروايات لمعرفة الصحيح من غيره.

ثانياً: كتب السنة (الحديث):

تأتي كتب السنة بعد القرآن الكريم - كمصدر للسيرة النبوية - من حيث الصحة، فقد نالت عناية فائقة من رجال الحديث - الذين هيئهم الله لحفظ السنة النبوية - حينما وضعوا القواعد والشروط التي تضبط رواية الأحاديث ونقلها عن المصطفى ﷺ وتميز صحيحها من غيره، وذلك من خلال علمي "مصطلح الحديث" و"الجرح والتعديل".

وتأتي في مقدمة كتب السنة من حيث الصحة الكتب الستة: «صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجه». ويضاف إليها: موطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، فهذه الكتب في الذروة العليا من الصحة والثقة والتحقيق، أما الكتب الأخرى، فقد تضمنت الصحيح والحسن، وفي بعضها الضعيف أيضاً.

وإن كان الهدف من تأليف كتب السنة حفظ تعاليم الشريعة وهدي الرسول ﷺ في العبادات إلا أنها تضمنت معلومات كبيرة عن السيرة النبوية نستطيع من خلالها تكوين فكرة عامة عن سيرة المصطفى ﷺ، ولكن هذه المعلومات ينقصها الترتيب الزمني والتسلسل الموضوعي، فالمعلومات عن حادثة واحدة نجد أنها مبثوثة في ثنايا كل كتاب من كتب السنة بحسب ما يناسب كل جزء من تلك الحادثة لأبواب الكتاب. وهذه الثغرة جاءت كتب المغازي والسير لسدها.

(١) سورة الأنفال، الآية [٦٧].

ثالثاً: كتب المغازي والسير:

كان الاهتمام بسيرة المصطفى ﷺ منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم، حيث وجد منهم من وجه اهتمامه بأخبار السيرة النبوية التي كان يطلق عليها "المغازي" ويتضح ذلك من خلال دروسهم، فكان ابن عباس رضي الله عنهما يفرد يوماً من أيام دروسه للمغازي فقد جاء في وصف سعة علمه أنه كان: (... يجلس يوماً ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوما التأويل، ويوما المغازي، ويوما الشعر، ويوما أيام العرب...) (١) وكان البراء بن عازب رضي الله عنه قد ألقى على طلابه شيئاً كثيراً من مغازي رسول الله ﷺ (٢) إلا أن تدوين المغازي في كتب مستقلة لم يظهر إلا في عهد التابعين ومن بعدهم. ويمكن تقسيم من ألف في المغازي والسيرة إلى فئتين هما:

(أ) كتب السيرة عند رجال الحديث:

وهم كثير يصعب حصرهم ولكن نذكر الرواد منهم وهم:

[١] عروة بن الزبير: (ت ٩٤هـ) وهو محدث ثقة، أحد فقهاء المدينة السبعة (٣) وقد قام بجهود متميزة في إرساء قواعد الكتابة في سيرة النبي ﷺ (٤) ويذكر ابن كثير عن محمد بن عمر أن عروة أول من صنف في المغازي (٥). إلا أن كتاب عروة فقد ضمن كثير من الكتب المفقودة، ولكن من حسن الحظ أنه تم حفظه في عدد من المصنفات التي نقل أصحابها ما جمعه عروة عن طريق عدد من تلاميذه، وقد قام محمد الأعظمي باستخراج ما رواه عروة في المغازي من طريق أبي الأسود (٦).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ١/٣٦٨.

(٢) السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي: ٢٩٥. اعتماداً على محمد الأعظمي: مغازي رسول الله لعروة بن الزبير: ٢٥، ٢٦.

(٣) أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٥٤.

(٤) السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي: ٢٩٧.

(٥) البداية والنهاية: ١٠١/٩.

(٦) وسماها: "مغازي رسول الله لعروة بن الزبير" طبع مكتب التربية بدول الخليج بالرياض ١٤٠٠هـ. انظر: السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي: ٢٩٨.

[٢] أبان بن عثمان بن عفان (ت: ١٠٥ هـ) وقد عده كتاب السيرة من رواد مؤسسي علم المغازي، فقد اهتم بجمع مغازي النبي الكريم ﷺ، وأورد ابن سعد^(١) خبراً يشير إلى أنه كان لدى أبان مصنف في المغازي، حيث ذكر في ترجمة المغيرة بن عبد الرحمن: «ثقة قليل الحديث إلا مغازي رسول الله ﷺ أخذها من أبان بن عثمان..».

[٣] الإمام محمد بن مسلم الزهري (ت ١٢٤ هـ): وهو أحد كبار المحدثين في عصره، وقد كانت له عناية فائقة بمغازي رسول الله ﷺ فجمعها ورتبها حتى أصبح إماماً معتمداً فيها، وهذا ما يفسر كثرة الروايات عنه في كتب الحديث في أبواب المغازي والسيرة^(٢). وهذا ما جعل السهيلي^(٣) يقول عن مغازي الزهري: «وهي أول سيرة ألفت في الإسلام» ولعله يقصد بهذا الشمول والترتيب، وإلا فكما سبق أن هناك من ألف في السيرة قبل الزهري كعروة بن الزبير. ومع أن مغازي الزهري في عداد المفقود لكنها حفظت في كتب المصنفين من بعده كما في تاريخ الطبري، والروض الأنف للسهيلي، ومصنف عبد الرزاق، وغيرهم. وقد قام الدكتور سهيل زكار بجمع مرويات الزهري عن سيرة الرسول ﷺ في كتاب ونشرها بعنوان "المغازي النبوية"^(٤).

[٤] موسى بن عقبة (ت: ١٤٠ هـ) الإمام الثقة الكبير، أحد تلاميذ الزهري وعنه أخذ علم المغازي، ولمكانة عقبة عند أهل الحديث وثقتهم به فقد تلقوا مصنفه في السيرة بالقبول، فكان الإمام مالك إذا سئل عن المغازي قال: عليكم بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة، فإنها أصح المغازي. وقال الذهبي: أما مغازي موسى بن عقبة فهي في مجلد ليس بالكبير، ومعناها، وغالبها صحيح ومرسل جيد، لكنها مختصرة تحتاج إلى زيادة بيان^(٥). وقد قال الإمام الشافعي: «ليس في المغازي أصح من كتاب موسى بن عقبة مع

(١) الطبقات الكبرى: ٥/ ٢١٠.

(٢) السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي: ٣٠٢.

(٣) الروض الأنف: ١/ ٢٠٥.

(٤) نشر دار الفكر: دمشق، ط ١: ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

(٥) الذهبي سير أعلام النبلاء: ٦/ ١١٥، ١١٦.

صغره وخلوه من أكثر ما يذكر في كتب غيره^(١)، ومغازي عقبة في عداد المفقود ولكنها محفوظة في كتب الحديث، وكتب المغازي والسير التي صنفت بعد عقبة.

[٥] سليمان بن طرخان التيمي: (ت ١٤٣ هـ) أحد رجال الجرح والتعديل المعتبر قولهم في نقد الرجال^(٢) وأحد الحفاظ المتقنين والعباد المجتهدين.^(٣) وقد جمع أخبار السيرة وأفرد لها بمصنف رواها عنه ابنه معتمر. وقد نقل عن هذا المصنف السهيلي في الروض الأنف^(٤) كما نقل عنه ابن حجر في فتح الباري.^(٥)

هذه نماذج من كتب الحديث في السيرة النبوية

(ب) كتب السيرة عند الإخباريين والمؤرخين:

إذا كان رجال الحديث الذين اهتموا بالتأليف في السيرة النبوية قد أسهموا في استقلال السيرة عن غيرها وعنوا بترتيب أحداثها، فإن حرصهم على الارتباط بمنهج الحديث حد من توسعهم في جمع الكثير من أخبار السيرة النبوية، لذا جاءت مؤلفات كثير منهم موجزة مختصرة، وظلت السيرة النبوية تحتاج إلى بيان وتفصيل، وهذا ما جاء في مؤلفات الإخباريين والمؤرخين في السيرة، فقد اهتم هؤلاء بجمع أكبر قدر من الأخبار والروايات المتعلقة بالسيرة بعد تحررهم من بعض قيود الحديث في قبول الروايات، ومن أشهر هؤلاء:

[١] محمد بن إسحاق: ت (١٥٢ هـ): تمكن ابن إسحاق - بما أوتي من غزارة علم - من جمع مادة غزيرة عن السيرة النبوية لم يتمكن من قبله من جمعها، شملت معلومات عن سير الأنبياء كمقدمة للحديث عن سيرة نبينا محمد ﷺ، وقد ساعده على ذلك تنقله في الأمصار، وحرصه على تتبع الروايات في السيرة وتدوين كل ما سمعه في ذلك من أقوال وأشعار.

(١) أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٥٥.

(٢) ابن حجر: تهذيب التهذيب: ٤٥/٩.

(٣) انظر علمه وعبادته في سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٩٥ وما بعدها.

(٤) ٢٧٣/١، ٢٧١. السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي: ٣١١.

(٥) فتح الباري: ٣٣/١. طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

فخرجت سيرته لتغطي بشهرتها وغزارة مادتها ما ألف في السيرة، ومن ثم أصبحت موردا لمن جاء بعده من أرباب السير. ^(١)

ولما كان منهج ابن إسحاق في جمعه لأخبار السيرة متساهلا لا يتفق مع منهج المحدثين لذا لم يقبلوا حديثه في مجال رواية الحديث إلا بشروط جعلت رواياته المقبولة في الحديث نادرة، ولكن هناك إجماع على اعتماد قوله في المغازي والشهادة بإمامته فيها. ^(٢)

وإذا كان ابن إسحاق قد تساهل في قبول بعض الأخبار الواهية والضعيفة فإن التزامه بالإسناد يمكننا من تمييز تلك الروايات وتمحيصها. وبكل أسف نقول إن كتاب ابن إسحاق في السيرة لم يصل إلينا، ولكن يهون من ذلك أنه حفظ عن طريق رواته في مدونات من جاء بعده.

[٢] عبد الملك بن هشام: (ت ٢١٨هـ): وعن طريقه وصلت لنا سيرة ابن إسحاق، فقد رواها ابن هشام عن تلميذ ابن إسحاق زياد بن عبد الله البكائي، ولكن لم يكن أثر ابن هشام مقصورا على النقل فحسب بل قام بتهذيب سيرة ابن إسحاق فحذف بعض الروايات والأشعار التي يرى غرابتها، كما أوجز بعض ما يرى أن ابن إسحاق أطنب فيه دون طائل، وأضاف بعض الأخبار التي وقف عليها مما لم يذكره ابن إسحاق. فأصبحت سيرة ابن إسحاق بعد تهذيب ابن هشام وإضافاته تسمى "سيرة ابن هشام" وغدت المرجع الأوفى والأكمل عن السيرة النبوية وتلقاها الناس بالقبول، وقام عدد من العلماء بشرحها أو تهذيبها وتلخيصها، كشرح السهيلي ت (٥٨١ هـ) لها في كتابه المسمى (الروض الأنف).

[٣] الواقدي: (ت ٢٠٧هـ)، وهو محمد بن عمر الواقدي وألف كتابه في السيرة باسم "المغازي" وقد اشتهر عن الواقدي غزارة العلم والتوسع في جمع المعلومات من أي طريق كان، وتميز بتتبع مواقع الأحداث التاريخية والوقوف عليها بنفسه ووصفها، ولكن إغراقه في التفصيلات، وذكره للغريب والمنكر من الروايات، ونقله عن رجال مجهولين كل ذلك

(١) سليمان العودة: السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق: ٦٠.

(٢) عن أقوال العلماء في ابن إسحاق انظر المصدر السابق: ٥٣ - ٥٤.

جعله محل اتهام عند أهل الحديث. ويجمل الذهبي الرأي في الواقدي بقوله: «جمع فأوعى، وخلط الغث بالسمين، والخرز بالدر الثمين، فاطرحوه لذلك، ومع هذا فلا يستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم» وقال أيضاً: «وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ، ونورد آثاره من غير احتجاج....»^(١).

[٤] محمد بن سعد الزهري: (ت: ٢٣٠ هـ)، وهو تلميذ الواقدي ولكنه أوثق منه عند رجال الحديث، وجاء مؤلفه في السيرة النبوية ضمن كتابه الكبير "الطبقات الكبرى" حيث خص المجلد الأول والثاني بالحديث عن سيرة الرسول ﷺ، ويعد كتابه في السيرة من أوثق الكتب لمكانة صاحبه عند المحدثين وضبطه للإسناد.

[٥] محمد بن جرير الطبري: (ت: ٣١٠ هـ)، وهو من المؤرخين الذين عنوا بالكتابة في سيرة المصطفى ﷺ وهو محدث وفقيه، وجاء كتابه عن السيرة النبوية ضمن كتابه عن التاريخ العام "الرسول والملوك" وقد اعتمد على ابن إسحاق في روايته لأحداث السيرة النبوية.

[٦] إسماعيل بن كثير: (ت: ٧٧٤ هـ)، وهو مؤرخ ومحدث ومفسر كبير، وقد كتب عن السيرة النبوية ضمن كتابه عن التاريخ العام (البداية والنهاية) وعلى الرغم من أنه اعتمد كثيراً على ابن إسحاق إلا أنه استفاد من صلته الكبيرة بالحديث في الوقوف عند كثير من الأخبار وتحصيلها والتعليق عليها مما أضفى على سيرته أهمية كبيرة.

رابعاً: كتب الشمائل:

كتب الشمائل هي التي تتحدث عن أخلاق المصطفى ﷺ وصفاته، وإن كانت كتب السنة والسيرة قد تضمنت كثيراً من المعلومات في ذلك إلا أنها جاءت مبثوثة متفرقة، لذا اهتم عدد كبير من علماء المسلمين رحمهم الله بجمع شمائل الرسول ﷺ وإفرادها بكتب خاصة غير كتب السيرة العامة، حرصاً منهم على إبراز أخلاق المصطفى لأمة ليقتدوا بها، ومن هذه المصادر:

* كتاب (الشمائل الحمديدية) للإمام محمد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ وقد نال هذا الكتاب اهتمام العلماء بالشرح والاختصار والتعليق، وهو مطبوع.

(١) سير أعلام النبلاء: ٩/ ٤٥٤، ٤٦٩.

* كتاب (أخلاق النبي وآدابه) للحافظ أبي الشيخ عبدالله بن محمد الأصبهاني المتوفى سنة ٣٦٩هـ، وقد سار على طريقة الترمذي، وضم كتابه أحاديث نادرة وفريدة عن حياة النبي ﷺ وهو مطبوع.

* كتاب (الشماثل) لأبي العباس جعفر بن محمد المستغفري المتوفى سنة ٤٣٢ هـ.
* كتاب (الأنوار في شمائل النبي المختار) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، المتوفى سنة ٥١٦ هـ. وهو من أضخم ما كتب في الشماثل وقد ذكر فيه مؤلفه سبعة وخمسين ومائتين وألفا (١٢٥٧) من الأحاديث والآثار التي تتعلق بشمائل الرسول ﷺ.
* كتاب (زاد المعاد في هدي خير العباد) للإمام ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ^(١).

خامسا: كتب الدلائل:

وهي الكتب التي اهتمت بدلائل صدق نبوة المصطفى ﷺ وذكر معجزاته الدالة على نبوته الحسية والمعنوية، ومن هذه الكتب:

* كتاب دلائل النبوة: لحمد بن يوسف الفريابي - ٢١٢ هـ وهو محدث ثقة، وهو أول من أفرد الدلائل بكتاب. وقد ألف بالعنوان نفسه (دلائل النبوة) كل من أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠ هـ) والبيهقي: أحمد بن الحسين (ت: ٤٥٨ هـ)
* كتاب (آيات النبي) لحمد المدائني (ت: ٢٢٥)

* وهناك كتب حملت مسمى واحدا هو (أعلام النبوة) وألف بهذا العنوان كل من داود الأصبهاني (ت: ٢٧٠) وأبي محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم (ت: ٣٢٧ هـ) وأبي الحسن علي الماوردي (ت: ٤٥٠ هـ) وغيرهم.

والجدير ذكره أن هناك من جمع في مؤلفه بين الشماثل والدلائل ومنها:

* (الوفا بأحوال المصطفى): للإمام عبدالرحمن بن الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ).

* وكتاب (الخصائص الكبرى) لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ هـ).

ومما ينبغي التذكير به هنا أن كثيرا من كتب الشماثل والدلائل حوت روايات وأخبارا بحاجة إلى التحقيق والتدقيق قبل قبولها والأخذ بها.

(١) عن مصادر وكتب شمائل المصطفى ﷺ انظر: فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها:

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني

المصطفى ﷺ قبل

البعثة

وفيه:

- نسبه.

- مولده.

- رضاعته في ديار بني سعد.

- حادثة شق الصدر.

- وفاة أمه وجدده وتوغله في اليتيم.

- الاعتماد على النفس ورعي الغنم.

- سفره إلى الشام وقصة الراهب بحيرى.

- أخلاقه ومكانته قبل البعثة.

- الزواج السعيد.

نسبه:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، وينتهي نسبه إلى عدنان، وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وأمه آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة.^(١)

فنسبه من جهة أبيه وأمه يرجع إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام. فنسبه في أعلى درجات الأصالة والشرف. وقد خصه الله بذلك واصطفاه، حيث يقول ﷺ في شرف نسبه: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)^(٢).

فهو صفوة من صفوة، وخيار من خيار. وفي ظهور النبي ﷺ من أسرة رفيعة الشأن، عريقة النسب، حكمة عظيمة منها:

[١] أن في ذلك عاملاً من عوامل نجاح الدعوة في أول أمرها؛ حيث كان للعصية القبلية وزنها عند العرب، بدليل أن من أسلم في أول الأمر - ممن لا عصبية له - لقي من العذاب أشد من غيره. وعلى الرغم من أن محمداً ﷺ وجد من أقرب الناس له أشد الأذى - كأبي لهب - إلا أنه وجد مزيداً من العناية والحماية من عمه أبي طالب، ما مكنه من تخطي عقبات كبيرة، في سبيل تبليغ الدعوة.

[٢] كما أن في شرف هذا النسب النبوي رداً على من يفكر في اتهام النبي ﷺ في دعوته، أو في بعض تعاليم شريعته، بأنها جاءت كرد فعل لواقع اجتماعي كان يعيشه، كما هو شأن كثير من أصحاب الدعوات المادية، كماركس، وغيره، ممن كانت دعواتهم ردود فعل لما عانوه في واقع حياتهم. فلو كان ﷺ وضيعاً في نسبه لفسر أعداؤه دعوته على أنها محاولة لتعويض ما يشعر به من نقص في واقعه، وعلى أن ما يدعو له من مساواة، إنما هو سعي منه لرد اعتباره، ومن هم على شاكلته.

(١) السيرة النبوية لابن هشام: تعليق محمد عبي الدين عبد الحميد: ١/١. أكرم ضياء العمري:

السيرة النبوية الصحيحة: ١/٩١، ٩٠. إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية: ١٩، ٢٠.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب فضل نسب النبي ﷺ.

مولده:

ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، في عام الفيل^(١) بلا خلاف. أما تاريخ اليوم فمختلف فيه، والأشهر أنه ولد في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، الموافق سنة ٥٧٠ للميلاد. ولم يقدر الله لهذا المولود الجديد أن يرى والده عبد الله، الذي توفي قبيل ولادة ابنه، وهو يقوم بمهمة لوالده عبد المطلب في المدينة. وكان عبد المطلب - والد عبد الله - خير معين لزوجته ابنة "آمنة" في تولي أمر هذا الوليد الجديد، فسُر بمولده، وسمّاه محمداً.^(٢)

المسلمون والمولد:

لا شك أن اصطفاء الله لنبيه محمد ﷺ كان رحمة للعالمين، ومولده كان خيراً للبشر أجمعين، وبه استبشر الكون، كما قال شوقي:

ولد الهدي فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وضياء
ولكن، هل نجعل لوقت هذا المولد مزية عن غيره من الأوقات، فنتحتفل به كل عام، ونجعل منه مناسبة دينية لها طقوسها واحتفالاتها؟! فهذا ما ينهى عنه علماء الشريعة المحققون^(٣)، لأمور منها:

(١) هو العام الذي قدم فيه أبرهة الحبشي من اليمن ليهدم الكعبة، ويتقدم جيشه الفيل، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير: ٢١٠/١.

(٣) عامة علماء أهل السنة من المتقدمين والمتأخرين يقولون بدعة المولد ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية قال في بعض فتاويه: «وأما اتخاذ موسم غير المواسم الشرعية كبعض ليالي شهر ربيع الأول التي يقال أنها ليلة المولد أو بعض ليالي رجب أو ثامن عشر ذي الحجة أو أول جمعة من رجب أو ثامن شوال الذي يسميه الجهال "عيد الأبرار" فإنها من البدع التي لم يستحبها السلف ولم يفعلوها والله سبحانه وتعالى أعلم» الفتاوى: ٤/ ٤١٤.

والإمام أبو حفص تاج الدين الفاكهاني رحمه الله المتوفى سنة ٧٣٤هـ وله رسالة بعنوان "المورد في عمل المولد"، والإمام ابن الحاج الفاسي المالكي المتوفى بالقاهرة (٧٣٢هـ) قال في كتابه المدخل: «فصل في المولد: ومن جملة ما أحدثوه من البدع، مع اعتقادهم أن ذلك من أكبر»

[١] أن هذا يدخل في أمور العبادة، والعبادة توقيفية، لا بدّ فيها من نص، من كتاب، أو سنة، أو إجماع، وليس في ذلك شيء، بل تعارضه النصوص، كقوله ﷺ: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)^(١).

[٢] أن في ذلك تشبه بالنصارى في الاحتفال بعيد ميلاد المسيح عليه السلام، وقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك، كما قال ﷺ: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم)^(٢). وفي

=العبادات وأظهر الشعائر ما يفعلونه في شهر ربيع الأول من المولد وقد احتوى على بدع ومحرمات جملة (المدخل: ٢٠-٢١٠). وشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله. والشيخ محمد بنجيت المطيعي الحنفي مفتي الديار المصرية عام ١٣٣٤هـ ١٩١٤م. والشيخ على محفوظ أحد كبار علماء الأزهرت ١٣٦١هـ في كتابه الإبداع في مضار الابتداع. والإمام الشاطبي المالكي وله كلام نفيس في فتوى له في كتاب طبع باسم فتاوى الإمام الشاطبي. والشيخ رشيد رضا في أكثر من موضع في المنار (٩/٩٦)، (٢/٧٤-٧٦) وفتاواه (الجزء الخامس في الصفحة ٢١١٢-٢١١٥) و(الجزء الرابع في الصفحة ١٢٤٢-١٢٤٣). ومن علماء الهند الشيخ أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي. وشيخه الشيخ بشير الدين القنوجي وله كتاب بعنوان "غاية الكلام في إبطال عمل المولد والقيام" والشيخ محمد بن أحمد عبد السلام خضر الشقيري مؤسس الجمعية السلفية بالجيزة بمصر في كتابه: السنن والمبتدعات في الأذكار والصلوات. والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية في عصره، له رسالة في إنكار عمل المولد. انظر مجموع فتاواه (٣/٤٨-٩٥) والشيخ عبد العزيز بن باز له رسالة في حكم الاحتفال بالمولد النبوي. والشيخ إسماعيل الأنصاري له رسالة بعنوان (القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل). والشيخ محمد بن صالح العثيمين. والشيخ صالح الفوزان. ومحدث العصر الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. والشيخ محمد الغزالي في كتابه (ليس من الإسلام) حيث يقول: «والتقرب إلى الله بإقامة هذه الموالد عبادة لا أصل لها... ومن ثمّ فتحن غميل إلى تعميم الحكم على هذه الموالد جميعاً ووصفها بأنها مبتدعات تُرفض ولا يُعتمد لها... إن إلغاء الموالد ضرورة دينية ودنيوية...» ومن الكويت الشيخ حامد بن عبدالله العلي له فتوى في موقعه الإلكتروني بعنوان "الرد على من أجاز الاحتفال بالمولد النبوي" وغيرهم كثير لا يتسع المجال لذكرهم.

(١) صحيح البخاري: الاعتصام / ٢٠، وصحيح مسلم: أقضية / ١٨، ١٧.

(٢) صحيح البخاري: أنبياء / ٤٨.

المولد يحدث من بعض المحتفلين إطراء ومدح للرسول ﷺ، بما لا يليق إلا بالله. كما في قصيدة البوصيري^(١) التي تردد غالباً في المولد، ومنها قوله:

يا أكرم الرسل ما لي من ألؤذ به سواك عند حدوث الحادث العمم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم
وقول محمد بن أبي بكر البغدادي في ديوانه (القصائد الوثرية في مدح خير البرية):

ذهاباً ذهاباً يا عصاة لأحمد ولو ذوا به مما جرى وتعوذوا
ذنوبكم ثمحى وتعطون جنة بها دُررٌ حصباءها وزمرد

[٢] أصحاب النبي ﷺ هم أعظم الناس حباً له، وأشد اتباعاً لسته ﷺ، ومع ذلك لم يقيموا الاحتفال بالمولد، وكذلك لم يفعله التابعون من بعدهم، بل أحدث هذا في العصور المتأخرة، وأول من أحدثه حكام الدولة العبيدية في مصر في القرن الرابع الهجري وقد أجمع علماء أهل السنة على ضلال مذهب حكام هذه الدولة.

[٤] أن تعظيم الرسول ﷺ، ومحبته، يكمن في اتباع سته، والاقتداء به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)، وليس من حق النبي ﷺ علينا أن نقصر حبه وتعظيمه وتذكره على يوم واحد في السنة.

[٥] إذا كان اختيار تاريخ مولد الرسول ﷺ للاحتفال به لأنه أعظم حادث في حياته، فهذا ليس مسلم به، فنزول الوحي عليه ﷺ وبعثته أعظم من مولده، فمولده أدخله في عالم الإنسانية، وبعثته أدخله في عالم النبوة والرسالة، ومقامهما أشرف وأعظم، كما أن حدث الهجرة به أعز الله الإسلام وأقام دولته، وقد اختاره الصحابة دون مولد الرسول ﷺ ليكون حدثاً يؤرخ به المسلمون. فاختيار المولد جاء متابعة للنصارى في اختيارهم مولد عيسى عليه السلام.

(١) ديوان البوصيري. تحقيق محمد سيد كيلاني، طبع مصطفى الحلبي مصر ١٣٧٤هـ، ص ٢٠٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية [٣١].

[٦] يستدل من يحتفل بالمولد النبوي بالحديث الذي سئل فيه ﷺ عن صيام يوم الاثنين فقال: (ذَاكَ يَوْمٌ وَلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلْتُ عَلَيَّ فِيهِ...) ^(١). وفي الحقيقة هذا الحديث الصحيح رد على من يحتفل بالمولد وذلك لأمور:

أولها: أن الرسول ﷺ نص على فضيلة يوم الاثنين وليس تاريخ يوم الولادة أو المبعث، فمن استدل بهذا على المولد يلزمه الاحتفال بكل يوم اثنين.

ثانياً: أن هذا اليوم كما في الحديث شرف بالولادة والبعثة، فعليهم أن يحتفلوا بالمبعث كما يحتفلون بالميلاد.

ثالثاً: أن الرسول ﷺ أمر بصوم هذا اليوم (الاثنين) الذي ولد وبعث فيه، ولم يأمر بالاحتفال به، فخير لمن ينتظر العام ليحتفل بمولد الرسول ﷺ أن يصوم كل اثنين فهذا ما يدل عليه الحديث. وهذا أصدق في التعبير عن محبة حبينا ﷺ واتباع سته.

ومن الجدير ذكره أن المحتفلين بالمولد النبوي ليسوا سواء، فمن يكون في احتفالهم شركيات بالغلو في الرسول ﷺ وادعاء حضوره مجالسهم، أشد إثمًا ممن يكون في احتفالهم المزامير والرقص. ولا يساوى بهؤلاء وأولئك من يقصر احتفاله على سرد سيرة الرسول ﷺ والثناء عليه والدعوة إلى التخلق بأخلاقه، فيقدر للمخلصين منهم حبه وتعتيمهم لرسول الله ﷺ، لكنهم أخطؤوا في وسيلة التعبير عن ذلك الحب، بمخالفتهم الصحابة وسلف الأمة بتخصيص هذا اليوم من السنة بأعمال يتقرب بها إلى الله، ومشابهة غير المسلمين والسير على نهج الفرق المنحرفة.

ولا نقصد هنا التقليل من عظمة حدث مولد الرسول ﷺ، ولا من فرحة المسلم بالأحداث العظام في تاريخ المسلمين، كأيام انتصاراتهم، بل إن الهدف من دراسة التاريخ الوقوف عند هذه الأحداث العظيمة وأخذ العبرة منها، وحفز الهمم بتذكرها والإفادة منها، وهذا لا يكون عندما نحصر ذلك في وقت محدد بيوم الحادثة، بل يجب أن نصوغ عليه أهدافنا ونصبغ به حياتنا، فمحبة الرسول ﷺ وتذكره، يجب أن يكون في قلب المؤمن في كل وقت. وتقديم طاعة الرسول ﷺ على هوى النفس، والسير على سته باطنا وظاهرا أصدق في محبة الرسول ﷺ من الحرص على حضور يوم

(١) صحيح مسلم: كتاب الصيام/ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

وليلة ثحيا بالأناشيد والضرب الدفوف والمزامير، وقد يكون من يحرص على إحيائها مخالف لسنة الرسول ﷺ في كثير من جوانب حياته.

رضاعته في ديار بني سعد:

كان من عادة قريش أن تبعث أطفالها إلى البادية؛ ليعيشوا هذه السن المبكرة من أعمارهم بين أحضان البادية؛ حيث فصاحة اللسان، ونقاوة الهواء، وجودة الغذاء - مقارنة بأجواء القرى التي تكثر فيها الأمراض - وليكسبوا من أخلاق أهل البادية القوة، والخشونة، وهذه مهمة في حياة العرب، التي فيها القتال سمة بارزة من سمات حياتهم. لذا، كانت المرضعات من أهل البادية، يأتين بين الحين والآخر، يبحثن عن مواليد جدد في مكة، مقابل أجر يأخذنه على ذلك. وفي العام الذي ولد فيه محمد ﷺ، قدم عدد من المرضعات، وكلما عرض عليهن رفضنه، لموت والده. والسبب كما قالت مرضعته حليلة: (فقلنا ما عسى أن تصنع بنا أمه أو عمه أو جده). وكانت حليلة السعدية^(١) آخر مرضعة قدمت، بسبب ضعف دابتها، فسبقتها المرضعات، وأخذن المواليد الجدد، ولم يبق إلا محمداً، فلم تأخذه أول الأمر ليطمه، ولما لم تجد أحداً قالت لزوجها الذي قدم معها: (والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذه).

ومنذ اللحظة الأولى ظهرت بركة الحبيب محمد ﷺ على بيت حليلة؛ فما أن رضع من ثديها حتى درّ اللبن عليه، وعلى ابنها - وكان ثديها قد جف من اللبن أو كاد - كما كان معهم شارف^(٢) قد جف ضرعها - هي الأخرى - من شدة هزالها، فدر لبنها تلك الليلة، فشربت حليلة وزوجها، وباتوا تلك الليلة بخير ليلة. فأدرك زوج حليلة أن هذا الوليد ليس مولوداً عادياً، فقال: (يا حليلة، تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة). وكانت راحلتها التي قدمت عليها سبب تأخرها عن صاحباتها؛ لما تعاني من الهزال، وفي العودة نشطت حتى سبقت من تقدمها من المرضعات، فتعجب من أمرها، وقلن: ما شأنها؟ فقالت: (والله حملتُ عليها غلاماً مباركاً).

(١) هي حليلة بنت الحارث من بني سعد.

(٢) الشارف الناقة المسنة (لسان العرب: شرف)

وتوالت بركة الحبيب ﷺ على بيت حليلة وزوجها. فعندما وصلوا إلى ديارهم - ديار بني سعد - وكانت سنتهم سنة جذب وقحط، وكانت أغنام قومها تروح جياً وتعود جياً، من قلة المرعى، إلا أن غنم حليلة وزوجها تروح جياً وتعود بظاناً شبعي، فيحلبون منها ويشربون.

ولما كان من المعتاد بقاء الرضيع سنتين عند مرضعته، فقد عادت حليلة ومعها زوجها بمحمد بعد سنتين إلى أمه، لا لترده، ولكن لتطلب منها أن تبقى عندهم مدة أطول، طمعاً في استمرار البركة عليهم، فأذنت آمنة، فعادا به مسرورين^(١).

حادثة شق الصدر الأولى:

بعد نجاح حليلة في العودة بمحمد الحبيب ﷺ إلى ديارها حدثت له في بادية بني سعد حادثة شق الصدر وهو في السنة الثالثة من عمره^(٢)، وقد أورد الإمام مسلم رحمه الله قصة هذه الحادثة في رواية موجزة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه وصرعه، فشق عن قلبه، واستخرج القلب، وأخرج منه علة، وقال: «هذا حظ الشيطان منك». ثم غسله في طست من ذهب، بماء زمزم، ثم لأمه^(٣)، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره^(٤) - فقالوا: إن محمداً قد قتل. فاستقبلوه وهو ممثق^(٥) اللون). وقال

(١) عن أخبار رضاعه ﷺ من حليلة انظر: سيرة ابن هشام: ١ / ١٧٢ - ١٧٧، وابن حبان: موارد الظمان: ٥١٢، ٥١٣، والطبراني: المعجم الكبير ٢٤ / ٢١٢ - ٣٢١٥، وأبو نعيم: دلائل النبوة: ١ / ١٩٣ - ١٩٦. وانظر تخريج الخبر في السيرة النبوية الصحيحة: لأكرم ضياء العمري: ١٠٢ / ١، و١٠٣، وصحيح السيرة النبوية: لإبراهيم العلي: ٣٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ١ / ١٧٥، ١٧٦. ابن كثير: السيرة النبوية: ١ / ٢٢٧. وذكر ابن سعد وغيره، أن ذلك في السنة الرابعة. الطبقات: ١ / ١١٢.

(٣) جمعه وضم بعضه إلى بعض.

(٤) مرضعته وهي حليلة.

(٥) متغير.

أنس بن مالك ؓ: (وقد كنت رأيت أثر المخيط في صدره)^(١). ويقول د. أكرم العمري معلقاً على هذه الحادثة: «ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاب مبكر للنبوة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه شيء إلا التوحيد. وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك؛ فلم يرتكب إثماً ولم يسجد لصنم، رغم شيوع ذلك في قومه»^(٢).

والجدير ذكره أنه تم شق صدره ﷺ مرة أخرى، ليلة الإسراء والمعراج.

وفاة أمه وجده وتوغله في اليتيم:

مكث محمد ﷺ عند حليلة حتى رده إلى أمه، وهو ابن أربع أو خمس سنين؛ ليعيش بجوار أمه، وينهل من حنانها. لكن الله شاء أن لا ينعم بالعيش في أحضانها طويلاً؛ فقد وافاها الأجل بين مكة والمدينة، بعد رجوعها مع صبيها من زيارة أخواله، وعمره حينئذ ست سنوات. فانتقلت كامل رعايته إلى جده عبد المطلب، الذي كان يحوطه بالرعاية مع والدته. وبعد وفاتها ازدادت عناية الجده بالصبي اليتيم، وخصه بمكانة لم يخصها أحداً من أبنائه، أو أحفاده. إلا أن هذه الحال لم تدم طويلاً؛ حيث توفي جده عبد المطلب بعد وفاة والدته بستين، وعمره عليه السلام ثمان سنوات. فكفله عمه أبو طالب، الذي لم يكن بأقل عناية ورعاية له من أمه وجده.

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى حكماً عظيمة، في قلب محمد عليه السلام في مراحل اليتيم، التي عاشها في صباه. فلم تكتحل عيناه برؤية والده؛ حيث ولد بعد وفاته، كما لم ينعم بجوار أمه أكثر من ستين، وما كاد حر مصيبة فقده لأمه يتلاشى حتى أصيب بفقد جده، كل ذلك وهو لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره. فلعل من تلك الحكم أن الله أراد أن لا يكون لأحد معين تأثير كبير في تكوين شخصية وأخلاق الحبيب محمد ﷺ، بسبب طول ملازمته له، بل أراد الله أن يتولى رعايته، وأن يكون اعتماده على ربه منذ نشأته، لا على أحد سواه. ومن كان اعتماده على ربه وتولى الله رعايته فالخير قرينه، والتوفيق حليفه. وإنا لنرى في واقع حياتنا، عدداً من الأيتام، توفى عن بعضهم أحد

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله. ١/ ١٦٦.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ١٠٤، وقال: انظر اجتهاد العلماء في استجلاء الحكمة من الحادثة.

والروض الأنف: للسهيلى: ٢/ ١٧٣. وفتح الباري: لابن حجر: ٧/ ٢٠٥.

والديه، أو كلاهما، فرثى من حولهم لحالهم، وتخوفوا على مآلهم في هذه الحياة الدنيا، ولكن اعتماد متوليهم على الله، ورعاية الله لهم، جعلت حياتهم أسعد، وأفضل من غيرهم، ممن حظي برعاية والديه، وكان اعتماده عليهما كبيراً.

الاعتماد على النفس:

رعي الغنم:

بعد وفاة عبد المطلب، عاش الحبيب محمد ﷺ في كنف عمه أبي طالب، وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال، ومع ذلك قبل رعاية ابن أخيه، وأسبغ عليه عظيم عطفه، وكبير إحسانه، فأراد محمد ﷺ أن لا يبقى عائلة على عمه دون أن يشاركه في تخفيف العبء وتحمل المسؤولية، فكان يتولى رعي الغنم لأهل مكة، مقابل قرارات يطأخذها على ذلك. ورعي الغنم هي مهنة الأنبياء عليهم السلام، في بعض مراحل حياتهم، كما قال ﷺ: (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أراهما على قراريط لأهل مكة)^(١).

مزاولة التجارة:

ولكي يعتمد المصطفى ﷺ على كسب يده ويستغنى بكسبه عن سواه دخل مجال التجارة لعله يجد فيها ربحاً أكثر من رعي الغنم، فورد أنه كان يعمل في التجارة قبل البعثة شريكاً للسائب بن أبي السائب المخزومي، فلما كان فتح مكة وجاءه السائب قال له ﷺ: (مرحباً بأخي وشريكي كان لا يداري ولا يماري)^(٢). وقد أسهم حسن تعامل

(١) صحيح البخاري: كتاب الإجارة، باب: رعي الغنم. وقال ابن حجر رحمه الله قال العلماء: الحكمة في إهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفون به من القيام بأمر أمتهم، ولأن في غالطتها ما يحصل لهم من الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها، وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره، كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها، واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبوا كسرهما، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة، لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم. (فتح الباري: ٤ / ٤٤١)

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣ / ٤٢٥. المصنف لابن أبي شيبة: ٧ / ٤١٠

النبي ﷺ في نجاحه في ميدان التجارة مما جعله يلفت الأنظار إليه، وهذا ما دعا خديجة بنت خويلد تختاره ليتاجر بها عدة مرات^(١).

سفره إلى الشام وقصة بحيرى الراهب:

حين قارب الحبيب محمد ﷺ الثانية عشرة من عمره، سافر مع عمه أبي طالب، في قافلة تجارية إلى بلاد الشام، وحينما شارفوا على بلاد الشام كان أحد الرهبان واسمه "بحيرى" يقرب القافلة من ديره^(٢)، فرأى عجباً! رأى غمامة تسير مع القافلة، فدفعه ذلك إلى أن يستوقفهم، ويدعوهم إلى طعام صنعه لهم، وأخذ يتفحص القوم، حتى أخذ بيد الفتى محمد ﷺ، وقال: هذا سيد العالمين. وذكر لهم علامات النبوة التي ذكرت عند أهل الكتاب، مثل: خاتم النبوة الذي بين كتفيه، وناشد عمه أن يعود به، وحذره من اليهود، والروم، لو يعلمون به^(٣).

أخلاقه ومكانته قبل البعثة:

على الرغم من أن محمداً ﷺ عاش في مجتمع اختلطت فيه محاسن الأخلاق بسيئها، إلا أن الله اصطفى له أحاسنها وصانه من الوقوع في سيئها؛ مما أكسبه مكانة رفيعة في نفوس الناس، كبيرهم وصغيرهم. وأهم تلك الأخلاق:

[١] كرهه للأصنام، فلم يسجد لصنم من الأصنام قط، ولم يكن يأكل مما يذبح لها، بل كان يكرهها كرهاً شديداً، فحين يسأله أحد باللات والعزى كان يقول له: (لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما)^(٤).

(١) سنن البيهقي: ١١٨/٦. ورواه الحاكم في المستدرک وصححه: ٢٠٠/٣ (نقلا عن المكتبة الألفية للسنة النبوية).

(٢) الدير مكان يعتزل فيه الرهبان للعبادة بعيداً عن الناس.

(٣) عن قصة سفر الرسول إلى الشام وحديث الراهب بحيرى انظر: سنن الترمذي: ٢٥٠/٥ حديث: ٣٦٢٤، وصحيح سنن الترمذي للألباني: ١٩١/٣، وقال عنه: صحيح. وأنكر بعض المحققين قصة الراهب بحيرى مثل الذهبي وابن كثير رحمهما الله. انظر التفاصيل. مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ١١٩.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٥٤/١.

[٢] الصدق في القول، والعمل، وحسن أداء الأمانة، حتى أصبح "الأمين" لقباً يميزه عن غيره.

[٣] بعده عما كان يمارسه أقرانه الشباب من اللهو والطرب. فقد همّ مرة أن يسمر ليلة كما يسمر الفتيان، فترك غنمه التي يرعاها عند صاحب له من الرعاة، فلما دنا من مكة أخذته النوم، فما أفاق إلا على حرّ الشمس، ثم فعل ذلك ليلة أخرى فعصمه الله بالنوم أيضاً. ويقول ﷺ في ذلك: (فما هممت بعدها بأمر سوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته)^(١).

[٤] مشاركة قومه في عظام الأمور. فعندما كان عمره ﷺ بين الخامسة عشرة والعشرين سنة نشبت حرب الفجار بين قريش وكنانة من جهة وقيس عيلان من جهة، وكانت مشاركته فيها غير مباشرة حيث كان أعمامه يخرجونه معهم، فكان يرد نبل عدوهم عنهم^(٢).

وحضر ﷺ - وعمره عشرين سنة - حلفاً عقدته قبائل قريش فيما بينها في دار عبدالله بن جدعان، يدعى حلف الفضول، تعاهدوا فيه على أن لا يجدوا مظلوماً في مكة - من أهلها أو من غيرهم - إلا كانوا معه على من ظلمه، حتى يردوا له حقه. قال ﷺ عن هذا الحلف: (شهدت حلف المطيبين مع عمومي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكته)^(٣).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک: ٢٤٥/٤، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. العلي: صحيح السيرة النبوية: ٤٣.

(٢) وحرب الفجار وقعت بين قريش ومن معهم من كنانة، وبين قيس عيلان. وسميت بذلك لانتهاك حرمة الأشهر الحرم وانتهاك المتحاربين للحرمات. عن حرب الفجار انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٢٠١/١، السيرة النبوية لابن كثير: ٢٥٥/١. ولم يرد خبر مشاركة الرسول ﷺ في حرب الفجار بسند صحيح، وإنما أورده ابن هشام بإسناد منقطع.

(٣) مسند الإمام أحمد: ١٩٠-١٩٣، والحاكم في المستدرک: ٢/٢٢٠، ٢١٩ وقال حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة: ٤/٥٢٤. وفي رواية: (ولو دعت به في الإسلام لأجبت). البداية والنهاية لابن كثير: ٩٢/٢.

وحين بلغ الخامسة والثلاثين من عمره قامت قريش بتجديد بناء الكعبة، فكان يشارك قومه في أعمال البناء، ويقوم بنقل الحجارة. ^(١) وتجلت مكانة المصطفى ﷺ ورجاحة عقله وحكمته في حادث رفع الحجر الأسود. فحين بلغ البناء موضع الحجر الأسود وأرادت فريش أن تضعه مكانه، حدث بينهم خلاف، حول من يتشرف بوضعه في مكانه. كل قبيلة منهم تريد هذا الشرف. وانتهى خصامهم بتحكيم أول داخل للمسجد من باب بني شيبه لحل خلافهم. فكان محمد ﷺ أول داخل، فاستبشروا بدخوله، وقالوا: (أتاكم الأمين). فأمر بكساء، فوضع الحجر في وسطه، ثم أمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف منه وأمرهم جميعاً أن يرفعوه، ثم أخذه فوضعه مكانه ^(٢)؛ فأنهى بهذا التصرف الحكيم خلافاً كاد أن يؤدي إلى نزاع وفرقة بين قبائل قريش.

كل تلك الأخلاق العالية، والتصرفات الحكيمة، جعلت الحبيب محمداً ﷺ يتبوأ مكانة في مجتمعه، لفتت الأنظار إليه، وجعلت الناس من حوله يحلّونه، ويحترمونه.

الزواج السعيد:

برز في مجتمع العرب عدد من النساء اشتهر بعضهن بالحكمة ورجاحة العقل، وبعضهن اشتهر بالتجارة ووفرة المال، وكانت خديجة بنت خويلد ممن جمعت بين ذلك، فهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فتجتمعت في نسبها مع سيدنا محمد ﷺ في جده قصي بن كلاب. وكانت تستأجر الرجال للمتاجرة بمالها في أسواق الجزيرة العربية، فلما سمعت بأخلاق محمد وكريم صفاته، عرضت عليه أن يخرج ليتاجر بمالها إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من الرجال. فقبل،

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب كراهة التعري في الصلاة وغيرها، وفي كتاب الحج، باب فضل مكة وبنائها.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٢٥، ومستدرک الحاكم: ٣/ ٤٥٨. وانظر تخريج الحديث في السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري: ١/ ١١٦، وانظر: نسب قريش للزبيدي: ٢٣١، وابن حزم: جوامع السيرة: ٣٨، ٣٩.

وخرج متاجراً لها، يرافقه غلامها "ميسرة". وعاد محمد ﷺ وقد نجح في مهمته خير نجاح، وحقق لخديجة ربحاً وفيراً.

وقد ذكر ميسرة لسيدته خديجة مزيداً من الصفات الحسنة- التي اكتشفها خلال رحلته- في الحبيب ﷺ. فذكر لها أمانته، وصدقه في المعاملة. فزادها ذلك إعجاباً به، ورغبة في القرب منه، فدعاها ذلك إلى التفكير في الزواج منه. ولم يكن ذلك حباً منها لمجرد الزواج، فقد كان كثير من رجال قريش وأشرافهم يطمعون في الزواج منها، ولكنها ترفض الزواج من أي واحد منهم، أما محمد فقد طمعت في أخلاقه وجميل صفاته، فعرضت عليه الزواج، فوافق على ذلك. ولم تكن موافقته على الزواج منها- وهي أكبر منه- طمعاً في مالها، بل طمعاً في أخلاقها، ورجاحة عقلها، مما يوفر له معها حياة أفضل، ويتوقع منها- أكثر من غيرها- تفهماً لواقعها المتميز عن واقع قومه. وهي قبل ذلك وبعده اصطفاء من الله له لتكون - بما تملكه من صفات متميزة - سنده الذي يشد من أزره، ويخفف من أعباء مهام الدعوة التي تنتظره في مستقبله المرتقب.

وكان عمره حين تزوجها خمساً وعشرين سنة، وعمرها - على المشهور- أربعين سنة، وبقيت زوجته الوحيدة حتى توفيت، وأنجبت له أربع بنات، وابنتين اثنتين^(١).

وقفات حول مكانة خديجة ﷺ :

مكانتها عند الله وعند رسوله:

نبأت خديجة ﷺ كانة كبيرة في الإسلام، ومنزلة عند الله عظيمة، لما كان لها من شأن عظيم في وقوفها مع النبي ﷺ عندما بعث، تؤمن من روعه عند الفزع، وتشد من أزره حين يخلد الناس، وتواسيه بما لها، وتسليه، بما يخفف عنه ما يلاقيه من أعباء في طريق الدعوة، لذا استحقت من الله التقدير والتكريم. فعن أبي هريرة ؓ قال: (أتى جبريل عليه السلام النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام وطعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها

(١) عن زواجه ﷺ بخديجة انظر: مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٢٥، ومستدرك الحاكم: ٣/ ٤٥٨. وانظر تخریج الحديث في السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري: ١/ ١١٦. وانظر: نسب قريش للزبيري: ٢٣١، وابن خزم: جوامع السيرة: ٣٨، ٣٩.

بيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه، ولا نصب^(١). كما استحقت من الرسول ﷺ حبها، وجميل الثناء عليها، حتى بعد وفاتها. فعن عائشة قالت ﷺ: (ما غُرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غُرْتُ على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر من ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبيعها في صدائق خديجة، فربما قلت له كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة؟) فيقول: (إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد)^(٢).

* توضح مكانة خديجة، ووقوفها بجانب النبي ﷺ، ما للمرأة من مكانة عظيمة في الإسلام، وتحملها المسؤولية الكبيرة في القيام بواجبها تجاه هذا الدين، ونصرته، بما يتناسب مع طبيعتها، منذ اللحظة الأولى لانطلاقة الإسلام، تماماً كما يتحمل الرجل مسؤولياته في ذلك بما يتناسب مع طبيعته. فعلى المرأة المسلمة أن تدرك تلك المسؤولية، ولا تجعل من نفسها صيداً سهلاً لأعداء الإسلام، الذين يدركون خطر أثر المرأة في قوة الإسلام، أو ضعفه، فراحوا يخططون لتكون معولاً يهدم في جسم الأمة المسلمة.

* يبين إكثار النبي ﷺ من الثناء على خديجة، وتعهد صواحبها، ما كان عليه ﷺ من خلق عظيم، يظهر في صدق وفائه لزوجته وأم أولاده، ولو بعد مماتها. ولم يشغله الزواج بعدد من النساء بعدها عن حبه لها، أو نسيان جميلها، فلم يرض لأحب زوجاته، وأقربهن إلى قلبه، أن تنال منها بشيء. وهذا درس لمن يتنكر لزوجته الأولى، وأم أولاده، بمجرد ما يتزوج عليها، فينشغل بمن بعدها عنها، ويهمل شأنها وشأن أولادها، وهم على قيد الحياة. وهذا ولا شك نقص في الدين، ومناف للمروءة.

(١) صحيح البخاري: مناقب الأنصار: باب تزويج خديجة وفضلها، وصحيح مسلم: فضائل الصحابة: باب فضائل خديجة أم المؤمنين.
(٢) صحيح البخاري: مناقب الأنصار / ٢١.

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثالث

البعثة

وانطلاق الرسالة

وفيه:

- حالة العرب قبل البعثة.
- بدء الوحي. مراحل الدعوة في العهد المكي.
- المرحلة السرية؛
- مرحلة الجهر بالدعوة؛
- أساليب المشركين في مواجهة الدعوة؛
- موقف الرسول ﷺ من الابتلاءات.
- البحث عن نصير للدعوة.
- الدعم المعنوي.

حالة العرب قبل البعثة:

الحالة الدينية:

انتشر في جزيرة العرب قبل الإسلام عدد من الديانات ومن أهمها:

الوثنية:

ظل معظم العرب يدين بعد إسماعيل عليه السلام بدين إبراهيم "الحنيفية" ولكن مع مرور القرون انحرف العرب عنها، وبلغ الانحراف ذروته خلال زعامة خزاعة على مكة، حيث استفحلت الوثنية ولم يبق من معالم الحنيفية إلا بعض المشاعر المتصلة بالحج للبيت العتيق وحتى هذه المشاعر لم تسلم من التحريف. وكان عمرو بن لحي الحزامي أول من أدخل الأصنام إلى جزيرة العرب، قدم بها من الشام ونشرها مستغلا مكانته في الحجاز، فاتخذت كل قبيلة صنماً لها تعظمه، وتفتخر به، وأقاموا عليها المعابد، وقدموا لها القرابين. وقد ورد في الحديث بعض ما ناله عمرو بن لحي جزاء نشره عبادة الأصنام وحرفه الناس عن دين إبراهيم عليه السلام، فورد أن الرسول ﷺ رآه في النار يجرق قصبه^(١).

وكان العرب في وثنتهم يؤمنون بوجود الإله، ويقولون بأنه خالق الكون ومدبره، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^(٢). ولكنهم في وثنتهم جحدوا توحيد الله بالعبادة، فأشركوا معه الأصنام في العبادة، وزعموا أنها تقربهم إلى الله.

ومن انحرافات الوثنيين إنكارهم للبعث بعد الموت والجزاء بعد البعث، كما ذكر الله ذلك عنهم: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾^(٣).

ومن مظاهر الانحراف عند الوثنيين التحاكم إلى الكهنة والعرافين، والتطير، والاستقسام بالأزلام.

(١) صحيح البخاري: كتاب المنقب، باب قصة خزاعة. ورواه الحاكم في المستدرک: کتاب الأحوال.

(٢) سورة العنكبوت، الآية [٦١].

(٣) سورة الأنعام، الآية [٢٩].

وكانت الأجيال يتابع بعضها بعضاً في تلقي هذه المعتقدات، دون تفكير، أو مناقشة، في مدى صحتها، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾^(١).

اليهودية:

وظهرت اليهودية في جزيرة العرب على أثر هجرة اليهود من الشام في المرة الأولى فراراً من غزو (بختنصر) البابلي وتخريبه لبيت المقدس سنة ٥٨٧ ق.م. وفي المرة الثانية بسبب الغزو الروماني لفلسطين سنة ٧٠م. وعلى أثر تلك الهجرتين استقر عدد من طوائف اليهود في شمال جزيرة العرب والحجاز في يثرب وتيماء وخيبر وغيرها، فأنشؤوا القرى، وأقاموا الحصون والقلاع.^(٢)

وكان لليهودية ظهور في جنوب جزيرة العرب على يد تبان أسعد أبي كرب ملك اليمن الذي مر بالحجاز خلال بعض حروبه واتصل باليهود في يثرب واعتنق اليهودية، وقدم معه بحرين من أحبار يهود بني قريظة إلى اليمن، وكان لهما أثر في نشر اليهودية هناك.^(٣)

التصوفانية:

وكان وجودها في جنوب جزيرة العرب في نجران على يد "فيميون" وهو أحد عباد النصراني في الشام وكان زاهداً مجاب الدعوة، وكان ينتقل بين القرى يخفي عبادته كلما ظهر أمره في قرية خرج منها إلى غيرها، وأسره رجال بعض القوافل التجارية وباعوه في نجران، وقد لفت بعبادته وزهده نظر من اشتراه، فدخل في دينه، وفيميون هذا هو الذي هدى الله على يديه الغلام المؤمن (عبدالله بن الثامر) الذي دعا أهالي

(١) سورة الزخرف، الآية [٢٢].

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ١/ ٥٨٦-٥٩٠. تاريخ ابن خلدون ١/ ١٠٦، ١٠٧، ١٤٠. السهمودي: وفاء الوفاء: ١/ ١٦٠، ١٧٨ أفواذ حمزة: قلب جزيرة العرب: ٢٥١. نقلاً عن الرحيق المختوم: ٥٢.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير: ١/ ٢٠-٢٣.

نجران إلى الإيمان بالله وتوحيده، فآمنوا على يديه بالله ودخلوا النصرانية على ما جاء به عيسى عليه السلام من الإنجيل. ولكن حاكم حمير ابن تبان أسعد "ذا نواس" كان متعصبا لليهودية فسعى لإجبار أهل نجران على اعتناق اليهودية بالقوة، فلما لم يستجيبوا له خد الأخدود وأحرقهم فيه بالنار^(١). وهم ممن نزل فيهم قوله تعالى في سورة البروج: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ۖ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾^(٢) وتمكن بعض من نجا من القتل من الفرار إلى بلاد الروم، واستنجد بقيصر الروم، فبعث معه رسالة إلى ملك الحبشة النصراني "النجاشي" يأمره بأخذ الثأر لنصارى نجران، فبعث ملك الحبشة جيشا إلى اليمن فساروا إلى ذي نواس وهزموه، وأصبحت اليمن تحت قبضة الأحباش النصارى فعملوا على نشر النصرانية، خاصة بعد تولي "أبرهة الحبشي" الذي بنى في صنعاء كنيسة كبيرة وسعى لصرف الناس إلى الحج إليها وتوجه بجيشه لهدم الكعبة فأرسل الله عليهم طيرا أباييل ترميهم بحجارة من سجيل كما جاء ذكره في القرآن الكريم في سورة "الفيل"^(٣).

وفي الأطراف الشمالية لجزيرة العربية كان للنصرانية وجود، حيث اعتنقتها بعض القبائل نتيجة احتكاكها بالنصارى في شمال الجزيرة التي تخضع لنفوذ دولة الروم النصرانية، وقد شارك أعداد كبيرة من هذه القبائل المنتصر مع الروم في حروبهم ضد المسلمين مثل قبائل: لخم، وجذام، وبلقين، وبهراء، وبلي، والغساسنة، وغيرها. وبجانب تلك الديانات يوجد في الجزيرة العربية وجود ضئيل لبعض الديانات مثل الصابئة الذين يعبدون الكواكب، مثل عبادة ملكة سبأ وقومها للشمس. وهناك المجوسية في المناطق القريبة من الفرس، كما يوجد أفراد قليلون من الذين أدركوا فساد ما عليه العرب من الشرك، فتعبدوا على بقايا دين إبراهيم عليه السلام. ويسمى

(١) مختصر من السيرة النبوية لابن هشام: ٣٠-٢٦/١. وعن قصة الغلام المؤمن انظر: صحيح

مسلم/ باب قصه أصحاب الأخدود. حديث/ ٣٠٠٥.

(٢) سورة البروج، الآيتان [٤-٥].

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٥٠-٣٦/١.

هؤلاء بالخيفيين أو الخنفاء^(١). ومن أشهرهم زيد بن عمرو بن نفيل، ويوضح بحث زيد هذا عن الدين الصحيح ما وصلت إليه الحالة الدينية من الانحراف عند العرب وغيرهم حتى أصبح العالم بحاجة ماسة إلى نبي جديد يأتي بدين صحيح يهدي البشرية الحائرة إلى الطريق الصحيح.

فمن ابن عمر: (أن زيدا بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني فقال لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد ما أفر إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا وأنى أستطيعه فهل تدلني على غيره قال ما أعلمه إلا أن يكون خيفاً قال زيد وما الخيف قال دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله قال ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبداً وأنى أستطيع فهل تدلني على غيره قال ما أعلمه إلا أن يكون خيفاً قال وما الخيف قال دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم^(٢)).

الحالة السياسية:

يمكن تقسيم الحكم في الجزيرة العربية قبل الإسلام إلى شكلين من أشكال الحكم هما: الملك المتوج و سيادة القبيلة.

[١] الملك المتوج:

المتمثل في قيام دويلات في عدد من أطراف الجزيرة العربية^(٣)، كدولة المناذرة في "الحيرة" في طرف العراق، ودولة الغساسنة في "بصرى" في طرف الشام، ودول "معين،

(١) مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٧٢.

(٢) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب حديث زيد بن نفيل. تفسير الطبري: ج ٣/ ص ٣٠٧.

(٣) انظر: هذه الدويلات في ملحق الخرائط.

و سبأ، وحمير" في اليمن جنوب الجزيرة العربية، ودولة كندة في وسط الجزيرة العربية في نجد. إلا أن هذه الدول لم تكن على قدر كبير من الاستقلال، حيث وقعت تحت تأثير النفوذ الأجنبي المتمثل في نفوذ دولتي الروم والفرس اللتين تقاسمتا الزعامة على العالم آنذاك. فقد قبل الفرس منذ عهد "أردشير" العرب بحكم بعض قبائل العرب للمناطق المتاخمة لبلاد العرب، ليتمكنوا من الاستعانة بهم على صد الغارات العربية على بلاد الفرس، كما يجعلوا منهم عائقاً أمام أطماع ملوك الروم المنافسين لهم، وكان المناذرة آخر من تولى الحكم في الحيرة من العرب قبل الإسلام. وكذلك الشأن في الشام فقد اصطنع الروم بعض القبائل العربية ليتمكنوا بهم من صد غارات العرب على حدود دولتهم، وليتخذوهم عدة ضد منافسيهم الفرس، وكان الغساسنة آخر من تولى الحكم في أطراف الشام قبل الإسلام واتخذوا من: "بصرى" قاعدة لهم. أما في جنوب الجزيرة فقد تعرضت اليمن - في أواخر حكم دولة حمير - لسيطرة النفوذ الأجنبي، فقد تمكن الأحباش من السيطرة عليها حينما بعثوا جيوشهم لاحتلال اليمن رداً على ما فعله (ذو نواس) بنصاري فخران كما سبق ذكره. وظلت اليمن تحت الاحتلال الحبشي منذ سنة ٥٢٥م إلى سنة ٥٧٥م حينما ضعف أمر الأحباش بعد حادثة الفيل فساحت الفرصة للفرس بالتدخل عندما استنجد بهم بعض أهل اليمن، وانتهت سيطرة الفرس على اليمن بمجيء الإسلام حينما دخل آخر حكامهم - باذان - في الإسلام^(١).

[٢] سيادة القبيلة:

كانت معظم مناطق جزيرة العرب خاضعة للسيادة القبلية، حيث تعدّ القبيلة هي الوحدة السياسية التي ينتمي لها الفرد، فبأمرها ياتمر، وتحكمه أعرافها، ومن أجلها يناضل، وعن شرفها يدافع. كما أن القبيلة بأسرها مسؤولة عن الدفاع عن أفرادها، والذود عن حقوقهم، وعلى كل فرد أن يقف مع أخيه من قبيلته، ظالماً كان أو مظلوماً كما قال شاعرهم:

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ٢/ ١٢٤ وما بعدها.

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
وقول الآخر

وهل أنا إلا من غزوة إن غوت غويت وإن ترشد غزوة أرشد
ونتيجة لذلك، نشبت حروب طاحنة بين بعض القبائل العربية، دام بعضها عقوداً
من السنين، كان سببها خلاف بين أفراد. كحرب البسوس، وحرب داحس والغبراء،
وقد كانت تلك الأوضاع ممهدة لقبول العرب للدين الإسلامي، حيث أفنت تلك
الحروب أعداداً هائلة من العرب، وأودت بهم إلى حال سيئة، أصبحوا ينشدون
الخلاص منها، فوجدوا ذلك في الدين الجديد.

الحالة الاجتماعية:

تعد الأسرة هي الركيزة الأساس التي يقوم عليها مجتمع جزيرة العرب قبل
الإسلام، وكان النكاح على أنواع مختلفة منها الزواج بخطبة ومهر وهو الشائع بينهم
وأقره الإسلام، ومنها أنواع أخرى حرمها الإسلام ما هي إلى مظهر من مظاهر
الدعارة والزنا^(١).

(١) روى البخاري في صحيحه: عن أم المؤمنين عائشة ؓ، قالت: إن النكاح في الجاهلية كان
على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يحب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها
ثم ينكحها، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا ظهرت من طمثها، أرسلني إلى فلان
فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع
منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا
النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم
يصبوها، فإذا حملت ووضعت ومر ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل
منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو
ابنك، يا فلان، تسمي من أحببت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح
رابع يجتمع الناس فيدخلون على المرأة، لا تمتنع من جاءها، وهن البغايا، كن يتصنن رايات على
أبوابهن تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن.

وفي الوقت الذي يحظى فيه الرجل في المجتمع العربي بالسلطة التامة، والمكانة العالية، نجد المرأة مهضومة الجانب مسلوبة الحقوق، ومن أهم مظاهر ظلم المرأة في المجتمع العربي:

[١] كره المرأة والتشاؤم من إنجاب البنات، وقد ذكر الله ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ ۚ أَيَسْكَبُ عَلَىٰ هُونٍ ۖ أَمَرِئِدْشُهُ فِي الْأَرْحَابِ ۚ لَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١) وربما أدى هذا الكره إلى واد البنات^(٢) عند بعض الأفراد، وأنكر الله عليهم هذه العادة الاجتماعية المقيتة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ﴿٣﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾^(٣) ويعود هذا الكره والوَاد للبنات إلى الخوف من الفقر، والعار، حيث المرأة معرضة للسخة لكثرة الحروب عند العرب.

[٢] حرمان المرأة من الميراث، ويزعمون أنه لا يرث إلا من يحمل السيف ويحمي البيضة.

[٣] اعتبارها جزءاً من متاع الرجل، فإذا مات الرجل وله أبناء من غيرها كان ابنه الأكبر أحق بها من غيره، ففي صحيح البخاري (عن ابن عباس رضي الله عنه): «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ۚ ۖ الْآيَةُ قَالَ: كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقُّ بِأَمْرَاتِهِ إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ نِزَاجَهَا وَإِنْ شَاءُوا زَوْجَهَا وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يَزَوْجُوا فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ»^(٤).

ومع هذه النظرة الظالمة للمرأة فقد استطاع عدد من النساء فرض أنفسهن في المجتمع العربي حيث لفتن الأنظار إليهن بما أوتين من رجاحة في العقل والرأي، وحسن تصرف، وشجاعة، كما برز بعضهن في مجال التجارة.

(١) سورة النحل، الآية [٥٨-٥٩].

(٢) واد البنت دفنها وهي حية.

(٣) سورة التكويد، الآيتان [٨-٩].

(٤) وانظر تفسير ابن كثير: تفسير الآية [١٩] من سورة النساء.

وجدير بالذكر أن هذا الظلم الذى تعرضت له المرأة فى المجتمع العربى تعرضت لمثله أو أشد منه المرأة فى المجتمعات الأخرى عند اليونان والمجوس والهنود، مما يؤكد أن الحالة الاجتماعية قبل الإسلام - ليس عند العرب فحسب بل فى العالم - قد باتت فى حاجة ملحة إلى من يصلحها وهذا ما حققه الإسلام.

أخلاق العرب:

ساد فى المجتمع العربى قبل البعثة جملة من الأخلاق والأعراف الاجتماعية، منها ما هو حسن، ومنها ما هو سيم. ونشير إلى بعض النوعين:

فمن جملة الأخلاق السيئة: انتشار شرب الخمر، ولعب الميسر "القمار"، وواد البنات عند بعض القبائل، ومنها التطير. وقد حرم الإسلام تلك الأخلاق، وخلّص العرب منها، ووجههم إلى خير منها. فكانوا يلجؤون لشرب الخمر للتخفيف على نفوسهم، مما يجدونه فى حياتهم من العناء والهموم، بسبب كثرة موتاهم من جراء الحروب، أو بسبب قساوة المعيشة. فلما جاء الإسلام حرم الخمر لما فيه من المفسد الكبيرة على الجسم، والعقل، ولأن فى الإيمان بالله - بما يزرعه من طمأنينة - خير عزاء للمسلم، فيما يجده من هموم الحياة ومشكلاتها. كما حرم الإسلام وأد البنات، حيث كان سببه يرجع إلى خوف العار عندما تسبى المرأة، والعربى معروف بشدة حرجه عندما يخذش شرفه. أو خوفاً من الفقر. ولكلا الأمرين كان كثير من العرب يكره البنات، ويفرح بإنجاب الأبناء. فلما جاء الإسلام حرم هذا النوع من التعامل مع المرأة، وأبطل كل نظرة تقوم على احتقار المرأة، وكرمها تكريماً يليق بمكانتها، ويتناسب مع طبيعتها، وجعل وجودها عند الرجل بركة فى الدنيا ونجاة فى الآخرة، ومن ذلك قوله ﷺ: (من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار)^(١).

(١) رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم.

ولكن، كان لدى العرب جملة من الأخلاق الحسنة، التي فاقوا غيرهم فيها: كالشجاعة، والكرم، والوفاء بالعهود، والحفاظ على العرض، وصفاء الذهن، وبساطة العيش. وقد أكد الإسلام على التمسك بتلك الأخلاق، ووجهها توجيهاً سليماً. ولعل العرب بتلك الصفات الحسنة، استحقوا أن ينالوا شرف احتضان الإسلام في سني مهده، وتحمل أعباء انطلاقته الأولى.

نشأة مكة ومكانة قريش:

نشأة مكة:

بدأت نشأة مكة بقصة مجيء سيدنا إبراهيم بزوجه هاجر وابنها الرضيع إسماعيل عليهم السلام إلى موضع مكة، وكانت إذ ذاك وادٍ غير ذي زرع، لا سكن فيه ولا ساكن، وتركهما وحيدين، وحين ابتعد عنهما حيث لا يرونه رفع يديه يدعو الله الذي أمره بذلك قائلاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(١) وقد استجاب الله دعوة إبراهيم عليه السلام، فقد رضيت هاجر عليها السلام بالواقع حين علمت أنه أمر الله لنبيه، ومكثت أياماً مع وليدها حتى نفذ زادها وماؤها، وبعد معاناة مع الجوع والعطش والتردد سبع مرات بين جبلي "الصفاء" و"المروة" بحثاً عن مخرج أرسل الله ملكاً من ملائكته فبحث الأرض بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه بالتراب وتغرف الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، وذلك ماء "زمزم". فأنحلت لها مشكل الطعام والغذاء، فزمزم كما قال ﷺ: (إِنهَا طَعَامٌ طَعْمٌ...) ^(٢) ولكن بقيت تعاني الوحدة والوحشة، فمكثت على ذلك حتى مرت فرقة من قبيلة جرهم اليمانية واستدلت بالطير على مكان الماء، فاستأذنوا أم إسماعيل في المقام معها على الماء فأذنت على أن لا يكون

(١) سورة إبراهيم، الآية [٣٧].

(٢) صحيح مسلم: باب فضائل أبي ذر رضي الله عنه.

لهم حق في الماء، فأرسلوا إلى قومهم فجاؤوا فترلوا، فأنست بهم هاجر واستوطنت جرحهم المكان، فلما شب إسماعيل تعلم العربية من جرحهم وتزوج منهم.

وقد جاء إبراهيم عليه السلام للاطمئنان على أهله عدة مرات، فجاء مرة ولم يجد إسماعيل فسأل زوجته عن حالهم، فاشتكت إليه ضيق العيش وسوء الحال، فأمرها أن تقرأ ابنه السلام وتقول له: غير عتبة بابك. فلما جاء إسماعيل عليه السلام وأخبرته الخبر قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك وطلقها وتزوج منهم بأخرى. ثم قدم إبراهيم عليه السلام مرة أخرى ولم يجد ابنه، فسأل زوجته عن حالهم، فقالت: نحن بخير وأنت على الله، فأمرها أن تقرأ ابنه السلام وتقول له: ثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أمسكك. وجاء إبراهيم عليه السلام في المرة التالية ووجد إسماعيل وبعد أن صنع له ابنه ما يصنع الولد لوالده قال له إبراهيم: يا إسماعيل إن الله أمرني، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. فرفع إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام البيت على القواعد التي حددها الله لهما^(١)، فلما انتهى البناء توجه إبراهيم إلى ربه بالدعاء: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾^(٢) وقد استجاب الله دعاء إبراهيم هذا ودعاه الأول فجعل الله أفئدة الناس متعلقة بهذا البيت تأتيه من كل فج عميق، كما جعله آمناً يحترمه القريب و البعيد، وأصبحت الأرزاق تأتي إلى أهله ومن سكن حوله من كل مكان^(٣).

(١) كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ٱلِلطَّائِفِينَ

وَٱلْقَائِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ سورة الحج، الآية [٢٦].

(٢) البقرة/١٢٦.

(٣) عن قصة إسماعيل وأمه وبناء البيت انظر: صحيح البخاري: كتاب: الأنبياء. حديث/

٣١٨٤، ٣١٨٥. مسند الإمام أحمد: ١/٣٤٧.

مكانة قريش^(١) عند العرب:

بعث الله إسماعيل رسولا فدعا الناس للتوحيد وعبادة الله، وتوفي بعد أن عمر ما يزيد على مائة وثلاثين سنة، وتولي بعده ابنه نابت، وبعد نابت تولى الأمر جده "مضاض بن عمرو الجرمي" وظل أمر مكة في جرحهم يتوارثونه قرونا طويلة^(٢) وعلى الرغم من تكاثر أبناء إسماعيل وذريته إلا أنهم لم ينازعوا جرحهم الحكم لخؤولتهم لهم وتعظيمهم البيت الحرام. ولكن جرحهم مع مرور القرون ظلموا وكثر فيهم الفساد، فكان ذلك مؤذنا بزوال حكمهم، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^(٣) وكان ذلك على يد قبيلة خزاعة التي نزحت من اليمن ونزلوا حول الحرم فاجتمعوا على حرب جرحهم وغلبوهم وأجلوهم من مكة، وكان آخر من تولى أمر جرحهم عمرو بن الحارث بن مضاض الجرمي وهو القائل يرثي مصير جرحهم:

(١) اختلف في مَنْ يطلق عليهم قريش، فقليل هم ولد النضر بن كنانة، وقيل هم ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. واختلف في تسمية قريش بذلك على أقوال كثيرة منها: من القرش وهو التجمع، لأنه لما فرغ قصي من نفى خزاعة من الحرم تجمعت إليه قريش. وقيل نسبة إلى قريش ابن الحارث بن مخلد بن النضر بن كنانة به سميت قريش فغلب عليها لأنه كان دليلها وصاحب ميرتها فكانوا يقولون جاءت عبر قريش وخرجت عبر قريش. وقيل سميت قريش لأنهم كانوا أصحاب تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع ولا ضرع والقرش الكسب، يقال هو يقرش لعباله ويقترش أي يكتسب. وقيل نسبة إلى سمك القرش كما قال المطرزي: سميت قريش بدابة في البحر هي سيدة الدواب البحرية وكذلك قريش سادة الناس، قال الشاعر:

وقريش هي التي تسكن البحر — ر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولا — تترك فيه لذي جناحين ريشا
هكذا في البلاد حي قريش — يأكلون البلاد أكلا كميشا
عن الأقوال في قريش وسبب تسميتها انظر: ابن كثير السيرة النبوية: ٨٤/١. ابن حجر: فتح
الباري: ٦/ ٥٣٤. معجم البلدان: ٣٣٦/٤.

(٢) ذكر بعض الكتاب أنهم حكموا عشرين قرنا. المبارك فوري: الرحيق المختوم/ ٣٧.

(٣) سورة هود، الآية [١٠٢].

وقائلة: والدمعُ سكبُ مبادرٍ وقد شرقت بالدمع منها المحاجرُ
 كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
 فقلتُ لها والقلبُ مني كأنما يلجلجه بين الجنا حين طائرُ
 بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروفُ الليالي والجدودُ العوائر^(١)
 وتولت خزاعة أمر الحرم ومكة قرابة ثلاثمائة سنة، وفي ولايتهم دخلت عبادة
 الأوثان في الحجاز - كما سبق ذكره - وكان بنو إسماعيل قد اعتزلوا الحرب بين
 جرهم وخزاعة، وكان آخر ولاية خزاعة (خليل الخزاعي) قد زوج قصي بن كلاب
 القرشي ابنته، وتمكن قصي من انتزاع الولاية من خزاعة حين جمع قبائل قريش
 المتفرقة واستعان ببعض العرب وحارب بهم خزاعة، وانتهى أمر ولاية البيت الحرام
 لقصي وهو أول من أظهر شأن قريش وفرض مكانتهم عند العرب، وقد اتخذ عددا
 من الخطوات في ذلك ومنها:

* جمع بطون قريش ووزع مكة أرباعاً وأنزل كل قوم منهم منازلها.

* أنشأ "دار الندوة" لتكون مقراً لاجتماع كبار قريش عند حلول الأزمات وفصل
 الخصومات.

* أنشأ عددا من المهام لخدمة البيت الحرام وقاصديه، كالسقاية، حيث اندثرت ماء
 زمزم في عهد جرهم واحتاج الحجاج إلى الماء فبنى حياضاً يملأها بالماء للحجاج.
 والرفادة، وهي إطعام الحجيج، فقد قال لقومه: يا معشر قريش، إنكم جيران الله،
 وأهل مكة وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق بالضيافة،
 فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم. وكانت لقصي حجابة
 البيت، وكذلك اللواء فلا يعقد لواء للحرب وغيره إلا تحت قيادته أو بإذنه^(٢).

(١) ابن كثير: السيرة النبوية: ٥٨/١.

(٢) عن تلك المناصب التي كانت لقصي انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١٣٦/١. فتح الباري

وبهذه الأعمال وغيرها استطاع قصي أن يجعل لقريش مكانة عند العرب، وقد سار من بعده أبناؤه وأحفاده في ترسيخ تلك المكانة، وكان من أهم ما قاموا به في ذلك تأمين تجارة قريش التي عرفت بـ (الإيلاف) وفي ذلك يقول ابن الأعرابي: «أصحاب الإيلاف أربعة إخوة، هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل، بنو عبد مناف ابن قصي، وكانوا يؤلفون الجوار يتبعون بعضه بعضاً، يجيرون قريشاً بميرهم، وكانوا يسمون المجيرين، فأما هاشم فإنه أخذ حبلاً من ملك الروم، وأخذ نوفل حبلاً من كسرى، وأخذ عبد شمس حبلاً من النجاشي، وأخذ المطلب حبلاً من ملوك حمير، فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بجبال هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم»^(١).

وقام هاشم بن عبد مناف بعملين كان لهما أثر في ترسيخ مكانة قريش، أولهما أنه حين أصاب أهل مكة مجاعة شديدة في إحدى السنوات ذهب إلى الشام وجاء معه بقافلة من الخبز فهشمه وطبخه وقدمه لأهل مكة، فلقب بهاشم وكان اسمه عمرو، والأمر الآخر أنه أول من سن لقريش رحلتي الشتاء والصيف.

أما ابنه عبد المطلب فقد حدث خلال زعامته لقريش حدثان زادا من مكانة قريش، أولهما حفر بئر زمزم، وقد كانت بئر زمزم قد اندثرت في عهد جرهم فرأى عبد المطلب في النوم من يأمره بحفر زمزم، فلم يعمل شيئاً أول الأمر، فلما تكررت رؤياه تلك وحدد له في المرة الرابعة مكان البئر بدأ في الحفر يساعده ولده الحارث، فلما أشرف على الماء نازعته قريش في ذلك، فاحتكموا إلى كاهنة في أطراف الشام، وفي الطريق نفذ ماء عبد المطلب ومن معه، وامتنع وفد قريش من تزويدهم بالماء خوفاً من العطش، فلما أشرف عبد المطلب ومن معه على الهلاك، نبعت عين ماء تحت خف راحلته حين انبعثت، فشرب ومن معه ودعا أفراد قريش للشرب منها، فلما رأوا ذلك قالوا: يا عبد المطلب والله لا نخاصمك في زمزم أبداً الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشداً. فرجع عبد المطلب وواصل حفر بئر

(١) لسان العرب: ١٠/٩.

زمزم حتى خرج له ماء زمزم المبارك واستعان به عبدالمطلب لسقاية أهل مكة وزوار البيت الحرام، فزاد هذا من شرفه ومكانة قومه.^(١)
أما الأمر الآخر فتمثل في غزو أبرهة الحبشي لمكة وهلاك جيشه حين أرسل الله عليهم طيرا أبابيل كما ذكره تعالى في سورة الفيل، فزاد ذلك من مكانة البيت الحرام ومكانة أهله عند العرب.

(١) عن حفر عبدالمطلب بئر زمزم انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ١٥٤. أخبار مكة للأزرقي ٢ / وقال أكرم العمري: ومصادر معلوماتنا عن قصة حفر زمزم هو الصحابي الجليل علي بن أبي طالب... وأما طريق نقل الرواية فهو سند حسن إلى علي عليه السلام من رواية ابن إسحاق مصرحا بالسماع. (السيرة النبوية الصحيحة: ١ / ٩١)

البعثة النبوية

بدء الوحي:

كان لابد لنزول الوحي على المصطفى ﷺ من تهيمد وتهيته، وتمثل ذلك في الرؤيا الصالحة يراها في منامه، ثم تتحقق في يقظته، واضحة كوضوح فلق الصباح. وفي ذلك تهية لنفسه ﷺ لقبول نزول الوحي عليه. كما كان ﷺ يشعر بالرغبة في العزلة عن الناس، والخلوة بنفسه، ووجد في غار حراء القريب من مكة مكاناً مناسباً لخلوته، فكان يمكث فيه أياماً وليالي، يطيل فيه الفكر والتدبر، حتى ينفد زاده، ثم يعود لزوجته خديجة يتزود منها بالزاد، ثم يعود للغار.

وبينما هو في حالته تلك، إذ أنزل الله عليه ملكاً من ملائكته، وهو جبريل عليه السلام، فقال لحمد ﷺ: (اقرأ). فقال: (ما أنا بقارئ). أي لا أعرف القراءة - وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب - فأخذه جبريل فضمه إليه بشدة ثم تركه، وقال: (اقرأ). فقال: (ما أنا بقارئ). فأخذه جبريل وضمه مرة ثانية، حتى بلغ منه الجهد ثم تركه، وقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١). فلما ذهب عنه جبريل، عاد الحبيب محمد ﷺ إلى زوجته خديجة، وقد امتلأ رهبة، وأوصاله ترتجف من شدة الموقف، وقال لها: (زملوني، زملوني). فزملته - أي غطته في فراشه - حتى هدا، وذهب عنه الروح، فأخبر خديجة بخبره، وقال: (لقد خشيت على نفسي). ولكن الزوجة الصالحة - وهي تعرف خصاله الحميدة - قالت له: (كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

وزيادة في تثبيت فؤاد الحبيب محمد ﷺ، واستجلاء أمره، انطلقت خديجة معه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وهو من العرب الباحثين عن الحق، فدخل دين النصرانية وتعلم الإنجيل وكان يكتبه بالعبرانية. ففي صحيح البخاري أن خديجة قالت: يا بن عم اسْمَعْ من بن أخيك فقال له وَرَقَةُ يا بن أخيك ماذا تَرى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

(١) سورة العلق، الآية [١].

عليه وسلم خَبَرَ ما رَأَى فقال له: هذا الثاموسُ الذي نَزَلَ الله على مُوسَى يا لَيْتَنِي فيها جُدَعَ لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقال رسولُ الله ﷺ: (أو خُرجي هُم؟) قال نعم لم يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ بُذِرَ كُنِي يَوْمُكَ أَصْرُكَ نُصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لم يَنْشَبْ وَرَقَةً أَنْ تُوفِّيَ وَفَرَ الْوَحْيُ.

من كل ما سبق أدرك المصطفى ﷺ أنه نبي، لذا، حزن حزناً شديداً حين لم يعاوده الوحي وانقطع عنه أياماً، حتى أصابه همٌّ شديد، ولكن، لم تدم مدة انقطاع الوحي حيث نزل عليه جبريل بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾^(١) ثم تتابع نزول الوحي^(٢). وكان عمره ﷺ حين نزل عليه الوحي أربعين سنة.

وقفات حول بدء الوحي:

[١] كان تحنث الرسول ﷺ في غار حراء فرصة له: يتعد فيها برهة من الزمن، عن مخالطة مجتمع تفشو فيه منكرات وأخلاقيات تكرهاها نفسه، ويخلو بنفسه ليسمو بها، ويزكيها بالتأمل في خلق الله، والتفكر في آياته. ولا يستغني المسلم عن الخلوة النافعة، التي تحرره من الاستغراق في مفاتن الدنيا وملذّاتها، وتتشله من مفاصد الخلطة بالناس، وتتيح له الفرصة ليفكر في حاله، ويتنبه لمآله. وهذا خلاف الخلوة الضارة، التي يخلو الشيطان فيها، والنفس الأمارة بالسوء، بصاحبها ليقترف الذنوب.

[٢] في ضم جبريل عليه السلام لحمد ﷺ معانٍ كثيرة، من أهمها: أن في ذلك تنبيهاً له بأن يأخذ الأمر بالجد، ويهيئ له نفسه، كما أن فيه رداً على من يزعم - من أعداء الإسلام - أن الوحي مجرد خيالات يتخيلها النبي محمد ﷺ، وتفاعلات نفسية، ينتج عنها أفكار نورانية، وهدفهم التقليل من عظمة رسالة نبينا عليه السلام.

[٣] في حادثة بدء الوحي تأكيد لمكانة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ومواقفها العظيمة في تأييد الرسول ﷺ، والإسهام في نشر الإسلام.

(١) سورة المدثر، الآية (١-٢).

(٢) عن قصة نزول الوحي عليه ﷺ. انظر: صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٥٠ وما بعدها، والسيرة النبوية لابن كثير: ١/ ٣٨٥.

[٤] الأخلاق أصدق عنوان لصاحبها، وخير الشهود له أو عليه. فمعرفة خديجة بأخلاق المصطفى ﷺ جعلتها لا تخشى عليه سوء، بل بشرته بالخير، لما له من كريم الأخلاق، وعظيم السجايا.

أطوار الدعوة:

بنزول الوحي على حبيبنا محمد ﷺ بدأت مرحلة جديدة في حياته، مرحلة محمّلة بالمسؤوليات الجسيمة، مسؤوليات تبليغ الدعوة العظيمة، من ربه تعالى إلى الناس كافة، وتحمل ما سيلقيه في ذلك. وقد استمرت تلك المرحلة ثلاثاً وعشرين سنة، انقسمت إلى طورين، هما: الدعوة في العهد المكي، والدعوة في العهد المدني.

الدعوة في العهد المكي:

وتنقسم الدعوة في العهد المكي إلى مرحلتين، هما: المرحلة السرية، ومرحلة الجهر بالدعوة.

المرحلة السرية:

استمرت الدعوة فيها ثلاث سنوات^(١)، وتظهر أهم ملامح تلك المرحلة وطبيعتها في الآتي:

* تميزت فيها جهود الرسول ﷺ وتحركاته في نشر الدعوة بالسرية والخفاء. وقد اتضح ذلك من خلال حرصه على أداء عبادته، والتقاءه بأصحابه في الخفاء. فكان إذا أراد الصلاة خرج خارج مكة، في بعض الشعاب، لأدائها مع بعض أصحابه. وكانت الصلاة حيثئذ في وقتين: قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها^(٢). ويؤكد تلك السرية في هذه المرحلة، ما قاله الصحابي الجليل عمرو بن عبسة ؓ في خبر إسلامه حين قال: (أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث، وهو بمكة، وهو حيثئذ مستخف)^(٣).

(١) سيرة ابن هشام: ٢٧٤/١، وابن سعد في الطبقات الكبرى: ١/ ١٩٩، ومحمد بن عبد الوهاب

في مختصر سيرة الرسول ﷺ: ٦٧.

(٢) السهيلي: الروض الأنف ١/ ٢٨٢، ٢٨٣.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ٥٦٩.

* التركيز على غرس الإيمان بالله، وتوحيده في نفوس المؤمنين، وتجريدتهم من التعلق بكل ما سوى الله.

* عدم مواجهة المشركين أو الدخول معهم في جدال من أجل الدعوة.

* الاقتصار على دعوة من يثق فيهم الرسول ﷺ وأصحابه.

المسلمون الأوائل:

اقتصر الرسول في دعوته في هذه المرحلة على الذين من حوله، ممن تربطه بهم علاقة حسنة، ومن يتوسم فيهم الاستجابة لدعوته، لما يعرفه عنهم من حسن الخلق، ورجاحة العقل، وصدق القول، فهم - إن لم يستجيبوا له - فعلى الأقل لن يفشوا له سرًا.

ودخل في هذه المرحلة في الإسلام أقرب الناس لرسول الله ﷺ، من الرجال والنساء الذين عاشروه أكثر من غيرهم، فخبروه ووثقوا به. فكان أول من استجاب له من النساء زوجته خديجة، ومن الرجال صاحبه أبو بكر، ومن الصبيان ابن عمه وربييه علي بن أبي طالب، على صغر سنه، ومن الموالي مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنهم أجمعين. ولا شك أن هؤلاء بمبادرتهم نالوا شرف السبق إلى الإسلام، وما كان لهم أن يتشرفوا بهذه المكرمة من الله، إلا لما لهم من صدق السريرة، والبذل، والتضحية. فخديجة لا يخفى ما كان لها من بذل كريم من مالها، مواسة لرسول الله ﷺ، وتضحية عظيمة، بوقوفها إلى جانبه، وتثييته، وتسليته في كل أزماته. أما أبو بكر فاشتهر بملاصقته للحبيب المصطفى ﷺ أكثر من غيره، وتأثره بأخلاقه، حتى صار يكره ما يكره من التقرب للأصنام والتوسل لها، وصار بينهما إلفة لا تدانيها إلفة، مما جعل أبا بكر يثق بمحمد ﷺ، ويصدق، ويؤثره على نفسه، ويجعل ماله هبة له يتصرف به كيف شاء. فروى بسند صحيح: أن رسول الله ﷺ قال: (ما نفعتني مالٌ قط ما نفعتني مال أبي بكر). فبكى أبو بكر ﷺ وقال: (وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله). فلا عجب أن يكون أول رجل يدعوه الرسول ﷺ إلى الإسلام، فيبادر دون نظر أو تردد. أما علي بن أبي طالب ﷺ فقد هيا الله له الأسباب ليكون من أصدق الفتيان بمحمد ﷺ، حين كان والده أبو طالب كثير العيال، قليل المال، فطلب منه محمد ﷺ أن يأخذ علياً ليكون

عنده، وينفق عليه، ليخفف بذلك من معاناة عمه. لذا عاش علي عليه السلام في حجر الرسول ﷺ منذ نعومة أظفاره، وتأثر به، وتخلق بأخلاقه، وأحبه، ودخل فيما جاء به. أما مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فقد كان لحبه محمداً ﷺ، وتفضيل قريبه، والعيش معه، على والديه، ما أهله لنيل شرف السبق، ليكون أول مولى يدخل دين الله.

كان هؤلاء المبادرون للإسلام أول من أسرهم الرسول ﷺ بدعوته، وأول من تذوق حلاوة الإيمان بعد رسول الله ﷺ، ثم سعى هؤلاء لدعوة غيرهم للدخول في الدين الجديد، فدخل على يد أبي بكر عدد من المسلمين، حتى تكاثرت عدد الداخلين في الإسلام في هذه المرحلة، فبلغ أكثر من أربعين مسلماً ومسلمة^(١). وكل ذلك خفية. حتى إن بعض هؤلاء المسلمين لا يعرف بإسلام بعضهم الآخر.

فوائد في موضوع المرحلة السرية:

[١] أن المحسن يلقي جزاء إحسانه في الدنيا والآخرة، فأكرم الله أولئك السابقين بالرفعة في الدنيا على مبادرتهم. فخديجة رضي الله عنها أول من يبشر من الله بالجنة، كما جاء عن الرسول ﷺ: (أمرت أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب)^(٢). ويرفع الله ذكر أبي بكر رضي الله عنه فهو ثاني اثنين في الغار، وأول خليفة لرسول الله ﷺ. وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يرفع الله ذكره بالزواج من بنت رسول الله ﷺ، ويكون له منها حفيدا رسول الله ﷺ وسيدا شباب أهل الجنة، الحسن والحسين رضي الله عنهما. وزيد ابن حارثة يرفعه الله بحب نبيه ﷺ له، فهو حب رسول الله ﷺ.

[٢] من وفقه الله للخير، ومن عليه بالهداية، فلا يقصر ذلك على نفسه، بل يدعو غيره إليه، ويحب لغيره ما يحب لنفسه. وبمثل هذا الخلق انتشر الإسلام، وبه يتنشر الخير وينحسر الشر في كل زمان ومكان.

مرحلة الجهر بالدعوة:

(١) للوقوف على إسلام من أسلم في هذه المرحلة انظر: سيرة ابن هشام: ٢٢٤-٢٣٦.

(٢) صحيح البخاري: مناقب الأنصار: باب تزويج خديجة وفضلها: . وصحيح مسلم: فضائل الصحابة: باب فضائل خديجة أم المؤمنين.

إن دعوة مثل دعوة محمد ﷺ - جاءت لجميع البشر - لا يمكن أن تطول مدة سريتها، بل لا بد أن تعلن للملأ، ويجهر بها علناً، لذا أمر الله نبيه في السنة الرابعة من البعثة، أن يجهر بالدعوة، حيث نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

وأمره أن يبدأ بعشيرته الأقربين، حيث نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢) فكان يجمع قومه ليدعوهم إلى دين الله، وينذرهم من عاقبة إعراضهم عن دعوته. فمن ذلك أنه صعد يوماً على جبل الصفا منادياً: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب؛ أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟ قالوا نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال عمه أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله فيه: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَلَىٰ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٣).

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فقال يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رجماً سابلهاً يبلا لها^(٤).

(١) سورة الحجر، الآية [٩٤].

(٢) سورة الشعراء، [٢١٤].

(٣) سورة المسد، الآية [١].

(٤) عن خبر إنذار الرسول ﷺ لعشيرته انظر: صحيح مسلم: كتاب الإيمان/باب في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين. السيرة النبوية لابن كثير: ٤٥٥/١.

لكن قومه بادئ الأمر لم يعطوا دعوته أهمية، فلم يستجيبوا ولم ينكروا، حتى بدأ ينكر عليهم اتخذهم الآلهة مع الله، ويسفه عقولهم بعبادتهم أصناماً لا تضر ولا تنفع، حينها تبدل موقفهم إلى مواجهته بالعنف، والسعي للقضاء على دعوته، وإيقاف حركة الدخول فيها، سالكين في ذلك أساليب شتى.

أساليب المشركين في مواجهة الدعوة في مكة

سلك المشركون في مكة - لمواجهة الدعوة - أساليب شتى، نذكر أهمها:

[١] الاستهزاء والسخرية:

سلك المشركون في مواجهتهم للدين الجديد أسلوب السخرية والاستهزاء بالنبي المصطفى ﷺ، وبما أنزل عليه من الوحي. فكانوا يقولون: أما وجد الله إلا أن يرسل محمداً، وفي قريش من هو أشرف منه وأعظم؟ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(١).

فكانوا لا يسمونه باسمه، بل باللقاب فيها السخرية والاستهزاء، مثل: "مذمم" و"الصابي"، ورموه بالسحر، والكهانة، والجنون، والكذب. وقد رد الله عليهم في كل ما اتهموه به من تلك الأوصاف، التي هم أول من يعلم براءته منها.

كما كانوا يسخرون من أتباعه، فيقولون: أما تبعه إلا هؤلاء من بيننا، ويقولون له - سخريه - إذا أردت أن تتبعك فاطردهم عنك. وقد ورد في القرآن ما يبين بعض مشاهد استهزاء المشركين بالمؤمنين، مثل قوله تعالى في سورة المطففين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٦١﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٦٢﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾.

(١) سورة الزخرف، الآية [٣١].

والسخرية، والاستهزاء، والكذب، سلاح ما فتى أعداء الإسلام يستخدمونه لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، في كل عصر لا سيما في هذا العصر، مستغلين جميع وسائل الإعلام؛ وذلك حين عجزوا، أمام حجج الإسلام، وبراهينه الساطعة الدامغة.

[٢] اضطهاد أتباعه وقتنتهم:

وقد سلكت قريش في محاولتها فتنة المسلمين أسلوبيين، هما:

(١) الضغوط النفسية:

يلجأ بعض أقارب المسلمين من الكفار، إلى الضغوط النفسية، للتأثير على المسلمين، كما فعلت أم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، حين أقسمت أن لا تكلمه، وأن لا تأكل، ولا تشرب، حتى يكفر بدينه؛ لعلها أن المسلمين يحترمونها والديهم. وقالت: «زعمت أن الله وصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا أمرك بهذا». فكان يغشى عليها من الجهد والتعب، فإذا أجبروها على شربة ماء شتمت سعداً، فشق ذلك عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

(ب) التعذيب الجسدي:

لقي أتباع النبي ﷺ من الأذى أشده، ومن التعذيب أقساه، من كفار قريش، في محاولة منهم لإيقاف حركة هذا الدين الجديد، وصد الناس عن الدخول فيه. يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنه، موضعاً ظروف تلك الفترة العصيبة، التي عاشها أوائل المسلمين: (كان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه، إما قتلوه، وإما يعذبوه)^(٢). وكان من وسائلهم في ذلك: الضرب، وحبسهم في حر الشمس وقتاً طويلاً، مع وضع الصخور الثقيلة عليهم، أو إلباسهم الدروع الحديدية الحارة، وأمر الصبيان بسحبهم في الطرقات ليسخر منهم الناس. فمنهم من فقد بصره، ومنهم من مات في

(١) سورة العنكبوت، الآية [٨].

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب وقتلهم حتى لا تكون فتنة ٣٠.

التعذيب، ومنهم من يغمى عليه من شدة الأذى، واضطر بعضهم أن يستجيب لقريش من شدة الأذى وينطق - مكرهاً - بالكفر بمحمد، ليتخلص من العذاب، فإذا أفاقوا من العذاب شق عليهم ما تكلموا به، فأنزل الله على نبيه قرآناً يبيح لهم ذلك، مادامت قلوبهم مطمئنة بالإيمان، فقال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

ولقد كان نصيب الموالي الذين لا يجدون عشيرة تحميهم من هذا التعذيب كبيراً، ولا يتسع المجال للذكر ألوان العذاب الوحشي التي تعرّض لها الموالي، ولكن على سبيل المثال: فقد كان أمية بن خلف يمنع مولاه بلال بن أبي رباح رضي الله عنه من الماء، حتى إذا اشتد عطشه أخرجه في الرمضاء، في اليوم الحار، ويعذبه، ويأمر بتعذيبه، ويضع الصخرة العظيمة على صدره، حتى إذا بلغ به العذاب متناه قال له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فلا يزيد ذلك بلالاً إلا إصراراً، فيقول: أنا كافر باللات والعزى. فيغتاظ منه أمية فيجعل في رقبته حبلاً ويدفعه للصبيان يجرونه في شوارع مكة. ولا يزال أمية يكرر معه هذه الطريقة الوحشية في التعذيب، وكثيراً ما يغشى على بلال من شدة التعذيب، وحينما يطلبون منه الكفر بمحمد ودينه لا يزيد على قوله: أحدٌ أحد. وظل على هذه الحال حتى اشتراه أبو بكر رضي الله عنه وأعتقه^(٢).

ومن عذب من الموالي خباب بن الارت. فقد ناله قريباً مما نال بلال، بوضع الصخر الملتهب على جسده، ومرة أوقدت نار ووضع عليها، فما أطفأها إلا ودك

(١) سورة النحل، الآية [١٠٦].

(٢) لكثرة ما لقي بلال من العذاب وردت عدة روايات في بيان ألوان العذاب التي مر بها، وللإختصار فقد صغت مجمل ما ورد في تلك الروايات. انظر: ابن هشام: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

١ / ٣٣٩-٣٤٠. وعن تلك الروايات انظر: مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ١٨٧، ١٨٨.

ظهره^(١). وقد دخل خباب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته وكشف عن ظهره وأراه أثر النار في ظهره^(٢).

أما آل ياسر (ياسر وزوجته سمية وابنه عمار) فهم مثال صادق للأسرة المبتلاة في سبيل الثبات على الدين. فكان أسيادهم بنو مخزوم يخرجونهم إذا اشتدت الظهيرة، فيعذبونهم، فيمر بهم رسول الله ﷺ فلا يملك إلا أن يقول مثبتاً لهم: (أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة)^(٣). وقد استشهدت سمية من جراء التعذيب، ثم لحق بها زوجها رضي الله عنه.

وإذا كان نصيب الموالى والضعفاء، الذين لا يجدون عشيرة تحميهم، من هذا التعذيب أكبر قدرأ من غيرهم، فإن أهل الشرف ومن لهم عشيرة قد نالوا نصيبهم من أذى التعذيب. فقد ضرب المشركون أبا بكر رضي الله عنه في المسجد الحرام، حتى ما يعرف وجهه من أنفه^(٤). وكان الحكم بن أبي العاص - عم عثمان بن عفان رضي الله عنه - حين بلغه إسلام عثمان يوثقه رباطاً^(٥). وكان عم الزبير بن العوام يلف الزبير رضي الله عنه بحصير^(٦)، ثم يدخن عليه النار^(٧).

ولم تكن المرأة المسلمة في تلك المرحلة بمعزل عن هذا التعذيب الوحشي، بل كان لها نصيب لا يقل عن نصيب الرجل من العذاب. فكما سبق، كانت سمية "أم عمار"

(١) سنن ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: ٣١/١ حديث ١٥٣، وأبو نعيم: حلية الأولياء: ١٤٤/١.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ١٦٥/٣.

(٣) رواه الحاكم في المستدرک: ٤٠٤/١. وقال صحيح على شرط مسلم. ابن هشام: سيرة النبي: ٣٤٢/١. والرواية فيه عن ابن إسحاق بلفظ: صبراً آل ياسر موعدكم الجنة.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية: ٣/٣٣، ٣٤. مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ١٨٢.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٥٥/٣.

(٦) الحصير بساط يصنع من أوراق النخل.

(٧) أبو نعيم: حلية الأولياء: ٨٩/١. مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ١٨٤.

أول شهيدة ضحّت بنفسها تحت التعذيب، وكانت مولاة تسمى "زنيرة" فقدت بصرها من شدة التعذيب، فقال لها المشركون: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: (كذبوا وبيت الله، ما تضر اللات والعزى، وما تنفعان، فرد الله بصرها)^(١). أما "أم شريك" غزية بنت جابر، فحين أسلم زوجها وهاجر، جاءها أهل زوجها وسألوها إن كانت على دينه، فلما أقرت بإسلامها، أجمعوا على تعذيبها، فأطعموها خبزاً وعسلأ، ومنعوا عنها الماء، وتركوها في الشمس، حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها، وكرروا ذلك ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث طلبوا منها ترك دينها، فلم تفعل غير الإشارة بأصبعها بالتوحيد، ولا تعي ما يقولون من شدة الإغماء، وفيما هي على هذه الحال أكرمها الله بدلو ماء نزل إلى فيها، فشربت منه، فكان ذلك سبباً في إسلام أهل زوجها^(٢).

وقفة مع التعذيب:

حين يستجمع الإنسان قواه، ويركز تفكيره، ويستجلب عواطفه - وهو يطّلع على هذه الصور البشعة من التعذيب - لا يملك إلا أن يتكدر خاطره، ويملاً الأسى أعماقه. هذا لمجرد قراءة نماذج محدودة من ذلك التعذيب، فكيف به لو كان شاهداً حياً لصور ذلك التعذيب؟ هل سيتحمل أو يطيق المشاهدة؟ فكيف لو كان هو أحد أولئك الذين اکتووا بنار ذلك التعذيب المفرط؟. إننا لا نملك أمام هذه الصور المفزعة إلا أن نقول: يا الله! ويا عجباً لذلك المخلوق المسمى "الإنسان"! حين نقف أمام صورتين متقابلتين: الصورة الأولى: حين يتجرد ذلك الإنسان من عواطفه، عندما يمتلك شيئاً من القوة، فيُلجّ في الظلم والطغيان وإيذاء الآخرين، إلى حدٍّ يخرج من آدميته إلى طبيعة الوحوش والسباع، بل أشد!

والصورة الأخرى: للإنسان، حينما يؤمن بفكرة سامية، ويملاً الإيمان بها قلبه، فيها يحيا وعليها يموت، ويهون عليه من أجلها كل شيء! ويزداد العجب حين نرى تلك

(١) ابن هشام: سيرة النبي: ١/ ٣٤١، ٣٤٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٧/ ١٥٥-١٥٧.

العظمة الزائفة في الصورة الأولى للإنسان الطاعى، تتحطم على صخرة العظمة الحقيقية في الصورة الثانية، ونعجب كيف يتحول عز أولئك الطغاة وجبروتهم الزائف إلى ذل مهين أمام صمود المستضعفين المؤمنين بفكرتهم. إنها صور متقابلة تتكرر في كل عصر، وفي عصرنا الحاضر شواهد حية على ذلك.

ولكن من أهم ما يمكن استخلاصه مما سبق: أن المبادئ العظيمة السامية، لا يمكن أن ترسخ في النفوس، ويعلم صدق إيمان أصحابها بها، ولا يمكن أن يكون لها وهج يجذب غير المؤمنين بها؛ إلا بمثل ما حدث لأولئك المؤمنين، أو قريباً منه.

[٣] محاولة إحراج الرسول ﷺ بطلب المعجزات:

وفي محاولة من قريش لإحراج الرسول ﷺ، أخذوا يلحون عليه بطلب المعجزات، كتحويل بعض جبال مكة إلى ذهب، وتفجير الأرض ينابيع، مثلما جاء في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ خَيْلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْقَالًا ۖ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُقِكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ﴾.

كما استعانوا باليهود في إثارة الأسئلة المحرجة له ﷺ، فقالوا لهم سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فجاءوا وسألوا الرسول ﷺ فقال: (أخبركم بها خدا)، ولم يقل إن

شاء الله، فأخر الله عنه نزول الوحي خمسة عشر ليلة، وفرح المشركون بتأخر الجواب وأرجفوا، وكان في هذا درس للنبي وعاه كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَأْنِي إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ وأنزل الله جواب السؤالين الأولين في سورة الكهف، وأجاب عن الروح بقوله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) ولم يزيدهم الجواب إلا تعنتاً لأنهم واليهود معهم لم يريدوا بهذه الأسئلة غير إحراج الرسول ﷺ، ولم يكن الحق مقصدهم.

[٤] بث الإشاعات والتشويش للحيلولة دون سماع القرآن.

لأن مشركي قريش يدركون أن للقرآن الكريم أثراً نافذاً إلى القلوب، لذا حاولوا أن يحولوا بين الناس وسماع القرآن الكريم، فكانوا إذا رأوا الرسول ﷺ يتلوا القرآن في الصلاة أو في أحد الجماع نهو الناس عن الاستماع إليه، ورفعوا أصواتهم باللغظ والتصفيير والتصفيق كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(٢) كما كانوا حريصين أشد الحرص على أن لا يسمعه أحد من القادمين من خارج مكة، فحين اقترب موسم الحج قال الوليد بن المغيرة: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً... وبعد طرح عدة اقتراحات حول ما يقال فيه، مجنون؟ أم كاهن، أم شاعر... أجمعوا على رأي الوليد بأن يقولوا عن الرسول ﷺ إنه ساحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء أخيه وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته. ففترقوا على ذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا له أمره.^(٣)

(١) سورة الإسراء، الآية [٨٥].

(٢) سورة فصلت، الآية [٢٦].

(٣) سيرة ابن هشام: ٢٨٣، ٢٨٤.

[٥] المفاوضات مع أبي طالب ليتخلى عن حماية الرسول ﷺ:

من حكمة الله أن عطف قلب أبي طالب على ابن أخيه محمد ﷺ وجبله على حبه حبا طبيعيا، جعله يحنوا عليه ويدافع عنه، وكانت قريش تحترم أبا طالب لمكانته فيهم، وتقدر له بقاءه على دينهم، وتراعيه خشية أن يدفعه حبه لابن أخيه إلى الدخول في دينه، ومع هذا فقد كان التزام أبي طالب بحماية الرسول ﷺ يحول دون كثير من مساعيهم لإيقاف دعوة الرسول ﷺ، لذا فقد حاولوا مرارا التأثير على أبي طالب للتخلي عن حماية ابن أخيه مستخدمين أساليب متنوعة لتحقيق ذلك. ففي المرة الأولى جاءه وفدهم لأبي طالب فقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه. فقال لهم قولوا لنا وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه^(١).

وورد أنهم أتوه مرة أخرى فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك يأتينا في كعبتنا وننادينا فيسمعنا ما يؤذينا به فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل. فبعث إلى النبي ﷺ فجاء فقال له: إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديبهم ومسجدهم فأنته عن أذاهم. فخلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: (أترون هذه الشمس؟) قالوا: نعم. قال: (فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة) فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي فارجعوا^(٢).

وفي رواية أن قريشا حين رأوا أن الرسول ﷺ ماض في طريقه وأن أمر عمه لم ينه، جاء وفدهم مرة أخرى ولكن بلهجة أشد حين قالوا: يا أبا طالب؛ إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢٧٧/١. من رواية ابن إسحاق بسند منقطع. مهدي رزق الله: ١٦٦.

(٢) ابن إسحاق: السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار: ١٥٥، بسند حسن، وصحح الألباني هذه الرواية: "سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/١٤٧".

حتى يهلك أحد الطرفين. فبعث أبو طالب إلى النبي ﷺ وقال له: إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا.. فابق على نفسك ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أن عمه سيتخلى عن نصرته فقال: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته). ثم بكى ﷺ وقام من عند عمه. فلما ولَّى ناداه عمه، وقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً^(١).

وهكذا ذهبت محاولات قريش لزعزعت أبي طالب عن موقفه من حماية ابن أخيه أدراج الرياح، واستمر ﷺ في تبليغ دعوة ربه لا يكل ولا يمل.

[٦] مساومة الرسول ﷺ للوصول معه إلى حل:

لما رأت قريش أن السخرية والعنف لم يجديا مع الرسول ﷺ وأصحابه، وأنها لم تخرج بشيء من عمه في كف ابن أخيه، وأن الداخلين في الإسلام في ازدياد، خاصة بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، لجأت إلى أسلوب المساومة مع الرسول ﷺ عليها تدفع به ولو خطوة واحدة في طريق التنازل عما هو عليه، لتكون مقدمة لخطوات أخرى تصل بها معه إلى منتصف الطريق. فورد أن قريشاً بعثت عتبة بن ربيعة ليعرض على الرسول ﷺ بعض الإغراءات، فجاء عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ﷺ: (قل يا أبا الوليد أسمع). فقال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالا، جمعنا لك من أموالنا

(١) هذا ملخص لما ورد عند ابن هشام: السيرة النبوية: ٢٧٨ / ١. عن ابن إسحاق. وهذه الرواية وإن كانت مشهورة لكنها ضعيفة سنداً. انظر حكم الألباني على الرواية: هامش فقه السيرة للغزالي/ ١١٤. و السلسلة الضعيفة ٢ / ٣١١. العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١ / ١٦٠. ولكن ضعف سندها لا يعني بالضرورة عدم ثبوتها.

حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد شرفا، شرفناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وأن كنت تريد ملكا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رأيي^(١) تراه ولا تستطيع أن ترده عن نفسك، طلبنا لك الطيب، ويزلنا فيه أموالنا حتى يبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له. ورسول الله ﷺ يستمع منه، فلما فرغ قال رسول الله ﷺ: (أفرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم، قال فاسمع مني، قال أفعل، فقرأ عليه ﷺ سورة فصلت التي أدهشت آياتها عتبة، فأنصت ملقياً بيديه خلف ظهره معتمداً عليها، فلما فرغ رسول الله ﷺ من قراءته قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فانت وذاك) فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورأيي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها في، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! فقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم^(٢). وفي بعض الروايات أنه لما بلغ ﷺ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. قال له عتبة: حسبك حسبك، ما عندك غير

(١) الرأي يقال للتابع من الجن.

(٢) هذا ملخص قصة التفاوض الذي أوردها ابن هشام في السيرة النبوية: ١/٣١٣، ٣١٤. عن ابن إسحاق، وقد علق الألباني رحمه الله عليها بقوله: «هذه القصة أخرجها ابن إسحاق بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلا، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى البغوي من طريق أخرى من حديث جابر ؓ»، كما في تفسير ابن كثير وسنده حسن، إن شاء الله. انظر هامش فقه السيرة للغزالي: ١١٣. ووردت قصة التفاوض هذه من طرق عدة فيها بعض التباين في ألفاظها، انظر: المصنف لابن أبي شيبة: ١٤/٢٩٥، وأبو يعلى في مسنده: ٣/٣٤٩، والمحاكم في المستدرک ٢/٢٥٣، وصححه ووافقه الذهبي، وأورد ابن كثير الروايات في تلك الحادثة في تفسيره: ٧/١٥١.

هذا؟. كما ورد أن عتبة عرض عليه إن كان يرد النساء فيلخر أي نساء قريش يريد،
ويزوجونه عشراً^(١).

ومن مواقف المساومة ما ورد من أن بعض رجال قريش طلبوا من الرسول ﷺ أن
يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، وقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما
نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك
فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك كنت قد شركتنا في
أمرنا وأخذت منه بحظك. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا

تَعْبُدُونَ﴾^(٢).

وفي آخر حياة أبي طالب وحين مرض حرص مشركو قريش على أن يتوصلوا إلى
حل مع النبي ﷺ يحقق لهم ما يريدون منه قبل أن يموت أبو طالب فيضطرون إلى
استخدام ما لم يكونوا يجرؤون عليه في حياة عمه فتعييهم به العرب.

فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكيف
عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذي يعبد، فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه
شيء فتعيرنا به العرب، يقولون تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه^(٣). فلما جاؤوا إلى أبي
طالب دعا الرسول ﷺ وقال له ما شأن قومك يشكونك؟ قال يا عم: إني أريدهم على
كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية، ففزعوا
لكلمته ولقوله فقال بعضهم كلمة واحدة؟ نعم وأبيك وعشرا، وما هي؟ قال: لا إله
إلا الله. فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا

(١) المصنف لابن أبي شيبة: ٢٩٦/١٤.

(٢) تفسير الطبري (٣٠٠: ٣٣١). الدر المنثور: ج ٨/ص ٦٥٥ وقال وأخرج ابن جرير وابن أبي
حاتم وابن الأنباري نحوه. عن موسوعة المكتبة الألفية للجنة النبوية/ مركز التراث للبرمجيات
وانظر: تفسير ابن كثير: ٥٢٧/٨.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/٢٦، ٢٧. تفسير ابن كثير: ٤٧/٧، ٤٨.

لشيء عجاب. فانزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ ﴿١﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِثُّ مَنَاصِ ﴿٢﴾ وَحِثُّوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٣﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٤﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ إِلَهِ يُكَفِّرُ عَنْ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٥﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ الْخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلَقُ ﴿٦﴾^(١).

[٧] مقاطعة قريش لبني هاشم:

لما رأى المشركون من قريش أن كل وسائلهم السابقة لم تجد مع الرسول ﷺ، في إيقاف دعوته، أو منع أحدٍ من الدخول فيها، بل رأت أن أمره في ازدياد، خاصة بعد دخول عمه حمزة، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما في الإسلام، مما زاد المسلمين عزة وقوة. لما رأت قريش ذلك لجأت إلى موقف أكثر جدية، فجدوا في التنكيل بالمسلمين حيث وكلوا إلى كل قبيلة تعذيب من أسلم منها. «فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم»^(٢) وأمام تداعي المشركين لمواجهة الرسول ﷺ وأصحابه، والوقوف بحزم للحد من حركة الدخول في الإسلام، رأى أبو طالب أنه بحاجة إلى من يعضده في حماية ابن أخيه، فدعا قومه من بني هاشم وبني المطلب إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام بدونه، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب عدو الله.^(٣) وأمام هذا الإصرار من أبي طالب وقومه في حماية الرسول ﷺ عازمت قريش على الضغط عليهم ليسلموا لهم الرسول ﷺ ويتخلوا عن حمايته، فقامت جميع بطون قريش، ومعهم قبيلة كنانة، على توقيع اتفاقية مقاطعة لبني هاشم وبني المطلب، تقتضي: أن لا يناكحوهم، ولا

(١) سورة (ص) وانظر الخبر في: صحيح ابن حبان: ١٥/ص ٨٠. مسند الإمام أحمد: ح/٢٠٠٨،

٣٤١٩. عن موسوعة المكتبة الألفية للسنة النبوية/ مركز التراث للبرمجيات) تفسير ابن كثير:

٤٨/٧. سنن الترمذي: ٣٤١/٥. وقال حديث حسن صحيح.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٨١/١.

(٣) انظر: المصدر السابق.

يباعوهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا لهم عمداً للقتل. فاضطر أبو طالب ومعه بنو هاشم وبنو المطلب، مسلمهم وكافرهم، إلى دخول أحد الشعاب، ومكثوا على هذه الحالة عصورين قرابة ثلاث سنوات، نالهم فيها الجهد، والجوع، حتى إنهم لياكلون أوراق الشجر، والجلود اليابسة، ودخلهم الخوف حتى لا يخرجون منه إلا للحاجة: كالطواف بالبيت، أو قدوم السوق حينما يعلمون أن قافلة تجارية قادمة للتموّن منها، وحتى إذا فعلوا ذلك، فإن بعض رجالات قريش يحذرون أصحاب القوافل أن يبيعوهم، ويغروهم بالشراء منهم بثمان مغرٍ، كما كانوا يمنعون من أراد تزويد أحد من أقربائه المحاصرين في الشعب بشيء من الزاد.

بقي الرسول ﷺ وقومه من بني هاشم وبني المطلب ومن انضم إليهم من المؤمنين في حالة الحصار قرابة ثلاث سنوات، حتى أخذت الشفقة خمسة من كبار قريش^(١) حكموا عقولهم، فاتفقوا فيما بينهم على إنهاء تلك المقاطعة، فدخلوا المسجد منفردين واتخذ كل واحد منهم مكانه فأعلن أولهم معارضته لهذه المعاهدة الجائرة ودعا لتمزيقها، فكذبه أبو جهل وأنكر عليه، فقام الثاني وصدق الأول ودعا لما دعا إليه، ثم قام الثالث وبعده الرابع ثم الخامس ودعوا الناس لنقض هذه الصحيفة الجائرة وتمزيقها، فتم لهم ما أرادوا. ومزقت الصحيفة، فخرج الرسول ﷺ وقومه من الشعب، وما زاده هذا الحصار إلا إصراراً على المضي في دعوته.^(٢)

٨] الاعتداء على الرسول ﷺ بعد وفاة أبي طالب وخديجة،

ما كادت محنة المقاطعة تنزعج عن الحبيب المصطفى ﷺ، حتى أصيب بابتلاء عظيم، تمثل في فقد عمه أبي طالب، وزوجته خديجة عليهما السلام، في السنة العاشرة من

(١) وهم: هاشم بن عمرو العامري، ومطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وأبو البخري بن هاشم بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة.

(٢) أخرج البخاري أصل حادثة الحصار في كتاب الحج: باب نزول النبي مكة، ومسلم في صحيحه: كتاب الحج: باب النزول بالمحصب يوم النفر. وفصلت كتب السير والمغازي في ذكر الحادثة: سيرة ابن هشام: ١/ ٣٧١. ابن سعد: الطبقات الكبرى: ١/ ١٨٨.

مبعثه، وسمي هذا العام عام الحزن، لما اجتمع عليه فيه من الأحزان والمصائب^(١). فقد كان عمه يؤمن له الحماية من أن تنال منه قريش ما تريد، وكان قد عاهد قومه على نصرة ابن أخيه، فوافقوه مع كفرهم، إجلالاً له وتقديراً لبقائه على دينهم، فلما توفي أبو طالب لم يعد قومه على استعداد لتقديم ذلك القدر من الحماية لمحمد ﷺ، لما يجره عليهم ذلك من صدام مع بطون قريش، فتخلوا عن نصرته. أما زوجته خديجة عليها السلام فكانت سنداً قوياً له في قيامه بدعوته، فكلما أصابه هم أو غم في طريق دعوته، ورجع إليها، خفت من آلامه، وهونت عليه مصابه، وأعطته دفعة قوية للمضي في سبيله. لذا دخل ﷺ هم وغم بفقد عمه وزوجته. وجراً ذلك قريشاً على النيل منه، فأصبحوا يخلصون إلى ما لم يكونوا يخلصون إليه في حياة أبي طالب، لا سيما لما رأوا النبي ﷺ ماض في دعوته، والداخلين في دينه في تزايد، فلم تكتف قريش في إيذائها له بالسخرية والاستهزاء، بل أقدموا على إيذائه جسدياً. فمن ذلك أنه كان قائماً يصلي عند الكعبة، وبعض رجالات قريش ينظرون إليه، فقال أحدهم: أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيضعه عليه إذا سجد؟ فقام عقبة بن أبي معيط، فجاء بذلك ووضع على الرسول ﷺ حين سجد. فضحك القوم حتى وقع بعضهم على بعض. فلما علمت ابنته فاطمة رضي الله عنها، جاءت فאלفته عن أبيها، وهي تبكي وتسبهم، والرسول ﷺ مستمر في صلاته، فلما فرغ منها أقبل عليهم، وقال: (اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك

(١) لم يرد بسند صحيح أن الرسول ﷺ سمي هذا العام بعام الحزن، ولكن أطلق بعض المؤلفين المتأخرين هذه التسمية على هذا العام لما أصاب الرسول ﷺ فيه من الهم والحزن لتوالي المصائب عليه. ويستأنس لذلك بما ورد في الصحيحين وغيرهما حين سألت عائشة عليها السلام النبي ﷺ: هل مر عليك يوم أشد من أحد؟ فقال: (لقد لقيت من قومي وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على بن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يُجِبيني إلى ما أردت فانطلقت وأنا منهزم على وجهي فلم أستقي إلا بقرن العُقاب) وفي مسند أبي عوانة (٤/ ٣٤٠) ورد (وأنا حزين) بدل وأنا مهموم.

بقريش. وأخذ يذكر أسماء أشدهم إيذاء له ويدعو عليهم، فما بقي من ذكر إلا وهلك في معركة بدر^(١).

وأقسم أبو جهل مرة أن يطأ على رقبة محمد ﷺ إن رآه يصلي. فلما جاء النبي يصلي تقدم إليه أبو جهل ليفعل به ما قال، ولكن الله منعه من ذلك، فقد جعل بينه وبين الرسول ﷺ خندقاً من نار، وأموراً رآها ولم يرها غيره، فعاد خائفاً.^(٢) كما تعرض له بالأذى عقبة بن أبي معيط مرة أخرى عند الكعبة، حيث أخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه على عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، حتى تدخل أبو بكر رضي الله عنه، فدفع عقبة، وقال: (أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟)^(٣). بل لم يسلم ﷺ من أذى النساء، فقد كانت زوجة عمه أبي لهب تضع الأذى في طريقه، فنزل فيها قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ في جِدِّهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ^(٤) كل ذلك والرسول ﷺ ماض في دعوته، يبلغ أمر ربه.

موقف الرسول ﷺ من هذه الابتلاءات:

وقف الرسول ﷺ في تلك المرحلة من أنواع الابتلاءات التي مرت به وأصحابه موقفاً عظيماً يتناسب مع عظمة رسالته، مستمداً تلك المواقف من توجيهات ربه، ونجملها في الآتي:

[١] ترسيخ الإيمان وتقوية الصلوة بالله:

حرص ﷺ على تربية أصحابه تربية إيمانية قوية، تمدهم بالعزيمة، التي تعينهم على تحمل تلك الابتلاءات. فكان يغرس فيهم الإيمان ويرسخه في نفوسهم، حيث كان يلتقي بهم سراً في دور بعضهم، يعلمهم القرآن وما ينزل عليه من تعاليم ربه، كما

(١) عن هذه الحادثة انظر: صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئاً.

وصحيح مسلم: ٣ / ١٤١٨ - ١٤٢٠.

(٢) صحيح مسلم: باب صفة القيامة والجنة والنار. تفسير ابن كثير، تفسير سورة العلق.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف: ١٤ / ٢٩٧.

(٤) سورة المسد، الآيتان [٤-٥].

كان يقوي فيهم الصلة بربهم، فيقوم معهم نصف الليل، أو قريباً منه لأداء الصلاة، امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَا الْمُزْمَلُ ۚ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۚ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۚ﴾^(١) فقاموا سنة على ذلك حتى تفتطرت أقدامهم، فخفف الله عنهم بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ﴾^(٢). ولا شك أن لقيام الليل أثره الكبير في إعداد ذلك الجيل الفريد، لتحمل تلك المسؤولية السامية، والمهمة العظيمة. وهذا ما ذكره الله تعالى في توجيهه لنبيه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۖ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۚ﴾^(٣). ومثل هذه التربية ضرورية لكل من يتصدى لمثل تلك المهمة العظيمة، مهمة الدعوة إلى الله، في كل زمان ومكان. وهي ضرورية لكل من ينشد لنفسه اجتياز امتحان الدنيا، وشهواتها، ومفاتها، وابتلاءاتها، بنجاح.

[٢] التحلي بالصبر:

كان الله يأمر نبيه بأن يتحلى بالصبر على ما يلقاه من سخرية، وأذى، في طريق الدعوة، بمثل قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۚ﴾^(٤) وكان الرسول ﷺ بدوره يحث أصحابه على الصبر على ما يلقونه من تعذيب وابتلاء، ويعددهم الجنة لقاء صبرهم وثباتهم. فكان يمر على آل ياسر وهم يعذبون، فيقول: (اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)^(٥). وجاء خباب بن الارت وبعض الصحابة

(١) سورة المزمل، الآيتان [١-٤].

(٢) سورة المزمل، الآية [٢٠].

(٣) سورة المزمل، الآيتان [٥-٦].

(٤) سورة المزمل، الآية [١٠].

(٥) إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية: ٧٠، وقال: قال الهيثمي في المجمع: ٢٩٣/٩ ورواه الطبراني ورجاله ثقات، وابن هشام: سيرة النبي: ١/ ٣٤٢.

ﷺ وسألوا رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم، أن يخفف عنهم ما يجدونه من العذاب، فتغير وجهه وقال: (لقد كان من قبلكم يحفر له حفرة ويحيا بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق، ما يصرفه عن دينه، ويمشط بأمشاط من الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه عن دينه...) (١).

[٣] أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة:

لما رأى ﷺ الأذى يزداد على أصحابه - حتى مات بعضهم - وهو لا يستطيع حمايتهم، ندب من يستطيع إلى أن يهاجر إلى أرض الحبشة، قائلاً: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد، فالحقوا بيلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه). فهاجر مجموعة من أصحابه إلى الحبشة الهجرة الأولى، وكان عددهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، ومكثوا أشهراً ثم عادوا إلى مكة، وفي حسابهم أن حدة موقف قريش قد هدأت، بعد إشاعة سرّ إليهم بذلك. ولكن لما وجدوا أن موقف قريش لم يتغير، بل زاد سوءاً، عندها أذن لهم ﷺ بالهجرة مرة أخرى، فهاجروا الهجرة الثانية في مجموعة أكثر من المرة الأولى، حيث بلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً، وثمان عشرة امرأة. وهناك في الحبشة تغيرت الحال، وعاش أولئك المهاجرون كما قالت أم سلمة ؓ: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار: النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نوذى ولا نسمع شيئاً نكرهه...) (٢) ولم يكدر صفو عيشهم هناك غير ثلاثة أمور:

أولها: غربتهم عن وطنهم، وبعدهم عن أحبائهم، لا سيما عن رسول الله ﷺ، الذي هم بأمس الحاجة لتوجيهاته. وقد عبرت إحدى المهاجرات - أسماء بنت عميس ؓ - عن هذه المعاناة في حوار مع عمر بن الخطاب ؓ، الذي كان يرى أنه ومن بقي مع رسول الله ﷺ في مكة وهاجر إلى المدينة أفضل ممن هاجر إلى الحبشة، حين قال لها: (سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق منكم برسول الله). فقالت: (كلا والله، كنتم

(١) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب ما لقي النبي وأصحابه من المشركين.

(٢) ابن هشام: سيرة النبي: ٣٥٧.

مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار البعداء البغضاء في الحبشة، وذلك في الله، وفي رسوله...^(١).

الثاني: وهو أشد ما كدر على المهاجرين عيشهم في الحبشة، حينما علموا بقدوم وفد يحمل بالهدايا، بعثته قريش، ليطلب من النجاشي رد المسلمين إلى مكة^(٢). وبدأ الوفد بالاتصال بالبطارقة المحيطين بالنجاشي، وغمروهم بالهدايا، وطلبوا منهم أن يشيروا على النجاشي برد المسلمين إلى قومهم، دون أن يكلمهم. فوافقوا على ذلك. ثم دخلوا على النجاشي وقدموا له الهدايا، فقبلها، ثم قالوا له: «أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دينهم، ولم يدخلوا دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم...» ثم طلبوا منه أن يسلمهم إليهم. وهنا تكلم البطارقة وأشاروا على النجاشي أن يسلمهم. ولكن النجاشي أبى حتى يسمع من المسلمين. فحضر المسلمون، وقد فوضوا جعفر بن أبي طالب ﷺ للحديث عنهم، فبين للنجاشي حالهم قبل مبعث النبي ﷺ، ووضح حقيقة الدين الذي آمنوا به، وذكر أهم التعاليم والأخلاق التي يحثهم عليها. ثم طلب النجاشي من جعفر أن يقرأ شيئاً مما جاء به نبيهم. فقرأ أول سورة "مريم"؛ فلم يتمالك النجاشي وبطارقته أنفسهم من البكاء، تأثراً بما سمعوا، ورفض طلب الوفد. وكان عمرو بن العاص داهية، فأراد أن يثير غضب النجاشي على المسلمين، فجاء من الغد وقال للنجاشي: إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً. فأرسل النجاشي إلى المسلمين ليسمع منهم ما يقولونه في عيسى عليه السلام. فدخل على المسلمين همّ عظيم، لكنهم اتفقوا على أن يقولوا الصدق مهما كلفهم الأمر. فلما سأل النجاشي جعفر عن عيسى قال: (نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: هو عبدالله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول). ولم يكن النجاشي مقتنعاً بما يعتقدُه عامة النصارى في عيسى عليه السلام؛ لذا فقد صدّق

(١) صحيح البخاري: المغازي/٣٨، وصحيح مسلم: فضائل الصحابة/١٦٩.

(٢) كان الوفد مكون من رجلين من دهاة قريش هما: عمرو بن العاص، وعبدالله بن أبي ربيعة.

ما قاله جعفر في عيسى، ولم يبال باعتراض البطارقة، ومن جديد أعطى المسلمين الأمان في بلاده، ووضع غرامة مالية على كل من يتعرض لمسلم بأذى. فزال بذلك خوف المسلمين، وعاشوا في أمن وطمأنينة.

الثالث: عاود المؤمنين في الحبشة الخوف حين ظهر منازع للنجاشي في حكمه، ودارت بينهما حرب ظل المسلمون خلالها يدعون الله أن ينصر النجاشي على خصمه. وزال خوف المسلمين بعد أن استجاب الله دعاءهم وانتصر النجاشي. وظل المسلمون في الحبشة حتى عاد بعضهم إلى المدينة بعد تسع سنوات من هجرة الرسول ﷺ إليها، قبيل معركة بدر، وأما الباقيون فقد مكثوا قرابة خمسة عشر سنة، حتى عادوا يوم فتح خيبر^(١). وهكذا نجد أن الهجرة إلى الحبشة قد أسهمت في التخفيف من معاناة بعض المسلمين.

٤] الدخول في الجوار:

وما استفاد منه الرسول ﷺ وأصحابه للتخفيف من وطأة التعذيب ما يسمى بـ"الجوار". والجوار عرف اجتماعي التزم به العرب في حياتهم الاجتماعية، وذلك حين يلجأ من يخاف على نفسه - لأمر ما - للدخول تحت حماية رجل يحتل مكانة في قومه، تمكنه من حماية من يدخل في جواره، فلا يجرؤ أحد على إيذائه. وهو يشبه اللجوء السياسي لدى الدول في العصر الحديث.

ومن أبرز الذين دخلوا في جوار بعض المشركين: أبو بكر الصديق رضي الله عنه. فقد خرج من مكة يريد الهجرة إلى الحبشة، فلقيه ابن الدغنة - سيد إحدى القبائل العربية - فقال: «مهلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج...» وأدخله في جواره، وعاد معه إلى مكة. فاشتريت قريش أن يصلي أبو بكر داخل داره بعيداً عن أنظار النساء والأطفال؛ خشية أن يتأثروا بصوته الرقيق بالقرآن، الذي غالباً ما يخالطه البكاء من خشية الله، وصلى أبو بكر مدة في داره، ثم بنى له مسجداً بفتاء داره، فإذا صلى فيه

(١) عن تفاصيل الهجرة إلى الحبشة انظر: سيرة ابن هشام: ٣٤٣/١، السيرة النبوية لابن كثير: ٣/٢.

اجتمع نساء وأطفال المشركين لسماع قراءته، فأقلق ذلك المشركين فكلموا ابن الدُّغْنَةَ ليطلب من أبي بكر أن يصلي داخل داره، حيث لا يسمع صوته. فطلب منه ابن الدُّغْنَةَ أن يفعل ذلك أو يرد عليه جواره. فقال أبو بكر (ﷺ): (إني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ورسوله) ^(١).

ومنهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فإن خاله العاص لما رأى أذى المشركين يشدد عليه أجاره، ولكن لم يلبث عمر حتى رد جوار خاله، ليصيبه ما يصيب إخوانه المسلمين من الأذى.

ومنهم عثمان بن مظعون (رضي الله عنه) فقد أجاره الوليد بن المغيرة، ولكنه لم يطق أن يرى إخوانه يعذبون وهو آمن، فرد جوار المغيرة. فلما رأى المغيرة عثمان وقد لُطِمت عينه من أحد المشركين قال له: «أما والله يا ابن أخي إن عينك عما أصابت لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة». فقال عثمان: (بل إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب اختها في الله، وإنني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر). وحين طلب منه المغيرة العودة إلى جواره أبى عثمان بن مظعون (رضي الله عنه) ذلك ^(٢).

أما رسول الله ﷺ فقد اضطر إلى الدخول في جوار المطعم بن عدي ^(٣)، لا من أجل حمايته من الأذى، ولكن ليتمكن من عرض دعوته، ونشر رسالته، حين طرده أهل الطائف وعاد إلى أهل مكة الذين أخرجوه.

والحقيقة أن عدداً قليلاً من المسلمين هم الذين تمكنوا من الحصول على الجوار؛ حيث لا يجاز - عادة - إلا من له مكانة، أو قريب، ولم يترتب على هذا الجوار شيء من الذلة لمن حصل عليه، فضلاً أن يكون على حساب دينهم. فلم يقبل أحد منهم أي شرط يجبره على التخلي عن أي ممارسة يملئها عليه دينه، بل إن أغلبهم - إن لم

(١) انظر: صحيح البخاري: كتاب الكفالة/ باب جوار أبي بكر. وكتاب الصلاة/ باب هجرة النبي

(٢) ابن حجر: فتح الباري: ١٥٣/٧.

(٣) الطبقات الكبرى: ٢١٢/١.

يكن جميعهم - قد تحلل من هذا الجوار، حيث لم تسمح لهم أنفسهم بأن يروا إخوانهم المسلمين تحت العذاب، وهم في مأمن منه.

ومن هنا نعلم، أن المسلمين لم يستفيدوا كثيراً من الجوار للتخفيف من أذى المشركين؛ لذا، كان تعويل الرسول ﷺ الأكبر لتخطي تلك المرحلة الحرجة من عمر الدعوة في مكة، على تربية أصحابه - كما سبق ذكره - تربية إيمانية تقوي صلتهم بالله، وتغذيهم بالصبر، احتساباً لما أعدّه الله للصابرين من أجر.

البحث عن نصير للدعوة:

الرحيل إلى الطائف:

بعد وفاة أبي طالب، واشتداد أذى قريش على المصطفى ﷺ، سعى جاهداً لإيجاد سند يخلف عمه أبا طالب في حمايته؛ لمواصلة دعوته. فرحل إلى الطائف أملاً في كسب قبيلة ثقيف، لحمايته، ومناصرة دعوته. فبدأ بساداتها فدعاهم للإسلام، وعرض عليهم دعوته، وطلب منهم مناصرته، فلم يقبلوا منه، وسخروا منه. فطلب منهم أن يكتموا موقفهم، وما دار بينه وبينهم؛ حتى لا يثيروا عليه الناس. لكنهم لم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم، وعبيدهم، فشتموه، ورجموه بالحجارة حتى أدموا عقبه، واجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى أحد البساتين^(١). فلما تفرق الناس، ورجع السفهاء، وخلا الحبيب المصطفى ﷺ بنفسه، وقد بلغ الألم والهلم منه مبلغه، ليس على ما أصاب شخصه فحسب، بل لخيبة أمله في ثقيف؛ إذ لم يجد فيهم سنداً يمكنه من مواصلة دعوته. في هذا الظرف العصيب يلجأ الرسول ﷺ إلى ربه، الذي لم يفقد الثقة به لحظة من اللحظات؛ ليشكو إليه وحده، بثه وحزنه، ويعرض عليه مصابه. فرفع يديه وقال: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك

(١) كان هذا البستان لشيبة وعتبة ابني ربيعة من قريش.

الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل علي غضبتك، أو يحل علي سخطك، لك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك^(١).

التقط الرسول ﷺ أنفاسه في هذا البستان، الذي أشفق عليه صاحبه، فأمر غلاماً نصرانياً لما اسمه عداس، أن يقدم للنبي ﷺ قطفاً من العنب. وكان عداس هذا هو المستفيد الأكبر من قدوم الرسول ﷺ للطائف، حين انتهى لقاءه بالرسول ﷺ بدخوله في الإسلام^(٢).

التسليّة والتثبيت (الدعم المعنوي):

في خضم الآلام والمصاعب التي تعرض لها المصطفى ﷺ بعد عام الحزن، أراد الله أن يخفف على نبيه مصابه، ويمده بما يقوي عزيمته، ويثبت فؤاده، فكانت له بعض الأحداث التي أسهمت في تسليته وتثبيته، ومنها:

عرض ملك الجبال:

بينما كان ﷺ عائداً من الطائف، والهموم تثقله، حتى لم يعد يشعر بنفسه، فإذا بسحابة تظله، فنظر فإذا بجبريل يناديه قائلاً: (إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت). فناداه ملك الجبال قائلاً: (يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين)^(٣). فقال ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً)^(٤).

إسلام بعض الجن:

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٨/٢. وقد روى هذا الدعاء ابن إسحاق، ولكن لأنه لم يسند فقد ضعفه الألباني، فقه السيرة للغزالي: ١٣٢. ورواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. قاله الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣٥/٦.

(٢) ذكر ابن حجر إسلام عداس في الإصابة: ٢٢٧/٤.

(٣) جبلا مكة أبو قبيس والذي يقابله.

(٤) القصة وردت في صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق: باب ٧/ح/ ٣٢٣١ في الفتح ٦/٣١٢،

٣١٣، وصحيح مسلم: ٣/١٤٢٠/ح/ ١٧٩٥.

بعد عودة الرسول ﷺ من الطائف، وحين نزل بيطن لخلعة قريباً من مكة، قام يصلي، فبعث الله له نفرأ من الجن فاستمعوا لقراءته، وآمنوا برسالته، ورجعوا إلى قومهم يدعونهم للدخول في الإسلام. وقد أوحى الله إلى نبيه بخبر هؤلاء الجن، وما كان منهم، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾^(١) وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾^(٢) ولا شك أن في هذا الحدث دعماً معنوياً للنبي ﷺ، وفالاً حسناً بانفراج الأمر. فالذي صرف قلوب أولئك الجن للدخول في الإسلام، والدعوة إليه، جدير بأن يصرف قلوب أولئك المعاندين من الإنس للدخول في الإسلام، والدعوة إليه كذلك.

الإسراء والمعراج:

كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل الهجرة بسنة، ومجمل هذه المعجزة أن الله أسرى بنييه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى في فلسطين، ومن المسجد الأقصى عرج به إلى السماوات السبع، فرأى في رحلته تلك من آيات ربه الكبرى، وتم فرض الصلوات الخمس خلالها^(٣). فجاءت تلك الحادثة للنبي ﷺ تثبيتاً وتسلية له في تلك الظروف.

العرض على القبائل:

بعد رجوع المصطفى ﷺ من الطائف، لم ييأس في بجته عن نصير يحميه لتبليغ دعوته، فعاد إلى بلده، بعد دخوله في جوار المطعم بن عدي، وأخذ يعرض نفسه على مختلف القبائل التي تفر إلى مكة في موسم الحج. فكان يتنقل بين القبائل، وتجمعات الناس في الحج، وكان مما يقوله في ذلك: (يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا بي،

(١) سورة الأحقاف، الآية [٢٩].

(٢) سورة الجن، الآية [١]. وعن خبر استماع الجن انظر: سيرة ابن هشام: ٣١/٢.

(٣) سيأتي ذكر الإسراء والمعراج في فصل معجزات النبي ﷺ.

وتصدقوني، وتمنعوني؛ حتى أبين عن الله ما بعثني به). ومن ذلك قوله: (هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً تمنعوني أن أبليغ كلام ربي). وكان عمه أبو لهب يسير خلفه يحرض القبائل على عدم سماع كلامه، ويحذروهم من الدخول في الدين الذي جاء به.^(١)

مكث المصطفى ﷺ في مكة وشغله الشاغل عرض نفسه على القبائل، دون أن يحظى بقبول أحدها لنصرته. وقد اختلفت تلك القبائل في طريقة ردها، فمنها من كان في ردها قبح، ومنها من كان في ردها لين واعتذار، ومنها من قبل بشروط لم يكن في مقدور الرسول ﷺ قبولها؛ فقد قال له رجل من بني عامر بن صعصعة: أرأيت إن تابعتك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال ﷺ: (الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء)^(٢). بقي ﷺ على هذه الحال، حتى هيا الله له نفراً من أهل المدينة، آمنوا به، وبايعوه، كما سيأتي بيانه.

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٥٠/٢. وانظر: مستند الإمام أحمد ٤٩٢/٣ - ٤٦٣/٤، ٣٤١، وأكرم

ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١/١٩٣.

(٢) عن عرض الرسول نفسه على القبائل، انظر: سير ابن هشام: ٢:٣١ وما بعدها.

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

الهجرة وقيام الدولة الإسلامية

وفيه:

- مقدمات الهجرة:
- بدء إسلام الأنصار.
- بيعة العقبة الأولى.
- بيعة العقبة الثانية.
- هجرة المسلمين.
- الهجرة النبوية.
- ركائز المجتمع المسلم في المدينة.
- بناء المسجد.
- المؤاخاة.
- المعاهدة مع اليهود.
- التشريعات، وقيام مؤسسات الدولة.

تمهيد: يثرب قبل الهجرة:

إن المطلع على ملابسات وظروف الهجرة النبوية؛ ليدرك بجلاء، أن أحداث الدعوة الإسلامية كانت تجري بتدبير محكم من العليم الحكيم، يحوطها برعايته، ويصونها بعنايته، ويهيئ لها الأسباب رغم الصعاب. فمن ذلك أن هياً المناخ المناسب في "يثرب" ^(١) لتكون دار هجرة لنبيه، ومحضناً لدعوته، بعدما ضاقت بها مكة. كما هياً الأوس والخزرج "سكان يثرب" لنصرتها، وتحمل أعباء نشرها؛ بعدما تخلى عن تلك المهمة السواد الغالب من قريش، وزعمائها، في مكة.

فقد سكنت مجموعة من طوائف اليهود "يثرب"، بعد فرارهم من الشام، على أثر القتل والسبي والاضطهاد الذي لقوه - في فترات مختلفة - على يد بختنصر البابلي، وبعض قادة الرومان؛ جزاءً من الله لهم على قتل بعض أنبيائهم، وإفسادهم في الأرض. وقد سمحت القبائل العربية - وفي مقدمتها كبرها قبيلة "العماليق" لليهود بمجاورتهم في يثرب والعيش معهم بسلام. وأهم طوائف اليهود: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع.

حرص اليهود في أول الأمر على تحاشي الصدام مع غيرهم، واهتموا ببناء الحصون، وتعزيز أحوالهم الاقتصادية بجمع الثروات من خلال العمل في الزراعة والتعامل بالفروض الربوية الفاحشة، حتى ما لبثوا أن سيطروا على الحركة الاقتصادية في يثرب، كما تكاثر عددهم مقابل تناقص عدد العماليق.

ثم جاءت هجرة قبيلتي "الأوس والخزرج" العربيتين من اليمن بسبب تهدم سد مأرب لتعيد التوازن بين اليهود والعرب في يثرب، ففي أول الأمر استغل اليهود حاجة رجالات الأوس والخزرج، واستغلوهم في العمل في مزارعهم، ومع مرور الزمن تكاثرت الأوس والخزرج، وتحسنت حالتهم الاقتصادية، فخشي اليهود منافستهم، فسعوا لإضعاف جانبهم بطرق عدة: بدأت بقتال اليهود للأوس والخزرج، وحين استنجد الأوس والخزرج ببعض القبائل العربية المحيطة بيثرب عمد اليهود إلى خطة جديدة تقوم على التفريق بين القبيلتين، وضرب بعضهم ببعض، عن طريق التحالف

(١) اسم المدينة النبوية قبل الهجرة.

الصورى، فتحالف بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس، وتحالف بنو قينقاع مع الخزرج، وأخذ كل طرف من اليهود يذكي الأحقاد والضغائن لدى حلفائه من العرب على الطرف الآخر، ومازالوا ينمون الأحقاد بينهم حتى آتت جهودهم الماكرة ثمارها المرة، فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضاً، في سلسلة متصلة من المعارك التي لا مبرر لها، على حين قوي اليهود وتكاثروا، ونمت ثرواتهم^(١).

فبسبب تلك الحروب التي قضت على معظم زعماء الأوس والخزرج، وكثرت عليهم حياتهم، وزعزعت أمنهم، أصبحت كل قبيلة تبحث عن مخرج لتبقي على البقية الباقية من رجالها، وتنشد ما يحقق لها السلام والوثام. وقد كان اليهود حين يحل بينهم أدنى خلاف مع سكان يثرب يذكرون لهم بأن هناك نبياً قريب زمن خروجه، ويتوعدونهم بأنهم سيتبعونه ويحاربون معه العرب ويبيدونهم. لهذا وذاك أسرع رجال الخزرج والأوس في الدخول في الإسلام، راجين بذلك إنهاء الحروب بينهم، وليبعدوا عنهم شبح الإبادة التي يخوفهم بها اليهود. تقول أم المؤمنين عائشة ؓ في ذلك: (كان يوم بعث^(٢) يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله وقد افترق ملوهم، وقتلت سرواتهم وجرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ، في دخولهم الإسلام)^(٣).

مقدمات الهجرة:

بدء إسلام الأنصار:

سارت أحداث الهجرة بشكل تبدو فيه بوضوح عناية الله ورعايته لنيبه ﷺ ودعوته. فبينما كان ﷺ في موسم الحج في السنة الحادية عشرة يعرض نفسه على القبائل يطلب نصرتهم، لقي ستة نفر من الخزرج، فاستوقفهم وقال: (من أنتم؟)

(١) عن موضوع هجرة اليهود إلى يثرب، وما وقع بينهم وسكانها العرب. انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ١/ ٥٨٦-٥٩٠. تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٠٦، ١٠٧، ١٤٠. السمهودي: وفاء الوفاء: ١/ ١٦٠، ١٧٨. فقه السيرة للغزالي: ١٠٣.

(٢) بعث: اسم لواحدة من الحروب التي دارت بين الأوس والخزرج وقتل فيها عدد كبير من الطرفين.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب مناقب الأنصار حديث ٣٧٧٧. فتح الباري: ٧/ ١١٠.

قالوا: نفر من الخزرج. قال: (أمن موالي يهود؟) قالوا: نعم. قال: (أفلا تجلسون أكلمكم؟) قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، وصدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فستقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك.^(١) ثم رجعوا إلى بلادهم يحملون هذا الدين الجديد. وفي الحين الذي كان رسول الله ﷺ ينتظر ثمار ذلك الغراس الجديد في يثرب واصل دعوته في مكة.

بيعة العقبة الأولى:

إن هذا الإيمان الجديد الذي ملأ قلوب أولئك نفر الستة من الخزرج بالسعادة والرضا، وغمرهم بالفرحة، لِمَا وجدوا فيه من الخلاوة، ولما يأملونه من تحقيق سلام دائم بينهم وبين إخوانهم من الأوس، شجعهم على إعلان هذا الدين، والجد في الدعوة إليه في يثرب، حتى أصبحت مجالس الأوس والخزرج عامرة بذكر الإسلام، والحديث عن النبي الجديد لا تخلو منه دار، وقد أثمرت دعوة هؤلاء نفر بدخول عدد لا بأس به في الإسلام.

وفي الموسم التالي للحج قدم اثنا عشر رجلاً "عشرة من الخزرج واثنان من الأوس" والتقوا برسول الله ﷺ سرّاً عند العقبة من منى، فبايعوه على الالتزام بما أنزل من شرائع الإسلام وأخلاقه، وطاعة الله ورسوله، ولكن لم يكن في هذه البيعة التزام بإيواء الرسول ﷺ وحمايته ونصرة دعوته. يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (بايعنا رسول الله ﷺ على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنّي، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بهتان

(١) عن إسلام هؤلاء نفر انظر: سيرة ابن هشام: ٢ / ٣٨. دلائل النبوة للبيهقي: ٢ / ٤٣٣

الطبقات الكبرى لابن سعد: ١ / ٢١٨.

نفتره بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف...) (١) وهذه البيعة تسمى بيعة النساء. لأن عقد هذه البيعة مشابه لما كان يبائع الرسول ﷺ النساء عليه (٢).

سفير موفق ودعوة ناجحة:

بعدما أتم أولئك نفر من أهل يثرب حجهم بعث معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم الإسلام، ويقرئهم القرآن، ويؤمهم في الصلاة. ونزل مصعب عند أسعد بن زرارة - أحد الستة الأوائل - وكان أسعد يخرج بمصعب يدور به على دور الخزرج والأوس يدعوهم للإسلام.

وقد نجح مصعب بن عمير ﷺ في القيام بالمسؤولية العظيمة التي اختارها له ﷺ واختاره لها. ولم تكن وسيلته في تحقيق ذلك عصا سحرية يذهل الناس مرآها، ولم يكن صاحب كلام منمق، أو لسان حاد يغشى به الجموع يعدهم ويمنيهم زخرف الحياة الدنيا، كحال من يطمع في كسب أصوات الناس بزخرف الكلام، وسراب الوعود في دنيا الانتخابات، كما لم يكن يحمل صرراً من المال يدفعها للفقراء بيد، ويجرمهم لما يريد بيده الأخرى مستغلاً فاقتهم كما يفعل دعاة التنصير وغيرهم. لم يكن يفعل شيئاً من ذلك، لأنها وسائل لا تصل إلى القلوب، ولا تنبئ عن الدخول فيما يريده الداعي عن قناعة وتسليم. إنما كان مصعب ﷺ يملك لتحقيق مهمته السامية إيماناً يعمر قلبه، يلحظه من يراه إشراقاً في وجهه، وصدقاً في حديثه، ولديه إصرار وعزيمة صادقة على نشر هذا الدين والتضحية من أجله، اكتسبها من تلك الظروف التي عاشها والمؤمنون في مكة تحت طائلة القهر والاضطهاد، وفوق ذلك فمعه قرآن عظيم راسخ في قلبه، فإذا ما رتل بصوته الندي لا تملك القلوب إلا أن تتجاوب معه.

(١) عن هذه البيعة انظر: صحيح البخاري: مناقب الأنصار: باب وفود الأنصار وبيعة العقبة. وصحيح مسلم: كتاب الحدود: باب الحدود كفارات لأهلها. سيرة ابن هشام: ٣٩-٤١.

(٢) كان ﷺ يبائع النساء على ما ورد في قوله تعالى: «يَتَّيْنُنَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» المتحنة [١٢].

ويتضح هذا في قصة إسلام أسيد بن الحضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما، فقد خرج أسعد بن زرارة ومعه مصعب رضي الله عنه للدعوة فاجتمع حولهما جمع من الفتيان، فسمع بهما سعد بن معاذ سيد بني عبد الأشهل وهو ابن خالة أسعد بن زرارة ومعه صاحبه أسيد بن الحضير، فقال لأسيد: إئت أسعد بن زرارة فازدجره فليكف عنا ما ذكره، فإنه قد بلغني أنه قد جاء بهذا الرجل الغريب معه يتسفه به سفهاؤنا وضعفاؤنا، فإنه لولا ما بيني وبينه من القرابة كفيتك ذلك، فأخذ أسيد بن حضير الحربة ثم خرج حتى أتاهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا والله سيد قومه قد جاءك فأبل فيه بلاء حسناً. قال: إن يقعد أكلمه، فوقف عليهما متشتماً، فقال: يا أسعد مالنا ولك تأتيننا بهذا الرجل الغريب يسفه به سفهاؤنا وضعفاؤنا، فقال: أو تجلس فسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: قد أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فكلمه مصعب بن عمير رضي الله عنه وعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن. فيقول أسعد: فوالله لعرفنا الإسلام في وجهه قبيل أن يتكلم لتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله وكيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ قالوا: تغتسل وتطهر ثيابك وتشهد شهادة الحق وتصلي ركعتين ففعل ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً من قومي إن تابعكما لم يخالفكما أحد بعده..، وتمكن أسيد من إقناع سعد بن معاذ للذهاب إليهما، فلما قدم عليهما دعواهما كما دعوا صاحبه فأسلم سعد وعاد إلى قومه فقال لهم: (يا بني عبد الأشهل أي رجل تعلموني فيكم؟ قالوا: نعلمك والله خيرنا وأفضلنا فينا رأياً، قال: فإن كلام نساءكم ورجالكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله وحده وتصدقوا بمحمد)، فوالله اليوم ما أمسى في ذلك اليوم في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً^(١).

(١) الموقوف على تفاصيل خبر إسلام سعد بن معاذ وأسيد، انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٤٣٨/٢، السيرة النبوية لابن كثير عن ابن إسحاق ١٨١/٢، وقال مهدي رزق الله عن الخبر: رواه ابن إسحاق بسند حسن ولكنه مرسل. (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ٢٤٧).

بيعة العقبة الثانية:

أمضى مصعب بن عمير ؓ قريباً من سنة في يثرب وهو في دأب لا يفتر، وهمة لا تقصر في نشر الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار "الأوس والخزرج" إلا وفيها رجال ونساء مسلمون^(١)، وفي مقدمتهم زعماء وكبار القبيلتين. وإذا كان رجاء تحقيق مصلحة السلم والوثام بين الأوس والخزرج، وبند حياة الفرقة والقتال، من أهم دوافع إسلام رجال القبيلتين، إلا أنه بمجرد دخولهم في هذا الدين، وتمكن الإيمان من قلوبهم، فإنهم لم يقفوا عند هذا الهدف القريب الخاص، بل تخطوه إلى ما هو أكبر وأسمى، فربطوا مصيرهم بمصير هذا الدين، وأصبح تأمين سبيل الدعوة ونصرة رسول الله ﷺ أهم من النظر إلى مصالحهم، وأكبر ما يشغل بالهم؛ لذا فإنهم سرعان ما ساءلوا أنفسهم - وهم يعلمون حال رسول الله ﷺ وأصحابه المضطهدين - كما قال جابر بن عبد الله الأنصاري ؓ: (قلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟...) ^(٢) وعقدوا العزم على دعوة الرسول ﷺ لإيوائه ونصرته، وقبل موسم الحج التالي قدم مصعب بن عمير ؓ مكة مبشراً رسول الله ﷺ بما تحقق من نتائج عظيمة، ويخبره بقدم وفد كبير ممن أسلم لمبايعته.

قدم الوفد المسلم من يثرب في موسم الحج مع عامة المشركين من حجاج أهل يثرب، وهم يخفون غايتهم التي قدموا من أجلها، وحين قدموا اتصلوا بالرسول ﷺ سرّاً فواعدتهم أوسط أيام التشريق ليلتقوا به ليلاً في العقبة من منى، وعلى حين غفلة من أهل الموسم تسللوا فرادى تحت جناح الليل حتى تكامل وجودهم عند رسول الله ﷺ، وعددهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، ودار حوار بين الوفد ورسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، الذي حضر ليتأكد لابن أخيه ويوثق له العهود والمواثيق من الأنصار، حين قال: يا معشر الخزرج إن محمداً في منعة من قومه وبلاده، وقد

(١) سيرة ابن هشام: ٢ / ٤٦.

(٢) سنن البيهقي الكبرى: ٩ / ٩.

منعناه ممن ليس على مثل رأينا فيه، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم، فإن كنتم ترون أنكم توفون له بما وعدتموه فأنتم وما جئتم به، وإن كنتم تخافون عليه من أنفسكم شيئاً فالآن فاتركوه، فإنه في عز ومنعة. قالوا قد سمعنا ما قلت. ثم قالوا لرسول الله ﷺ تكلم فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فبين لهم الرسول ﷺ على ما يبايعونه حيث قال: (تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تقولوا في الله لا تخافون لومه لائم وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة)^(١).

ولأن هذه البيعة سترتب عليها عواقب كبيرة أراد بعض الأنصار أن يتأكد من معرفة الجميع لهذه العواقب واستعدادهم لتحملها، فقال العباس بن عباد بن نضلة يا معشر الخزرج هل تدرسون علام تأخذون محمداً فإنكم تأخذونه على حرب الأحمر والأسود فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكنتم أسلمتموه فمن الآن فاتركوه وإن صبرتم على ذلك فخذوه. فقالوا بل نأخذ على ذلك^(٢).

وحينما مد الرسول ﷺ يده لمبايعتهم أخذ أسعد بن زرارة بيده وقال: رويدا يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجنا اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن يعضكم السيف فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم وعلى قتل خياركم ومفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر عند الله عز وجل فقالوا يا أسعد أمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبله^(٣). فبايع الجميع وهم مدركون لما تعنيه هذه البيعة العظيمة.

(١) سنن البيهقي: ٩/٩. مستدرک الحاکم: ٦٨١٦٢٤، ٢/٢. مسند الإمام أحمد: ٣/٣٢٢، ٤٦١.

الثقات: ج ١/ ص ١٠٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٥٥/٢. ابن حجر: الإصابة: ٤/٣٠.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣/٣٢٢. المستدرک على الصحيحين: ٢/٦٨١.

وأحب الأنصار- بعد أن ربطوا بهذه البيعة مصيرهم بمصير الإسلام ورسوله- أن يؤكدوا بأن لا يكون هذا الارتباط من طرف واحد، فقال أحدهم: (يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبلاً، وأنا قاطعوها - يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا)؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: (بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم، وأسلم من سالمتم)^(١). وتسمى هذه البيعة بالبيعة الكبرى لما ترتب عليها من نتائج كبيرة. عاد الوفد بعد نجاح مهمتهم بلقائهم الرسول ﷺ ومبايعته، منتظرين هجرته وأصحابه إليهم بشوق.

هجرة المسلمين:

بعد فشو الإسلام في يثرب، ومبايعة الأنصار لرسول الله ﷺ في العقبة الثانية على نصرته، أصبحت يثرب مهياً لهجرة المؤمنين إليها، خاصة أن زعماء قريش لما تأكد لهم مبايعة الأنصار للرسول ﷺ زادوا من أذاهم للمسلمين، مما جعل الرسول ﷺ يأمر أصحابه بالهجرة قائلاً: (إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها)^(٢) وجاء تحذيد يثرب لتكون داراً للهجرة بوحي من الله لنبىه. فقد ورد في الأحاديث الصحيحة أنه رأى في المنام أن مهاجرة إلى يثرب^(٣).

بدأ أصحاب رسول الله ﷺ هجرتهم إلى يثرب "المدينة" متسللين خفية حتى لا يعلم بهم كفار قريش، ونجح الكثير منهم في الهرب من مكة والإفلات من مراقبة قريش والوصول إلى المدينة.

(١) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٤٦١. وللوقوف على تفاصيل بيعة العقبة الثانية انظر: السيرة النبوية لابن

هشام: ٢/ ٤٧ وما بعدها. السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ١٩٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٦. السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٢١٥.

(٣) انظر: صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب ٤٥/ هجرة الرسول ﷺ وأصحابه،

وصحيح مسلم: ٤/ ١٧٧٩. فتح الباري: ٧/ ٢٣١.

«وقد سعت قريش بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة، وإثارة المشكلات أمام المهاجرين، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم، وثالثة بالاحتياط لإعادتهم إلى مكة. لكن شيئاً من ذلك كله لم يعق موكب الهجرة، فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم وديارهم كلها تلبية لداعي العقيدة»^(١).

مضت هجرة أصحاب رسول الله ﷺ رغم كل المعوقات حتى لم يبق في مكة إلا من حبسه المشركون أو من لا يستطيع الخروج، كما بقي رسول الله ﷺ ينتظر الإذن من الله، وأمر أبا بكر بالبقاء ليكون رفيقه في الهجرة، وعلي ابن أبي طالب ليرد ما عند رسول الله ﷺ من الأمانات إلى أصحابها.

خلت طرقات مكة وبطاحها من أولئك المؤمنين، وخلت منهم ديارهم، فأوحشت بعد أيناس، وأقمرت بعد أن كانت أهلة، وغدت خاوية تحفق فيها الرياح، وتحقق بحققها قلوب من يرونها وقد أخرج منها أهلها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، فتتحرك عواطفهم مهما كانت جامدة، وتلين قلوبهم مهما كانت قاسية. مرَّ عتبة بن ربيعة والعباس "عم الرسول ﷺ" وأبو جهل على واحدة من تلك الدور^(٢)، فنظر إليها عتبة تحقق الرياح بأبوابها ليس بها ساكن، فتنفس نفساً عميقاً وقال:

وكلُّ دار وإن طالَّتْ سَلَامَتُهَا
يَوْمًا سَتَذُرُكُهَا النُّكْبَاءُ وَالْحُوبُ^(٣)
ثم قال متألاً: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها. لكنَّ هناك قلوباً شاذة نُزعت منها معاني الخير فلا تعرف إلا الشر، وقلب أبي جهل واحد منها، لذا قال لعتبة منكرأ عليه حزنه وتألمه: وما تبكي عليه من «قُلْ بن قُلْ»^(٤) ثم التفت على العباس

(١) العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢٠٢.

(٢) دار بني جحش.

(٣) النكباء: الريح إذا اغرفت ووقعت بين ريحين. والحوب بالضم، الهلاك والبلاء. (القاموس المحيط)

(٤) يقال لمن لا يُعرف ولا يُعرف أبوه وهذا سخرية من أبي جهل بصاحب الدار ﷺ.

وقال: هذا من عمل ابن أخيك، فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا^(١). وهذه عادة المجرمين والطغاة في كل حين «يجرمون ويؤمنون الوزر على أكتاف غيرهم»^(٢).

الهجرة النبوية:

حين رأى كفار قريش أن المسلمين هاجروا وأفلتوا من أيديهم زادهم ذلك غيظاً، وأحسوا بأن الخطر الذي يتوقعونه من محمد ﷺ ودعوته بات قريباً إن لم يتداركوا الأمر، لأنه إذا ما تكامل انتقال المسلمين ورسولهم معهم إلى المدينة فهذا يعني لديهم أنه سيقود حرباً ضدهم. لذا لم يعد في أيديهم - وقد هاجر معظم المسلمين - من الحلول سوى ما يتعلق بمحمد ﷺ، ولأن الأمر لا يحتمل التأجيل فقد عقدوا اجتماعاً طارئاً في "دار الندوة" حضره من كل قبيلة أشرافها لبحث ما يجب أن يفعلوه. ويروي قتادة ما دار في هذا الاجتماع بقوله: دخلوا في دار الندوة يأترون بالنبي ﷺ فقالوا: لا يدخل معكم أحد ليس منكم فدخل معهم الشيطان في صورة شيخ من أهل نجد، فقال بعضهم: ليس عليكم من هذا عين،^(٣) هذا رجل من أهل نجد. قال: فتشاوروا فقال رجل منهم أرى أن نركبوه بعيراً ثم نخرجوه، فقال الشيطان: بش ما رأى هذا. هو هذا قد كان يفسد ما بينكم وهو بين أظهركم، فكيف إذا أخرجتموه فأفسد الناس ثم حملهم عليكم يقاتلوكم، فقالوا: نعم ما رأى هذا الشيخ. فقال قائل آخر: فإني أرى أن نجعلوه في بيت ونطيقنا عليه بابه وتدعوه فيه حتى يموت. فقال الشيطان: بش ما رأى هذا، أفترى قومه يتركونه فيه أبداً؟ لا بد أن يغضبوا له فيخرجوه. فقال أبو جهل: أرى أن نخرجوا من كل قبيلة رجلاً ثم يأخذوا أسياфهم فيضربونه ضربة واحدة فلا يدري من قتله فتدونه^(٤). فقال الشيطان: نعم ما رأى هذا^(٥). فتفرقوا على ذلك.

(١) سيرة ابن هشام: ٢ / ٧٩.

(٢) الغزالي: فقه السيرة: ١٦٦.

(٣) العين: الجاسوس.

(٤) أي تعطون قومه دينه.

(٥) مصنف عبد الرزاق: ٣٨٩، ٣٩٠ / ٥. وأورد ابن إسحاق حديث دار الندوة بتفصيل أكثر وذكر

فيه أسماء أبرز المشاركين. (سيرة ابن هشام: ٢: ٩٣ - ٩٥)

وقد أشار الله في كتابه الكريم إلى هذا الاجتماع وما تم طرحه فيه من آراء للتخلص من محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾^(١).

اتفق القوم على رأي أبي جهل بقتل الرسول ﷺ بطريقة جماعية، بحيث تختار كل قبيلة شاباً من شبابها ليقوم مع شباب القبائل الأخرى بضرب الرسول ﷺ ضربة رجل واحد، فيصعب على قوم محمد مواجهة جميع القبائل فيرضون مرغمين بالدية. وتم تحديد موعد للتنفيذ تحت إشراف أبي جهل وتوجيهه.

وهنا حين استكمل الرسول ﷺ جميع الأسباب، واتخذ كل الوسائل، وسلك كل الطرق لدعوة أهل مكة، وحين وصل معهم إلى طريق مسدود، هنا جاء أمر الله لنبيه بالهجرة، فأرسل له جبريل يخبره بما تأمر به القوم، ويأمره ألا يبيت في فراشه.

على الفور شرع ﷺ في أمر الهجرة، ومع يقينه بأن الله ناصره و متم أمر هجرته، إلا أنه اتخذ كل الأسباب التي عليه - كبشر - أن يراعيها ويتبعها، ويترك كل ما هو فوق طاقته لله تعالى يتولاه. فأمر علي بن أبي طالب بالمبيت في فراشه ليلة موعد تنفيذ القتل، كما أمر أبا بكر أن يعد له الراحلة، واتفق مع عبدالله بن أريقط - أحد المشركين المشهورين بمعرفة الطرق - ليسلك به طريقاً غير معروف، واختار أن يختبئ بغار ثور ثلاثة أيام حتى يهدأ الطلب والبحث عنه، ويقع هذا الغار في الجهة المعاكسة لطريق المدينة، للتعمية على طالبيه، وكان عبد الله بن أبي بكر يأوي إليهما ليلاً في الغار ليخبرهما بتحركات قريش وكل ما سمعه من أخبار ثم يعود قبل طلوع الفجر، كما كان مولى أبي بكر عامر بن فهيرة يمر عليهما بغنم معه كأنما يرعى بها ويتأخر إلى أول الليل ويمكث حتى يتتشر الظلام فيسقيهما من حليهما. بهذا فعل ﷺ كل أسباب الحيلة والحذر التي بمقدوره ليكون في ذلك درس لأمته^(٢).

(١) سورة الأنفال، الآية [٣٠].

(٢) عن هذه التناير التي اتخذها ﷺ انظر: صحيح البخاري: كتاب الصلاة/ باب هجرة النبي ﷺ.

أما ما لا قدرة له عليه كبشر فقد تركه الله فتولى الله ذلك، فأخرجه من بيته والقوم يحيطون به دون أن يروه، بعد أن جعل على أبصارهم غشاوة فلم يروه، وحين وصل بعضهم إلى الغار للبحث عنه حتى لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرأى رسول ﷺ وصاحبه أبا بكر مما جعل أبا بكر يخاف على نبيه، فقال له ﷺ: (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما)^(١) فأعمى الله أبصارهم فرجعوا موقنين أن ليس في الغار من أحد. كما حفظه في الطريق من محاولة سراقاة اللحاق به.

مكث المصطفى ﷺ وصاحبه أبو بكر ﷺ في الغار ثلاثة أيام ثم انطلقا مع دليلهما الذي سلك بهم الطريق الساحلي المهجور.

أما قريش فلما أعيأها الطلب ولم تدر عن أمر محمد شيئاً فقد أعلنت عن جائزة كبرى لمن يعثر على محمد حياً أو ميتاً. وكان "سراقاة بن مالك" ممن طمع في نيل هذه الجائزة فجهز نفسه، وسلك الطريق الذي سلكه الرسول ﷺ وصاحبه، فلما اقترب منهم حدث له أمر غريب، فكان كلما اقترب منهما غاصت قوائم فرسه في الأرض، فعلم أن الله مانعهما منه ومظهر أمر محمد ﷺ، فطلب منه أن يكتب له أماناً يحتفظ به لنفسه عند محمد ﷺ فيما بعد، فكتب له بذلك. فعاد مخذلاً عنهما بعد أن خرج في طلبهما، فكان يقول لمن أراد أن يبحث في ذلك الطريق قد كفيتمكم ذلك الطريق، ابحثوا في طريق غيره^(٢).

مضى ﷺ في هذا الطريق المهجور متعرضاً لعدد من المخاطر، والتقى بعدد من السالكين لهذا الطريق، ووقعت له بعض الأحداث كان من أهمها نزوله على امرأة تدعى بـ"أم معبد" في خيمة لها، وكان التعب والجوع والظما قد بلغت فيه ومن معه مبلغها، فالتمس طعاماً عند أم معبد فلم تجد ما تسعفه به، فنظر الرسول ﷺ إلى شاة قد خلفها الهزال عن السير مع بقية الغنم للرعي وقد جف ضرعها، فاستأذن أم معبد في حلبها فقالت: إن رأيت بها حلباً فاحلبها. فمسح على ضرعها وذكر اسم الله ودعا فدرت حلباً فشرب منه وشرب من معه حتى شبعوا، ثم حلب ثانية حتى ملأ الإناء وتركه لأم معبد،

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي: باب مناقب المهاجرين مناقب أبي بكر.

(٢) أورد البخاري خبر سراقاة مفصلاً في صحيحه: كتاب الصلاة/ باب هجرة النبي ﷺ.

فلما قدم زوجها تعجب من أمر هذا الإناء المملوء، فأخبرته بما حدث، ووصفت له محمداً وأصحابه، فقال: والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا...^(١).

أما المسلمون في المدينة فلما سمعوا بخروج الرسول ﷺ من مكة كانوا يجتمعون خارج "يثرب" ينتظرون مقدمه في الغداة كل يوم، حتى إذا اشتد بهم حر الشمس عادوا إلى منازلهم. فلما كان اليوم الذي قدم فيه وانتظروا حتى زالت الشمس وعادوا إلى منازلهم، قدم وفد الرسول ﷺ المبارك حين عودتهم، فأبصرهم أحد اليهود فصاح بخبراً المسلمين بقدوم من ينتظرونه، فخرجوا فاستقبلوه والفرحة تعلوهم والسعادة تغمرهم في يوم مشهود شهده الكبير والصغير، والنساء والصبيان يرددون أصوات الفرحة منشدین: قدم رسول الله، جاء رسول الله.

كان نزوله ﷺ أول ما قدم بقاء فمكث به أياماً أسس فيها مسجد قباء الذي قال الله فيه: ﴿لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطْهَرِينَ﴾^(٢) ثم انطلق من قباء وأدركته الجمعة في منازل بني سالم بن عوف فصلى بهم الجمعة، وهي أول جمعة صلاها ﷺ،^(٣) ثم انطلق ماراً بأحياء المدينة والناس محتشدين من بين يديه ومن خلفه، وصعد الرجال والنساء فوق المنازل، والصبيان والخدم ينسابون في الطرقات مرحيين به يرددون: 'يا محمد يا رسول الله، يا محمد يا رسول الله'^(٤) (ادخل المدينة راشداً مهدياً)^(٥). وكلما مر بجي من أهل المدينة أمسكوا بزمام ناقته وسألوه أن ينزل عندهم، فكان يقول: (دعوها فإنها مأمورة)^(٦).

(١) عن قصة نزول الرسول ﷺ على أم معبد انظر: المستدرك للحاكم: ٩/٣. المعجم الكبير

للطبراني: ٤٨/٤. مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: ٢٨١.

(٢) سورة التوبة، الآية [١٠٨].

(٣) المعجم الكبير للطبراني: ٦/٣٠.

(٤) صحيح مسلم: ٤/٢٣١١. وانظر العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١/٢١٨، ٢١٩.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢/٤٠٦.

(٦) انظر تخریج هذا الحديث: العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١/٢١٩. وقال بعد ذكر

الروايات الواردة في الحديث، فيرقى إلى الحسن لغيره.

حتى بركت في أرض ليتيمين من بني مالك بن النجار عند بيت أبي أيوب الأنصاري ﷺ، وهو المكان الذي بني فيه مسجده ﷺ. ونزل في دار أبي أيوب ﷺ.

وهكذا استقر الرسول ﷺ في المدينة بين أصحابه من أهل مكة والمدينة، ولقد صدق المسلمون من الخزرج والأوس في بيعتهم فأووا رسول الله ﷺ وأصحابه حيث نزلوا عليهم في دورهم، واتسعت لهم صدورهم، واختفت هنا الأسماء والألقاب المبنية على العنصر القبلي، وأصبح لفظ المهاجرين علماً يشمل كل من هاجر من مكة إلى المدينة، كما دخل المسلمون من أهل المدينة تحت مسمى الأنصار، واختفى اسم "يثرب" ليحل محله "مدينة الرسول".

ولما ترتب على الهجرة من نتائج عظيمة كان لها أثرها في تاريخ الإسلام، استحققت الهجرة أن تكون أعظم حدث في تاريخ الإسلام يؤرخ به المسلمون أحداثهم إلى قيام الساعة.

وحيثما كانت دولة الإسلام الناشئة بحاجة إلى القوة لتقف على قدميها وتحمي نفسها، في مجتمع يموج بالأعداء المتربصين بها. واجتماع المسلمين وتكثير سوادهم من أهم عوامل تلك القوة، لذا كانت الهجرة إلى المدينة فرضاً على كل مسلم خارجها، وتوعد الله الذين لم يمتثلوا أمره بالهجرة بالعذاب الشديد، ولم يستثن سوى العاجزين والمغلوبين على أمرهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغُلَامَ ظَالِمًا أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسَعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾^(١). ووعد من يهاجر بالخير الوفير والأجر الكبير في قوله: ﴿وَمَنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ هَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾^(٢).

(١) سورة النساء، الآيات [٩٧-٩٩].

(٢) سورة النساء، الآية [١٠٠].

وحينما أصبحت الدولة الإسلامية قادرة على الدفاع عن نفسها بعد غزوة الأحزاب، وبعدما انتشر الإسلام بين كثير من القبائل في أعقاب صلح الحديبية، وبعد كسر شوكة المشركين بفتح مكة، أسقطت فرضية الهجرة ووجوبها، حيث قال ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح)^(١).

ركائز المجتمع المسلم في المدينة:

بعد الهجرة انتقل المسلمون إلى مرحلة جديدة، أعز الله فيها الإسلام وقامت له فيها دولة، وأصبح للمسلمين مجتمع خاص تكاملت فيه - على مراحل - مؤسساته المختلفة. وستحدث عن أهم الركائز التي شرع رسول الله ﷺ في بنائها بعد الهجرة لتأسيس الدولة الإسلامية وإرساء قواعد المجتمع الإسلامي.

[١] بناء المسجد:

كان أول عمل قام به ﷺ بناء المسجد؛ لأهميته في حياة المسلمين أفراداً وجماعات. فأصدر أمره ببنائه في المكان الذي بركت فيه ناقته. وعلى الرغم من إصرار الغلامين - مالكي الأرض - على التبرع بالموقع إلا أنه ﷺ أصر إلا أن يشتريه منهما.

وبهمة لا تعرف الكلل، وتфан في الفوز بعظيم الأجر، بدأ العمل في مشروع البناء، وشارك الرسول ﷺ أصحابه في العمل مما زادهم همة ونشاطاً. وكان المسجد متواضعاً في مبناه، لبناته من الطين، وأعمدته من جذوع النخيل، وسقفه من جريد النخل^(٢)، لكنه عظيم في معناه، كبير في مهمته، فهو كما قال عماد الدين خليل: «رمز لما يتسم به الإسلام من شمولية وتكامل، فقد أصبح مركزاً روحياً لممارسة الشعائر وأداء العبادات، ودائرة سياسية عسكرية لتوجيه علاقات الدولة في الداخل والخارج، ومدرسة علمية يجتمع في ساحاتها أصحاب الرسول ﷺ، وتدار في باحاتها الندوات،

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد. باب: فضل الجهاد والسير.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: باب بنية المسجد. فتح الباري: ١ / ٥٤٠.

وتلقى على منبرها المتواضع التعاليم والكلمات، ومؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة، ويمارسون التوحد والإخاء والانضباط...^(١).
وبُني بجوار المسجد دور متواضعة لتكون سكناً للرسول ﷺ وأزواجه الطاهرات رضي الله عنهن.

[٢] المؤاخاة:

كان المهاجرون قد تركوا أوطانهم ومساكنهم وأموالهم وأهليهم في مكة، وجاءوا بأنفسهم لا يملكون غير دينهم الذي فروا به، فاجتمع عليهم عدة مشكلات: غربة الوطن والأهل، وقلة ذات اليد، وعدم وجود السكن والمأوى. ومشكلة النازحين من بلدانهم إلى بلاد أخرى لا تزال مشكلة تعاني منها المجتمعات الإنسانية في كل حين، وليس من السهل حلها في وقت قليل وبجهد يسير، إلا أن سيد البشرية ﷺ وضع حلاً فريداً وناجعاً لهذه المشكلة في أوجز وقت وبأيسر جهد. وهو نظام المؤاخاة، فربط كل مهاجري بأخ له من الأنصار يواسيه في غربته ويخفف عنه كربته، ويأمن كل منهما بالآخر. وقد وصلت تلك الأخوة بين المهاجرين والأنصار إلى درجة أعمق من رابطة النسب، في صورة لم تشهداها الروابط الإنسانية في عصر من العصور، حتى كان من حقوق تلك الأخوة أن يرث بعضهم بعضاً دون ذوي الأرحام. ولا تحسبن أن هذه المؤاخاة كانت ثقيلة على نفوس الأنصار حيث عليهم العبء الأكبر من الإنفاق والمواساة، بل على العكس من ذلك كانوا يودون أن يقدموا أكثر مما تتطلبه هذه الأخوة، فقد عرضوا على الرسول ﷺ أن يقسم مزارع نخيلهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، فلما رفض ذلك، عرضوا أن يعمل المهاجرون في مزارعهم ويشاركوهم في الثمر، فوافق لهم المهاجرون^(٢).

(١) دراسة في السيرة : ١٤٩.

(٢) ابن حجر: فتح الباري : ٥ / ٨ ، ٣٢٢. في شرحه الحديث الذي جاء في صحيح البخاري برقم

٢٣٢٥، ٢٧١٩.

وقد امتدح الله الأنصار وبين ما وصلوا إليه من سخاء وإيثار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١) بل إن المهاجرين أشفقوا وخافوا أن يذهب الأنصار بالأجر من الله عنهم فقالوا للرسول ﷺ: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن بذلاً من كثير، ولا أحسن مواساة في قليل، قد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنة، فقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال ﷺ: (كلا، ما أثبتتم عليهم به، ودعوتهم الله - عز وجل - لهم)^(٢). وتوضح قصة سعد بن الربيع الأنصاري مع أخيه عبد الرحمن بن عوف المهاجري رضي الله عنهما، ما كان عليه الأنصار من صدق في الإيثار، وما كان عليه المهاجرين من عرفان للجميل. فحين آخى الرسول ﷺ بينهما عرض سعد الأنصاري على عبد الرحمن المهاجري أن يعطيه نصف ماله، وأن يطلق له إحدى زوجتيه ليتزوجها، فقال له عبد الرحمن: (بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق). فأصبح يغدو ويروح إلى السوق حتى أصبح من أغنياء المهاجرين^(٣).

وقد أدت تلك المؤاخاة أثرها في ربط قلوب المؤمنين، ومواساة المهاجرين، وبناء مجتمع متراس الصفوف تملؤه المحبة ويسوده التأخي. فلما استقرت حياة المهاجرين وتوفرت لديهم سبل العيش وأغناهم الله، أبطل الله حق التوارث في هذه الأخوة، بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤).

(١) سورة الحشر، الآية [٩].

(٢) سنن الترمذي: ٤ / ٦٥٣. مسند أحمد: ٣ / ٢٠٠. سنن البيهقي: ٦ / ١٨٣.

(٣) عن هذه القصة انظر صحيح البخاري: كتاب البيوع: باب فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض: حديث ٢٠٤٨، ٢٠٤٩.

(٤) سورة الأنفال، الآية [٧٥].

[٢] المعاهدة مع اليهود:

عندما قدم الرسول ﷺ المدينة كان اليهود يمثلون جزءاً من سكانه، فاستكمالاً لتكامل بناء المجتمع في المدينة، وإرساءً لقواعد الدولة الإسلامية على أرضية ثابتة صلبة، كان لابد من تحديد نوع العلاقة مع اليهود، حتى تسير بعد ذلك الدولة المسلمة في مراحل بناء صرحها بوضوح وعلى خطى ثابتة. وهذا ما فعله ﷺ، فقد وقع وثيقة معاهدة مع طوائف اليهود، ومن أهم بنود هذه المعاهدة:

- * كفالة حرية الدين «فللمسلمين دينهم ولليهود دينهم».
- * اشتراك الجميع في مسؤولية الدفاع عن المدينة حين تتعرض لخطر خارجي.
- * أمن المدينة الداخلي مسؤولية الجميع «فعلى كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم».

- * كل طرف يحترم حلفاء الطرف الآخر باستثناء قريش، فلا تجار ولا من نصرها.
- * أن تكون العلاقة بين الطرفين مبنية على النصح وعدم إضمار الخداع والغش.
- * وحيث إن الرسول ﷺ هو القائد الأعلى في المجتمع، واليهود جزء من هذا المجتمع، فعليهم الخضوع للقيادة العليا، فعند الخلاف يرجع إليه، وتكون الكلمة له في الحروب ونحوها.^(١)

وببناء المسجد، وعقد المواخاة، وكتابة الوثيقة مع اليهود، يكون الرسول قد أرسى قواعد الدولة الإسلامية على أسس متينة. «فالمسجد فيه تربية المسلمين وتنظيم سلوكهم، والأخوة ترفد الحياة الاجتماعية بالحب والوفاء والإيثار، والوثيقة تضبط سلوك أولئك الذين لا ينتمون للدين الإسلامي»^(٢).

(١) للوقوف على تفاصيل وثيقة المعاهدة ومعرفة طرقها وتحليلها انظر: العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢٧٢ - ٢٨٠. مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: ٣٠٦ -

٢٩٢ - ٢٨٢. ٣١٨.

(٢) صالح الشامي: من معين السيرة: ١٦٥.

التشريعات وقيام مؤسسات الدولة:

وبعد ذلك أخذت الحياة العامة في المجتمع الإسلامي تسير نحو التكامل شيئاً فشيئاً، فنزلت التشريعات التي تمثل تعاليم الإسلام وشريعة الله لتنظيم مختلف جوانب الحياة في المجتمع المسلم والدولة المسلمة، منها ما يتعلق بتنظيم حياة الفرد وعلاقته مع ربه، ومع غيره من أفراد المجتمع، ومنها ما يتعلق بتنظيم الدولة فيما يتعلق بواجباتها وحقوقها، وكل ذلك احتاج إلى قيام بعض المؤسسات التي ترعى تطبيق تلك التشريعات، من مؤسسات تعليمية لنشر تلك التعاليم وتبصير الناس بأمر دينهم، ومحاكم قضائية لنشر العدل وإقامة الحدود، وأجهزة لضبط الأمن الداخلي، وجيوش لحماية الدولة الإسلامية، وفتح البلاد لإيصال دعوة الله إلى الناس كافة، ومن أهم التشريعات التي نزلت في السنوات الأولى للهجرة ما يلي:

مشروعية الأذان:

كان المسلمون إذا أردوا الصلاة اجتمعوا لوقتها في المسجد دون نداء، فهم رسول الله ﷺ أن يجعل بوقاً كبوق اليهود يدعو به للصلاة ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين إلى الصلاة، فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد الخزرجي رضي الله عنه في نومه رجلاً عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده، يقول عبدالله فقلت: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلت ندعو به إلى الصلاة، فقال: ألا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال تقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر.. إلى آخر الأذان، وكذلك علمه الإقامة للصلاة. فأخبر زيد رسول الله ﷺ برؤياه فقال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فآلقها عليه فإنه أندى صوتاً منك، فلما أذن بلال سمعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في بيته فخرج إلى رسول الله ﷺ فبجى رداءه وهو يقول: (يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل ما رأى). فقال رسول الله ﷺ: (فلله الحمد فذاك أثبت)^(١).

(١) عن خبر الأذان انظر: صحيح ابن حبان ج ٤/ ص ٥٧٢ ومسنند الإمام أحمد: ٤/ ٤٢.

تحويل القبلة:

كان النبي ﷺ في مكة يتوق إلى التوجه في صلاته إلى الكعبة، وكان بإمكانه - آنذاك - أن يجمع بين هذا الميل وتلبية أمر الله تعالى بالتوجه نحو بيت المقدس، فكان إذا توجه لصلاته يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فلما هاجر لم يكن يستطيع ذلك. ولما كان الإسلام الحق يقتضي تقديم أمر الله على رغبات النفس فقد امتثل النبي ﷺ - وهو الأسوة الحسنة - أمر ربه بالتوجه إلى بيت المقدس في صلاته، وفي الوقت نفسه كان يكثر التطلع نحو السماء، راجيا أن ينزل الله وحيا يأمره بالتوجه إلى البيت الحرام، فجاء الأمر من الله بتحويل القبلة في الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة النبوية ^(١) حين أنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ^(٢)، وكان يسر اليهود توجه المسلمين نحو بيت المقدس، لما يرون فيه من تبعية لهم، فلما أمر الله بتحويل القبلة ساءهم ذلك، واتخذوا منه مدخلا للطعن في الإسلام وتشكيك المسلمين، فقالوا ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ كما قال المشركون: تحير على محمد دينه فتوجه بقبلته إليكم وعلم أنكم أهدي منه، ويوشك أن يدخل في دينكم، وقال المنافقون: ما بالهم كانوا على قبلة زمانا ثم تركوها وتوجهوا غيرها ^(٣) فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنِ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ^(٤) لقد كان تحويل القبلة حدثا ينطوي على معان ودلالات عظيمة منها:

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير/ باب قوله تعالى: سيقول السفهاء من الناس....

(٢) سورة البقرة، الآية [١٤٤].

(٣) الدر المنثور: ١/ ص ٣٤٥.

(٤) سورة البقرة، الآية [١٤٢].

* في تحويل القبلة رد على من يزعم أن الرسول ﷺ قد يشرع من عنده أو يقول القرآن من تلقاء نفسه، فعلى الرغم من شوقه وميله الشديد للتوجه نحو الكعبة إلا أنه مكث سبعة عشر شهرا ممثلا لأمر ربه مخالفا لرغبته، حتى جاء الأمر من الله.

* وكما كان الحدث دليلا على امتثال الرسول ﷺ بأمر الله في التشريع، كذلك كان دليلا على صدق المسلمين في اتباع أوامر الله كما أظهر نفاق المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾^(١). فلم يؤثر فيهم ما أثاره اليهود والمشركون من استهزاء أو تشكيك.

* في تحويل القبلة تمييز لأمة الإسلام عن غيرها، فلم يكن توليهم بيت المقدس إلا أمرا مؤقتا للحكمة التي أرادها الله في اختبار الناس، فلما تحققت جاء الأمر باستقلال المسلمين بقبلتهم.

مشروعية الجهاد:

بقي المسلمون في مكة ثلاثة عشرة سنة يتحملون ألون التعذيب وصنوف الأذى، دون أن يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم لرد العدوان عليهم، ومع أن الحكمة تقتضي - لقلة المسلمين آنذاك - إثارة الصبر وعدم الدخول مع المشركين في قتال، إلا أن السبب الرئيس في ذلك هو أمر الله لهم بالكف عن القتال، فقد يصل التعذيب بالمسلمين إلى حالة يضجرون فيها فيضطرون للدفاع عن أنفسهم مهما كلفهم الأمر، ولكن يمنعهم من ذلك الالتزام بأمر الله. فروي أن مشركي مكة كانوا يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أذى شديدا، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول اصبروا فإنني لم أؤمر بقتال^(٢). وجاء نفر من الصحابة لرسول الله ﷺ فقالوا: يا نبي الله كنا في عز ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أذلة فقال: (أنسي أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم)^(٣).

(١) البقرة/ ١٤٣.

(٢) الزيلعي: تخریج الأحادیث والآثار: ٢/ ٣٨٧. وقال الزيلعي في الحديث: غريب جدا وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين.

(٣) المستدرک علی الصحیحین ٢/ ٧٦. سنن البيهقي الكبرى: باب قوله تعالى: ألم ترى إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم.

ولعل من الحكم في أمر المؤمنين بالكف في تلك المرحلة تهيئة الأجواء والنفوس لسماع تفصيلات العقيدة الإسلامية، وإفساح المجال لسماع الحجج القرآنية التي تدحض ما يتدّرع به المشركون في تبرير ما هم عليه من الشرك، فكم يود المشركون لو دخل معهم المسلمون في معاركات ومصادمات ينشغل الناس بأخبارها والتعليق عليها عن متابعة ما يدعو له الرسول ﷺ وما ينزل عليه في القرآن من حجج وبراهين هي أعظم على المشركين من القتال، ولهذا كان الكف عن القتال واحتمال الأذى مع السعي الحثيث في بيان العقيدة الصحيحة ومحاربة المعتقدات الباطلة بالحجج والبراهين القرآنية الجهاد المناسب في تلك المرحلة في مكة، وهو ما أمر الله به نبيه بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ...﴾ أي بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾^(١).

و أما بعد الهجرة فقد أصبح وضع المؤمنين في المدينة مهينا لنوع آخر من الجهاد وهو الجهاد بالسيف وقد مر هذا النوع من الجهاد بمراحل ثلاث هي:

الأولى: الإذن بالقتال لرفع الظلم: وذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٢).

الثانية: قتال المقاتلين المعتدين: وذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٣).

الثالثة: مرحلة قتال المشركين كافة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

من يحكم الجهاد:

وقد بين الله في عدد من الآيات الحكم والمصالح التي شرع الجهاد من أجلها، ومن أهمها منع الفساد في الأرض، ونشر الحق المتمثل في الاعتقاد الصحيح الذي يدعو

(١) تفسير ابن كثير: تفسير سورة الفرقان، آية/ ٥٢.

(٢) سورة الحج، الآية [٣٩].

(٣) سورة البقرة، الآية [١٩٠].

(٤) سورة التوبة، الآية [٣٦].

لتوحيد الخالق، والحد من الشر المتمثل في الشرك بالله وإضلال عباده، فقد اقتضت حكمة الله وإرادته الكونية أن يكون الناس في الأرض - منذ أهبط آدم وإبليس إليها - فريقين مختلفين متعادين ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا حَمِيْعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾^(١) فريق يتبع هدي الأنبياء والرسل، ويعمل لنشر الخير والصلاح، وفريق يتبع الشيطان الذي أخذ على نفسه أن يعمل لإضلال العباد، متخذاً من زخرف القول والإغراء بالشهوات وإثارة الشبهات وسائل لنشر الضلال، مستعيناً بشياطين الإنس جنوداً لنشر فسادهم في الأرض، لذا شرع الله الجهاد لأهل الحق والإصلاح لدفع فساد هذا الفريق الذي لا يخلو منهم مكان أو زمان. وهذا ما بينه الله في أعقاب المعركة التي خاضها المؤمنون بقيادة الملك طالوت ومعه داود عليه السلام ضد الكافرين بقيادة جالوت، حين قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ۖ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ۚ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

فالجهاد إذاً ليس لفرض سلطان مخلوق على آخر، ولا لتحقيق المكاسب ونهب الثروات. إنه إنقاذ للخلق من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، ﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِذَا انْتَهَوُا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٣). وقد فهم الصحابة هذا الهدف السامي للجهاد، فهذا ربعي بن عامر حينما بعثه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه للتفاوض مع قائد الفرس "رستم" فيقول له: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام...) ^(٤).

(١) سورة طه، الآية [١٢٣].

(٢) سورة البقرة، الآية [٢٥١].

(٣) سورة الأنفال، الآية [٣٩].

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية: ٣٩ / ٧.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الدولة الإسلامية في مواجهة القوى المختلفة

وفيه:

أولاً: الدولة الإسلامية ومواجهة
المشركين.

ثانياً: الدولة الإسلامية ومواجهة أهل
الكتاب.

ثالثاً: الدولة الإسلامية ومواجهة
المنافقين.

تمهيد:

كان قيام الدولة الإسلامية في المدينة مؤذناً بمرحلة جديدة من مراحل الجهاد والابتلاء للمسلمين ودولتهم الناشئة، فلم يعد العداء محصوراً في قريش، بل شاركها العداء قوى أخرى، فدخل كثير من القبائل المشركة مع قريش في حربها ضد المسلمين، وكان هناك أهل الكتاب وفي مقدمتهم اليهود الذين أغاظهم - أولاً - أن النبي الذي كانوا يعلمون ظهوره لم يكن منهم، وأغاظهم - ثانياً - ما ترتب على الهجرة من توحيد العرب في المدينة، وهم يرون في ذلك إضعافاً لجانبهم، وهتماً لما عملوه في سنين لزرع الفرقة بين العرب. كما أن هناك عدواً ملتفاً حول المسلمين وداخلاً بين صفوفهم، ينفذ سهامه المتنوعة كلما وجد فرصة، وهم المنافقون. وستناول أهم مظاهر المواجهة بين هذه القوى والدولة الإسلامية الناشئة.

أولاً: الدولة الإسلامية ومواجهة المشركين:

كان مشركو قريش في مكة أول من ناصب الدعوة الإسلامية العداء ووقفوا في طريقها، وسلكوا كل الوسائل الممكنة للصد عنها، فلما هاجر ﷺ أغاظهم ذلك؛ لإفلاته وأصحابه من أيديهم، فلا بد أن يضربوا - كما يظنون - ضربتهم للقضاء على محمد وأصحابه قبل أن يستفحل أمرهم، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول ومن كان معه يقولون: إنكم قد آويتم صاحبنا، وإنكم أكثر أهل المدينة عدداً، وإننا نقسم بالله لتقتلنّه، أو لتخرجنّه، أو لنسيرنّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم. فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن معه من عبدة الأوثان تراسلوا واجتمعوا وأجمعوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه^(١). وفي الوقت نفسه قام مشركو مكة بغارات سريعة كان الغرض منها تهديد المسلمين في المدينة وإرهابهم، ففي شهر ربيع الأول من السنة الثانية أغار كرز بن جابر الفهري في مجموعة من المشركين على مراعي المدينة واستاق بعض المواشي^(٢).

(١) سنن أبي داود: ١٥٦/٣. باب في خبر النضير. تفسير ابن كثير: ٣٣٢/٤.

(٢) الطبقات الكبرى: ٩/٢. الثقات: ١٤٧/١.

أما الرسول ﷺ فقد كان من أولوياته ﷺ بعد الهجرة أخذ الثأر من كفار قريش الذين عذبوا المؤمنين وسلبوهم أموالهم، وشردوهم من ديارهم ظلماً وعدواناً. فحين وقع وثيقة المسالة مع اليهود شدد على عدم إجراء أي تحالف مع قريش، أو إجارته، أو حماية تجارتهم، مما يدل على عزمه على الدخول في حرب معهم، ومنذ الأيام الأولى والرسول ﷺ والمسلمون متحفزون قد أخذوا تهديدات قريش مأخذ الجد، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه^(١). وكان ﷺ يضع الحرس عليه أول الأمر، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٢)، فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: (أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله)^(٣).

أهم السرايا والغزوات قبل معركة بدر^(٤):

حين نزل الإذن بالقتال وجه الرسول ﷺ عدداً من السرايا والغزوات^(٥) كان الهدف منها إشعار قريش بتيقظ المسلمين من جهة، واعتراض تجارة قريش لتعويض المهاجرين ما سلب منهم في مكة من جهة أخرى، ومن أهم تلك السرايا والغزوات:

* سرية حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه في ثلاثين من المهاجرين، لاعتراض عير لقريش قادمة من الشام بقيادة أبي جهل، فالتقوا بهم عند ساحل البحر، وحين اصطفوا للقتال حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان حليفاً للفريقين.

(١) المستدرک علی الصحيحین: ٤٣٥/٢.

(٢) سورة المائدة، الآية [٦٨].

(٣) المستدرک علی الصحيحین: ٣٤٢/٢. سنن البيهقي الكبرى: ٨/٩.

(٤) انظر خريطة الغزوات والسرايا قبل بدر في ملحق الخرائط؟

(٥) السرية ما عقد الرسول ﷺ لوائها لأحد أصحابه ولم يخرج فيها، والغزوة ما خرج الرسول ﷺ على رأسها.

* سرية عبيدة بن الحارث بن الطلب رضي الله عنه في ستين من المهاجرين، فاعترضوا عند بطن رابغ^(١) عيرا لقريش بقيادة أبي سفيان في مائتي رجل، وحدث بين الفريقين مناوشة بالرمي دون الاقتتال بالسيوف، وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أول من رمى فيها، فهو أول من رمى بسهم في الإسلام.

* سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في عشرين من المهاجرين، لاعتراض قافلة لقريش، وكانوا يسرون بالليل ويكمنون بالنهار، فلما بلغوا الخرار^(٢) وجدوا العير قد مرت فرجعوا. (وكانت جميع السرايا الثلاث في السنة الأولى من الهجرة)

* غزوة الأبواء، وفيها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عدد من المهاجرين، وهي أول غزوة غراها صلى الله عليه وسلم، لاعتراض عير لقريش فلم يجدها ولم يلق كيدا. وفيها وادع بني ضمرة على أن لا يغزوهم، ولا يغزوه، ولا يعينوا عليه عدوا.. وكتب بينه وبينهم كتابا بذلك.

* غزوة بواط، وفيها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مائتين من أصحابه لاعتراض عير لقريش عددها ألفان وخمسمائة بعير بقيادة مائة رجل، فبلغ بواط ولم يلق كيدا.

* غزوة سَفَوَان^(٣) وفيها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب كرز بن جابر الفهري الذي أغار على المدينة في نفر من قريش - كما سبق - فلما بلغ صلى الله عليه وسلم سَفَوَان دون أن يدرك كرزاً رجع إلى المدينة.

* غزوة العُشَيْرَة^(٤)، وفيها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مائتين من أصحابه، ليعترض عيرا لقريش بلغه أنها خرجت من مكة إلى الشام بقيادة أبي سفيان، فلما بلغ العشيرة علم أن العير فاتته، فوقع موادة مع بني مدلج ورجع إلى المدينة منتظرا عودة العير من الشام. (وكانت جميع غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم تلك في النصف الأول من السنة الثانية من الهجرة).

(١) بطن رابغ واد من الجحفة له ذكر في المغازي وفي أيام العرب وقال الواقدي هو على عشرة أميال من الجحفة فيما بين الأبواء والجحفة (معجم البلدان: ١١/٣)

(٢) تقع الخرار شرق رابغ على قرابة (٢٥) كيلا عند غدير خم. (البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: ١١٢)

(٣) سَفَوَان قرب بدر ولذا تسمى بدر الأولى.

(٤) العشيرة تصغير عشرة، وهي من ناحية ينبع بين مكة والمدينة وقال أبو زيد العشيرة حصن صغير بين ينبع وذي المروة (معجم البلدان ١٢٧/٤)

* سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه، في رجب من السنة الثانية حيث بعثه الرسول ﷺ في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمر به، ولا يستكره من أصحابه أحداً، فلما سار يومين فتحه فإذا فيه: (إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا أخبارهم) فلما قرأ الكتاب قال لمن معه: لست بمستكره أحداً منكم، فمن كان يريد الشهادة فليمض فإنني ماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى القوم معه، فلما بلغوا نخلة مرت بهم قافلة تجارية لقريش قادمة من الطائف، في أربعة نفر بقيادة عمرو بن الحضرمي، وكان اليوم آخر يوم من شهر رجب والقتال فيه محرم، فتشاور عبدالله وأصحابه في أمرهم فقالوا: إن تأخرنا عنهم هذا اليوم دخلوا الحرم فامتنعوا، وإن أصبناهم، أصبناهم في الشهر الحرام، واتفقوا على مهاجمة القافلة فقتلوا قائدها، وأسروا اثنين، وأفلت الثالث من أفرادها، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فسقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم المسلمون فيما صنعوا، واستغل المشركون الحدث، فأثاروا حرباً إعلامية ضد المسلمين مشنعين عليهم انتهك الأشهر الحرم، فتولى الله عز وجل الرد على المشركين حين أنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١) فبين سبحانه وتعالى أن ما فعله المشركون في مكة من الصد عن دين الله، والكفر به، وإخراج المسلمين من ديارهم، كل ذلك أكبر مما فعله عبدالله بن جحش وأصحابه رضي الله عنهم.

(١) سورة البقرة، الآية [٢١٧]. وعن السرايا والغزوات التي سبق ذكرها انظر: (ابن هشام:

٢٢٣-٢٤٣. الطبقات الكبرى: ٢/ ٥-١٠. زاد المعاد: ٣/ ١٦٣-١٧٠ وترتيب الغزوات

بحسب ترتيب ابن سعد في الطبقات).

مراحل المواجهة مع المشركين:

كل ما سبقت الإشارة إليه من تغيض مشركي مكة من إفلات المسلمين من قبضتهم بالهجرة، وشعورهم بأنهم الأقوى والأقدر على القضاء على المسلمين وسعيهم لذلك، وفي المقابل تيقظ المسلمين، ومحاولاتهم الجادة في الانتقام من قريش باعتراض قوافلهم التجارية، كل ذلك كان مؤذناً باندلاع حروب كبيرة بين الطرفين، وهذا ما حدث، فقد اندلعت الحرب بينهما في السنة الثانية من الهجرة. ويمكن تقسيم مجريات الحروب بين المسلمين المشركين إلى ثلاث مراحل:

«مرحلة غزو المشركين للمسلمين، مرحلة الصلح والمهنة، مرحلة غزو المسلمين

للمشركين».

المرحلة الأولى: غزو المشركين للمسلمين:

استغرقت هذه المرحلة الخمس السنوات الأولى بعد الهجرة، وكانت فيها قريش تزحف وحلفاؤها بجيوشهم نحو المدينة، أملاً في القضاء على الدولة الإسلامية الناشئة، وخاض الطرفان خلال تلك المرحلة عدة غزوات، كان أكبرها شأنًا وأبعدها أثراً «غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الأحزاب».

غزوة بدر^(١):

هي أول معركة فاصلة بين المسلمين والمشركين، ومن خلال معرفة سبب هذه المعركة وسير أحداثها، ندرك أن الله تعالى أراد من هذه المعركة إنهاء حالة الضعف التي عاشها المسلمون في مكة، ولا يزال المشركون يتعاملون معهم من خلالها. كما أراد أن تكون ضربة موجعة لكبرياء قريش وتسلبها، ويكون فيها درس للجميع بأن القوة الحقيقية هي قوة الإيمان، وأن الله - ولا بد - ناصر نبيه ومظهر دينه.

سببها:

خروج الرسول ﷺ وأصحابه لاعتراض قافلة قريش بقيادة أبي سفيان، التي أفلتت منهم - كما سبق - في غزوة العشيرة. فقد ظل الرسول ﷺ يتحين فرصة رجوعها من

(١) انظر: خريطة غزوة بدر ملحق الخرائط.

الشام، وحين اقترب موعد رجوعها بعث من يتحسس خبرها^(١)، فلما جاءه الخبر برجعها انتدب أصحابه للخروج فقال: هذه غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها^(٢)، وخرج على وجه السرعة ولم ينتظر أحداً، حيث قال: (فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا)^(٣). وخرج معه بضعة عشر وثلاثمائة^(٤) من المهاجرين والأنصار، ومعهم فرسان وسبعون بعيراً يتعاقب البعير الثلاثة نفر^(٥).

تتطور الأمور إلى غير ما يريده المسلمون:

خرج الرسول ﷺ وأصحابه على أمل اعتراض القافلة، ولكن الله أراد غير ذلك، فقد أفلتت القافلة؛ لأن قائدها - أبا سفيان - كان قد بعث من يستكشف الطريق، فعلم بخروج المسلمين في طريقه فأخذ طريقاً آخر نحو الساحل، واستأجر ضمضم بن عمرو ليستنفر قريشا لإنقاذ العير، فتوجه ضمضم إلى مكة ودخلها وشق قميصه وصاح: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة^(٦)، قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث..^(٧)، فخرج منهم على وجه السرعة عدد كبير يقدر بألف وثلاثمائة رجل. وبعد أن أطمأن أبو سفيان على القافلة وتجاوزها الخطر أرسل إلى قريش يخبرهم

(١) بعث ﷺ في الاتجاه الشمالي لطريق الشام، طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن نفييل رضي الله عنهم، ووصلا إلى أرض الحوراء، وبعث بسيس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء جهة بدر.. (الطبقات الكبرى: ١١ / ٢ - ١٢) وفي صحيح مسلم ذكر أن المبعوث جهة بدر "بسيه" (كتاب الإمارة/ باب ثبوت اللجنة للشهيد).

(٢) سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٤٤. عن ابن إسحاق، وقال العمري: بسند صحيح إلى ابن عباس. السيرة النبوية الصحيحة: ٢ / ٣٥٦.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب ثبوت اللجنة للشهيد.

(٤) المصنف لأبن أبي شيبة: ٧ / ٣٦٣.

(٥) وكان الرسول ﷺ وعلي بن أبي طالب وأبو لبابة رضي الله عنهم ما يتعاقبون بعيراً واحداً، فقالا للنبي غشي وتركب، فقال: (ما أنثما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما) مسند الإمام أحمد: ١ / ٤١١. المستدرك للحاكم: ٣ / ٢٣.

(٦) اللطيمة: الجمال التي تحمل العطر والبز غير الميرة (لسان العرب: ١٢ / ٥٤٤).

(٧) الطبقات الكبرى: ٨ / ٤٤. الثقات: ١ / ١٥٥.

بنجاة قافلته ويأمرهم بالرجوع، فرأى بعضهم أن يعودوا إلى مكة، إلا أن الغرور أخذ أبا جهل وقال: لا نرجع حتى نرد بدرأ فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً. فأطاعه معظمهم ورجع حوالي ثلاثمائة. وسار أبو جهل بما يقرب من تسعمائة وخمسين رجلاً، وتوجهوا للتزول أمام بدر لاستعراض قوتها وإخافة المسلمين.

استشارة الرسول ﷺ أصحابه:

حين علم المصطفى ﷺ بمسير قريش إلى بدر لم يكن أمامه إلا أن يتخذ القرار المناسب لهذا الظرف الحرج؛ فجمع أصحابه واستشارهم في الأمر، فتكلم كبار المهاجرين كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ما فأحسننا، ومن تكلم المقداد بن عمرو رضي الله عنه حيث قال: (يا رسول الله امض إلى حيث أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون....)^(١) فأنى عليهم الرسول ﷺ ودعا لهم، ولكنه استمر في حث الناس على إبداء الرأي، وهو يريد أن يعلم موقف الأنصار؛ لأنهم أكثر عدداً، ولأن بيعتهم له في العقبة الثانية لا تلزمهم بالقتال معه خارج المدينة. وفهم الأنصار ذلك فقال حامل لوائهم - سعد بن معاذ رضي الله عنه - : (والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟) قال: (أجل). فقال سعد: (فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك ما نقر به عينك، فسر بنا على بركة الله). فسر بذلك رسول الله ﷺ فقال: (سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم...)^(٢).

(١) سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٥٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٥٤. السيرة النبوية لابن كثير: من رواية ابن إسحاق بسند صحيح. نقلًا عن العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢ / ٢٥٩.

الاستعداد للمعركة:

بعد تأكد الرسول ﷺ من قناعة أصحابه في خوض المعركة نظم جيشه، فعقد الألوية، فعقد للمهاجرين لواء مع مصعب بن عمير، وللخزرج لواء مع الحُباب بن المنذر، وللأوس لواء مع سعد بن معاذ رضي الله عنهم أجمعين، وجعل لكل لواء شعاراً - كلمة السر - وجعل للمسلمين جميعاً شعاراً وهو: (يا منصور أمت) وسار حتى نزل بأدنى بدر، فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، أرايت هذا المنزل أمّنزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الحرب والرأي والمكيدة، قال: فإن هذا ليس بمنزل، فانهض حتى نأتي أدنى قلب^(١) من القوم فننزله ثم نغور ما سواه من القلب، ثم نبني حوضاً فنملأه، ثم نقاتل فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: (قد أشرت بالرأي)، وعمل برأيه. كما أخذ برأي سعد بن معاذ ﷺ في بناء عريش للرسول ﷺ، فبنى العريش حماية للرسول ﷺ، وليكون مقراً للقيادة تدار منه المعركة، وكان أبو بكر ﷺ يجلس فيه مع الرسول ﷺ.

المعركة:

بعدما استقر المسلمون في بدر جاءت جموع قريش في ثلاثة ألوية ونزلوا في العدو القصوى من بدر، فلما رآهم الرسول ﷺ قال: (اللهم هذه قريش قد أنت بخيلائها وفخرها، تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني...)^(٢)، ولكي يتم الله اللقاء بين الطرفين فقد قلل عدد المشركين في أعين المسلمين، وقلل عدد المسلمين في أعين المشركين ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِيَ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(٣) وبدأ القتال بمبارزات بين فردية من الطرفين انتهت لصالح المؤمنين، ثم نشب قتال عنيف أسفر عن نتيجة موجهة للمشركين؛ فقد قتل منهم سبعون رجلاً فيهم معظم رؤوس الكفر وصناديده، وأسر

(١) القلب: البئر، والقلب جمع قلب.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٦٠، فتح الباري: ٧/ ٢٨٩. عن ابن إسحاق.

(٣) سورة الأنفال، الآية [٤٤].

منهم سبعون رجلاً، بينما استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً فقط. وقد سطر المسلمون بطولات في هذه المعركة يطول سردها^(١).

نتيجة معركة بدر:

كان أهم نتيجة لمعركة بدر كسر شوكة قريش وإذلال كبريائها، ففيها قتل وأسر طغاتها وكبار زعمائها، فممن قتل أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وأخوه شيبه، وأميه بن خلف، وعمن أسر عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وكل هؤلاء سادة قريش وأكثر من تزعم إيذاء المسلمين والصد عن دين الله. فكانت تلك النتيجة بحق ضربة موجعة لقريش خاصة وللمشركين عامة.

أسباب النصر في بدر:

جاءت نتيجة غزوة بدر مفاجئة لقريش وقبائل العرب المشركة، بل ستظل هذه النتيجة محل استغراب كل من يطلع عليها من الماديين، الذين لا يعترفون إلا بالحسابات المادية المحسوسة. ولكنها تبدو طبيعية عند الذين يدركون السنن الإلهية في هذا الكون. ومن أبرز أسباب انتصار المسلمين ما يلي:

[١] القناعة الذاتية: استخدم الرسول ﷺ جميع الأسلحة الفعالة المتاحة في القتال، وأهمها تربية أصحابه على القناعة الذاتية في قتالهم للعدو، وفي هذا تعويض عن نقص العدد في جانب المسلمين. وهذه القناعة مبنية على الرغبة فيما أعده الله للمجاهد من أجر عظيم، ويكفي مثلاً لتوضيح ذلك قصة عمير بن الحُمَام (رضي الله عنه)، فحين حث الرسول ﷺ أصحابه على القتال قائلاً: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض) فقال عمير متعجباً: يا رسول الله؛ أجنة عرضها السموات والأرض؟ قال: (نعم). فأخرج تمرات كانت معه وأكل منها ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى ما تبقى معه ثم قاتل حتى قتل^(٢).

(١) عن أحداث معركة بدر انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب قصة غزوة بدر وما بعده.

السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٣٨٠. الطبقات الكبرى: ٢/ ١١.

(٢) عن قصة عمير انظر: صحيح مسلم: ٣/ ١٥٠٩، ١٥١٠، حديث ١٩٠١. سيرة ابن هشام:

٢/ ٢٦٧، ٢٦٨. ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٢/ ٢٥.

[٢] سلاح الدعاء: كما استخدم ﷺ سلاحاً فتاكاً كان له أثره في تحقيق النصر، وهو سلاح الدعاء. فبه يُستجلب النصر من صانع النصر ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾^(١) فقد بات ﷺ ليلة المعركة - والناس نيام - يدعو ربه ويناشده النصر، وكذا في صبيحتها، حتى أشفق عليه أبو بكر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله: (كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك).^(٢) وكذلك كان المسلمون يناشدون ربهم النصر، فاستجاب الله لدعاء نبيه ﷺ وصحابته، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمُلْكِ مُرْدِفِينَ﴾^(٣).

[٣] مشاركة الملائكة: ومن أسباب نصر المؤمنين إمداد الله لهم بالملائكة؛ يثبتون قلوبهم، ويقاتلون معهم عدوهم. وقد دلت الآيات والأحاديث الصحيحة على مشاركة الملائكة في القتال مع المؤمنين^(٤).

لقد انتهت معركة بدر بالنتيجة التي أرادها الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٥).

(١) سورة آل عمران، الآية [١٦٠].

(٢) عن دعاء النبي وتضرعه في بدر انظر: صحيح البخاري: المغازي، باب: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ حديث رقم: ٣٩٥٩. صحيح مسلم كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة. سيرة ابن هشام: ٢٦٧.

(٣) سورة الأنفال، الآية [٩].

(٤) من الأحاديث صحيح البخاري: كتاب المغازي باب شهود الملائكة بدرأ. وصحيح مسلم كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة.

(٥) سورة الأنفال، الآيتان [٧-٨].

أسرى بدر:

بعد المعركة أمر الرسول ﷺ بدفن الشهداء من المسلمين، ورمي قتلى المشركين في قليب بدر، ثم توجه إلى المدينة ومعه الأسرى السبعون، وقد بعث من يسبقه ببشرى النصر إلى أهل المدينة، وفي الطريق أمر بقتل اثنين من الأسرى هما، النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، لكونهم من المستهزئين والمكثرين من إيذاء الرسول ﷺ وأصحابه، وحين قدم المدينة استشار أصحابه في أمر الأسرى فكان رأي أبي بكر رضي الله عنه أن يأخذ الفداء منهم معللاً لذلك بقوله: (هُم بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تُأْخَذَ مِنْهُمْ فِدْيَةٌ فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْلِيَهُمْ لِّلْإِسْلَامِ). بينما كان رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه مخالفاً لذلك، فكان يرى قتلهم؛ لأنهم كما قال: (فَإِنْ هَؤُلَاءِ أَيْمَةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا) ولكن الرسول أخذ برأي أبي بكر ففرق الأسرى بين أصحابه ليوثقوهم حتى يتم فداؤهم^(١). وقال: (اسْتَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْرًا)^(٢) وأطلق عدد منهم بالفداء والبعض الآخر مئاً بدون فداء. ونزل القرآن مؤيداً رأي عمر رضي الله عنه ومعاتباً على أخذ الفداء في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُدْ أَسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣) لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٤).

مواقف القوى بعد بدر:

أحدثت معركة بدر هزة عنيفة في مكة والمدينة وما حولهما، بل وصلت أصداؤها كافة أرجاء الجزيرة العربية، ويمكن أن نتبين مواقف أهم القوى من نتيجة المعركة: أما المشركون في مكة فقد أصيبوا - كما سبق - بصدمة مذهلة أعيت عقولهم أن تصدق الخبر أول ما جاء، فحين جاء أول المخبرين وعدد القتلى، قال صفوان بن أمية

(١) عن استشارة الرسول ﷺ في أمر الأسرى، انظر: صحيح مسلم: كتاب الجهاد/باب الإمداد بالملائكة. تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٩٠.

(٢) المعجم الكبير: ٢٢/ ٣٩٣. ابن هشام: ٢/ ٢٨٨.

(٣) سورة الأنفال، الآيتان [٦٧-٦٨].

وهو جالس عند الكعبة: والله إن يعقل هذا ؟ فاسألوه عني ؛ (أي والله لا يُعْقِلُ هذا المخبر ما يقول، فاسألوه عني فلفقده عقله سيذكرني في القتلى) فقالوا: وما فعل صفوان بن أمية ؟ قال: هو ذاك جالسا في الحجر، وقد رأيت والله أباه وأخاه حين قتلا. ^(١) أما أبو لهب فقد مات من هول الصدمة بعد سبعة أيام. ^(٢) ولم يبق في مكة بيت إلا وقد تغشاه الحزن، ومع هذا منعت قريش البكاء والنياحة، حتى لا يشمت بهم المسلمون، واجمعوا على الانتقام، ولشدة الهول والرغبة في الانتقام لم يتتظر بعض الأفراد الانتقام العام، فقاموا بأعمال انتقامية سريعة، فقام أبو سفيان ومعه مائتي رجل بهجوم على أطراف المدينة فقتلوا رجلين وأحرقوا مجموعة من النخيل. وتوجه عمير ابن وهب في مغامرة جريئة - بعد اتفاه مع صفوان بن أمية على أن يكفل له أولاده - إلى المدينة لاغتيال الرسول ﷺ. ^(٣)

أما المشركون من غير قريش فهم وإن لم يصابوا في بدر إلا أن هزيمة قريش - وهي زعيمة الشرك - قد أفرعتهم، ورأوا في ذلك تهديدا لهم، فترصبوا بالمسلمين شرا، وحاولت بعض القبائل المشركة مهاجمة المسلمين.

ومن القوى التي أفرعتها نتيجة بدر اليهود، فقد أغاظهم انتصار المسلمين، وأظهر بنو قينقاع أحقادهم وجهرها بمعاودة المسلمين.

أما المنافقون فقد أخفوا كفرهم، أمام قوة المسلمين، وأعلن كثير منهم الإسلام نفاقا وهم في الداخل باقون على كفرهم.

أما المسلمون فإنهم لم يركنوا للنصر الكبير في بدر، ولم يغتروا به فيغفلوا عما يحيط بهم من أخطار، بل عمل الرسول ﷺ على الاستفادة من هذا النصر لتحقيق انتصارات أخرى، فجاهبه وأصحابه الموقف بالحيلة والحذر، وواجه القوى المتريصة دون تردد،

(١) ابن هشام: ٢/٢٨٩. عن ابن إسحاق دون إسناد. الثقات: ١/١٧٧.

(٢) ذكره ابن إسحاق بسند متصل عن ابن عباس. (ابن هشام: ٢/٢٨٩، ١٩٠) الثقات: ١/١٧٧.

(٣) انتهت محاولة اغتيال عمير للرسول ﷺ بإسلام عمير، حينما أخبره الرسول ﷺ بالحديث السري الذي دار بينه وبين صفوان. انظر تمام القصة: ابن هشام: ٢/٣٠٦. دلائل النبوة للبيهقي: ١/١٤٠.

فوقف من مجاهرة يهود بني قينقاع وعدائهم موقفا حازما انتهى بطردهم من المدينة كما سيأتي بيانه^(١). كما أمر أصحابه بقتل كعب بن الأشرف لوقوفه مع قريش في مصابهم في بدر وتحريضه لهم على المسلمين، واعتدائه على حرمة نساء المسلمين^(٢).

كما قام ﷺ بمهاجمة القبائل المشركة التي أخذت تترصد بالمسلمين، فبث العيون ورصد تحركات تلك القبائل، ثم هاجم من تحرك منهم لمهاجمة المسلمين، مثل مهاجمته لبني سليم وغطفان، وحين علم بتجمع غطفان في "ذي أمر" هاجمهم ففروا منه^(٣).

وأما قريش فبالإضافة إلى تصديه لهجوم أبي سفيان وملاحقته - فيما عرف بغزوة السوق - فقد حرص الرسول ﷺ على مواصلة محاصرتهم اقتصاديا باستمرار اعتراض قوافلهم التجارية، حتى لجأت قريش إلى سلوك طريق لم تكن تسلكه من قبل عبر نجد على الرغم من طوله وصعوبته، ومع هذا فقد تمكن الرسول ﷺ من اكتشاف أول قافلة لقريش عبر هذا الطريق، وبعث زيد بن حارثة في سرية نجحت في الاستيلاء على القافلة وما تحويه من أموال ومتاع بعد فرار حراسها^(٤).

جدول يوضح أبرز مظاهر النشاط العسكري للمسلمين بين غزوتي بدر وأحد^(٥)

الأنشطة	الشهر/السنة	هدفه
غزوة السوق	١٢/٢هـ	للتصدي لهجوم أبي سفيان في رجال من قريش
غزوة الكُدُر	١/٣هـ	إلى جمع من بني سليم وغطفان
غزوة ذي أمر	٣/٣هـ	لمهاجمة جمع من بني ثعلبة ومحارب أرادوا مهاجمة المدينة
غزوة بُحْران	٥/٣هـ	مهاجمة جمع من بني سليم
سرية زيد بن حارثة	٦/٣هـ	لاعتراض عير لقريش سلكت ناحية ذات عرق

(١) انظر موضوع المواجهة مع اليهود.

(٢) عن مقتل كعب بن الأشرف انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب قتل كعب بن

الأشرف. صحيح مسلم: باب قتل كعب بن الأشرف. ابن هشام: ٢/٤٣٦.

(٣) ابن هشام: ٢/٤٢١، ٤٢٥.

(٤) ابن هشام: ٤٢٩. الطبقات الكبرى: ٢/٣٦.

(٥) انظر خريطة توضح هذا النشاط في ملحق الخرائط.

غزوة أحد^(١)؛

سببها:

بعد هزيمة كفار قريش المروعة في غزوة بدر، أرادوا أن يأخذوا بثأرهم ويردوا اعتبارهم عند العرب، فتداعوا إلى الخروج لغزو المسلمين، وجعلوا القافلة التي أفلتت من المسلمين في نفقات الحرب، وخرجوا يشاركون عدد من بعض القبائل الحليفة لهم، وساروا في ثلاثة آلاف نحو المدينة، وذلك في السنة الثالثة من الهجرة.

الرسول يستشير أصحابه:

جاء رسول الله ﷺ كتاب من عمه العباس يخبره بخروج قريش، فجمع أصحابه واستشارهم في الأمر، وكان رأيهم - وعدد من المسلمين - أن يقيموا في المدينة ولا يخرجوا للملاقاة المشركين، فإن دخلوا المدينة قاتلهم الرجال في الطرقات والنساء من فوق المنازل. ولكنه - كعادته - أحب أن يستشير أصحابه، فرأى عدد كبير ممن فاتته القتال في بدر أن يخرجوا لقاتلهم، وألحوا على الرسول ﷺ حتى وافقهم، فدخل منزله وليس "لأمتة"^(٢). فلما خرج عليهم ندموا على إكراههم لرسول الله، وقالوا: إن أحببت أن نمكث بالمدينة فافعل. فقال ﷺ: (ما ينبغي لنبي لأبس لأمتة أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه)^(٣). فخرج وخرج معه ألف رجل. وفي الطريق رجع عبد الله بن أبي بن سلول، ورجع معه ثلث الجيش من المنافقين، وكان ممن يرى البقاء في المدينة، وقال: أطاعهم وعصاني، فعلام نقتل أنفسنا. وأبدى هو وأصحابه عذراً تافهاً فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع.

التخطيط للمعركة:

كان المشركون قد نزلوا قريباً من جبل أحد، فجاء رسول الله ﷺ وجعل الجبل في ظهره، واختار خمسين من أصحابه من الرماة وجعلهم على تل مقابل لجبل

(١) انظر خريطة غزوة أحد في ملحقات الخرائط.

(٢) أي سلاحه. وتنطق أيضاً "لأمة" بالتخفيف.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالسنة: باب قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [سورة

الشورى: ٢٨]. سيرة ابن هشام: ٣/ ٧.

أحد^(١)، وجعل عبدالله بن جبير رضي الله عنه أميراً عليهم، وأمرهم بالذب عن ظهور المسلمين، ونبل المشركين؛ لإعاقة تقدمهم خلال القتال، وأمرهم بلزوم مكانهم وقال: (كونوا مكانكم لا تبرحوا وإن رأيتم الطير تخطفنا)^(٢).

أحداث المعركة :

بدأت المعركة بمبارزات فردية تمكن فيها المبارزون المسلمون من قتل أضدادهم من المشركين، واستطاع المسلمون بقوة إيمانهم، والتخطيط المحكم، أن يتفوقوا على أعدائهم، فركز المسلمون على حامل لواء المشركين فقتلوه، وقتلوا كل من حمله واحدا تلو الآخر فلما قتل العاشر منهم سقط اللواء ولم يجد من يحمله^(٣)، فحلت الهزيمة بالمشركين على كثرتهم، واضطروهم المسلمون إلى الفرار من ميدان المعركة.

معصية الرماة تغير مسار المعركة:

لما رأى الرماة انتصار المسلمين وفرار المشركين اجتهدوا فقرروا النزول لمشاركة المسلمين في جمع الغنائم، وعلى الرغم من تحذير أميرهم عبد الله لهم من خطورة تصرفهم هذا، وتذكيره لهم بتوجيهات رسولهم ﷺ لهم، إلا أنهم أصروا على النزول، فنزلوا ولم يبق مع أميرهم إلا نفر يسير دون العشرة. وكان لمخالفة هؤلاء الرماة لأمر الرسول ﷺ أثر غير مسار المعركة. فلما رأى خالد بن الوليد - وكان على ميمنة قريش - الرماة نزلوا من التل، قام بحركة التفاف من وراء جبل الرماة، حتى صعد الجبل، وقاتل بفرقه من بقي من الرماة حتى قتلهم، وهجم على المسلمين من خلفهم. فلما رأى من بقي من المشركين ما قام به خالد عادوا لميدان القتال، فأصبح المسلمون في موقف حرج، فاضطربوا واختل نظامهم، وتفرقوا، واشتد عليهم المشركون، فاستشهد من المسلمين سبعون رجلاً، ونال الرسول ﷺ ما ناله من الأذى، فخرج وكسرت ربايعته، وأشيع أنه قتل، فقلل هذا من

(١) سمي بعد ذلك جبل الرماة.

(٢) سنن النسائي الكبرى: ١٨٩/٥. وفي صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة أحد. قال

ﷺ (لَا تَبْرَحُوا إِن رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا وَإِن رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِشُونَا).

(٣) انظر أسماء العشرة الذين حملوا اللواء واحدا بعد الآخر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٤١/٢.

معنويات بعض المسلمين. إلا أن المسلمين ظلوا - على الرغم مما حل بهم - يقاتلون حتى تبين لهم أن رسول الله ﷺ حي لم يقتل، فالتفوا حوله، واستطاع ﷺ بشجاعة وثبات أن ينحاز بالمسلمين جهة الجبل ليخفف من وطأة المشركين عليهم. أمّا المشركون فقد اكتفوا بما حققوه من نصر وتركوا الميدان، بعد شتائم وجهها قائدهم أبو سفيان للمسلمين، وتوعدهم بلقاء آخر في العام القادم. فقال الرسول ﷺ لأصحابه: (قولوا نعم موعدا العام القادم).

بقي رسول الله ﷺ في الميدان، وأمر بعض أصحابه ليستطلع له هل توجهت قريش إلى مكة أم أنهم يريدون مهاجمة المدينة، وقال: (والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لاناجزئهم). فلما تأكد من أنهم توجهوا إلى مكة أخذ يتفقد الشهداء، ثم صلى عليهم، ودفنهم، وعاد إلى المدينة.

وقبل وصول قريش إلى مكة، كأنهم ندموا على عودتهم دون أن يستأصلوا المسلمين ويقضوا على شوكتهم، فقرروا العودة لاستتصال البقية من المسلمين. فلما علم بذلك ﷺ أمر أصحابه - الذين خرجوا معه في أحد دون غيرهم - للخروج لملاقاة المشركين، فاستجابوا للخروج على ما أصابهم، فأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

غزوة أحد... دروس وعبر:

على ما أصاب المسلمين في غزوة أحد من بلاء إلا أن فيها من الدروس والعبر ما جعلها من أعظم الغزوات نفعا للمسلمين في حينها ووفي كل حين. وقد أنزل الله إحدى وستين آية في سورة آل عمران وحدها، تناولت العبر، وبينت الحكم فيما أصاب المسلمين في هذه الغزوة، ومنها:

[١] تمحيص الصف: فميزت تلك الغزوة المؤمنين الصادقين من أهل النفاق. فاما المؤمنون فقد ثبتوا في موطن الشدة وبقوا على صدقهم حتى آخر رمق فيهم. يقول

(١) سورة آل عمران، الآية [١٧٢]. وعن تفصيلات أحداث غزوة أحد انظر: سيرة ابن هشام:

٣/٣ وما بعدها. الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣٦/٢ وما بعدها.

أحدهم موصياً من وقف عليه وهو يلفظ أنفاسه: قل لقومي من الأنصار لا عذر لكم إن يخلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف^(١). وكان من حول الرسول ﷺ يفدونه بأنفسهم؛ حتى استشهد دفاعاً عنه عشرة من أصحابه رضي الله عنهم. وأما المنافقون فقد فرحوا بما أصاب المؤمنين وأظهروا ما تخفي نفوسهم من حقد؛ فعرفوا وظهر أمرهم.

[٢] أهمية طاعة الله وطاعة رسوله: تلقى المؤمنون درساً عملياً في أهمية طاعة الله ورسوله ﷺ وعدم مخالفة أمرهما، وذلك حين خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، فجاء الجواب لمن تساءل عن سبب ما أصاب المسلمين في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ^(٢) إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٣)﴾ ويدخل في ذلك طاعة القيادة المسلمة في كل زمن.

[٣] الارتباط بالفكرة دون الأشخاص: تنبه المؤمنون إلى أنه يجب أن يكون قتالهم وجهادهم لنصرة دين الله. فلا يصرفهم عن ذلك أو يقلل من حماسهم فقد شخص الرسول ﷺ أو من يتولى قيادهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْفَكُونَ وَلَوْ كُنَّا إِلَّا عَقَبُوكُمْ^(٤) وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ^(٥)﴾.

[٤] عظم مكانة الشهداء: إن الموت في سبيل الله شرف عظيم يتفضل الله به على الشهداء؛ فليسوا كغيرهم من الأموات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ^(٦) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(٧)﴾.

(١) ورد هذا عن سعد بن الربيع رضي الله عنه: سيرة ابن هشام: ٤٦ / ٣، الذهبي سير أعلام النبلاء ٣١٨/١، ٣١٩. وورد مثله عن أنس بن النضر رضي الله عنه.

(٢) سورة آل عمران، الآية [١٦٥].

(٣) سورة آل عمران، الآية [١٤٤].

(٤) سورة آل عمران، الآيتان [١٦٩-١٧٠].

[٥] المداولة بين المسلمين وغيرهم: على المسلمين أن يتوقعوا الهزيمة - كما تحل
بغيرهم - إذا قصروا في فعل الأسباب: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾^(١)
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا
يُحِبُّ الظَّالِمِينَ^(٢).

[٦] لا مجال - في الإسلام - للتشاؤم من المكان أو الزمان الذين يصاب فيهما
الإنسان بنكبة أو مصيبة، أو أن ننسب لهما تلك النكبة أو المصيبة، كما يقال أيلول
الأسود، أو نكسة حزيران. لذا لم يدع الرسول ﷺ مجالاً للنفوس أن تكره جبل أحد
لارتباطه بمصاب المسلمين في تلك الغزوة، بل كان يقول: (أحد جبل يحبنا ونحبه)^(٣).
ويطول المجال في ذكر الدروس المستفادة من غزوة أحد. وقد ذكرها ابن القيم
رحمته الله بشيء من التفصيل في كتابه زاد المعاد^(٤).

تضحيات جسيمة في المواجهة مع المشركين:

قدم المسلمون في مواجهتهم للمشركين بعد معركة أحد تضحيات كبيرة كان من
أهمها ما حدث في سريتي الرجيع وبئر معونة.
سريّة الرجيع: صفر/٣هـ

بعث رسول الله ﷺ نفراً من أصحابه، وأمر عليها عاصم بن ثابت^(٥)، فانطلقوا
حتى إذا كانوا ببعض الطريق بين عسفان ومكة ذكروا لحى من هذيل يقال لهم


(١) سورة آل عمران، الآية [١٤٠].

(٢) صحيح البخاري: المغازي/ ٨١.


(٣) ٣: ٢١٨ وما بعدها.

(٤) اختلف البخاري وابن إسحاق في عدد أفراد السرية وسيبها، فيذكر البخاري أن عددهم عشرة،
وأن مهمة السرية استطلاعية، بينما يذكر ابن إسحاق أن عددهم ستة نفر وذكرهم بأسمائهم،
وذكر أن السبب في بعث هؤلاء النفر كان قدوم رهط من قبائل غُضَل والقارة فقالوا: يا رسول
الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفرأ من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن،
ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ معهم هؤلاء النفر من أصحابه. (صحيح
البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الرجيع. سيرة ابن هشام: ٣/ ١٦٠)

بنو لحيان، فاتبعوهم بقریب من مائة رجل رام، فاقتصوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما أنسهم عاصم بن ثابت وأصحابه لجؤوا إلى فدق^(١) وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة قوم كافرين. اللهم أخبر عنا رسولك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر. فلما قُتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه لبيعوه من سلافة بنت سعد بن سهيل، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشرين في قحفه الخمر، فمنعته الذبّر فلما حالت بينهم وبينه قالوا: دعوه حتى يمسي فيذهب عنه، فأنأخذه، فبعث الله الوادي فاحتمل عاصمًا فذهب به. وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً تنجساً.

وأما خبيب، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، فلانوا للقوم، فأسروهم وأوثقوهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة لبيعوهم بها، حتى إذا كانوا ببعض الطريق انتزع عبد الله بن طارق يده من الوثاق ثم أخذ سيفه، واستأخر عنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه .

وساروا بخبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة.

وإذا كان الصحابة الأربعة قد قدموا صورة مشرقة في الدفاع عن الدين والنفس، فإن خبيبا وزيدا قد قدموا صورة أخرى لا تقل إشراقاً عن تلك الصورة التي قدمها أصحابهم، فأما زيد فحين خرج به المشركون لقتله خارج الحرم: سأله أبو سفيان بن حرب، قائلاً: أشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإنني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً^(٢). فقتل  وقد قدم صورة مشرقة أظهر فيها حب المسلم الصادق حتى آخر رمق في حياته لدينه ونبيه.

(١) هي الأرض المرتفعة.: غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ٢٣٠.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٥٦/٢.

أما خبيب فإنه حين قرب موعد قتله طلب من إحدى نساء المنزل المأسور فيه موسى ليستحد بها^(١) فلما أعطته موسى غفلت عن غلام صغير لها فدرج حتى وصل إلى خبيب فأخذه ووضعته على فخذه، وتصف تلك المرأة شعورها قائلة: فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني خبيب وفي يده موسى فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله. وإن كان هذا الموقف هزها فقد هزها موقف قبله دفعها أن تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ من ثمره، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقاً رزقه الله.

فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه قال: دعوني أصلي ركعتين، فلما صلى انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن مابي جزع من الموت لزدت. فكان ﷺ أول من سن الركعتين عند القتل. وانشد قبيل مقتله أبياتا منها:

ولست أبالي حين أُقْتَلُ مُسْلِمًا على أي شِقْ كانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يَبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعٍ^(٢)

سريّة بثر معونة:

في الشهر الذي كانت فيه مصيبة "الرجيع" أصيب الرسول ﷺ والمسلمون بفاجعة كبيرة في "بثر معونة"^(٣) كان ضحيتها قرابة سبعين شاباً من خيرة الصحابة ﷺ من القراء، كانوا يصلون بالليل ويحتطبون بالنهار، بعثهم الرسول ﷺ ناحية نجد إلى بعض قبائل بني سليم "رعل، وذكوان، وعصية" لدعوتهم إلى الإسلام وتعليمهم^(٤). فلما بلغ

(١) أي يخلق شعر عانته، ليلقى ربه نظيفاً متطهراً.

(٢) عن تفاصيل غزوة الرجيع انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الرجيع. الطبقات الكبرى لابن سعد: ٥٥/٢. سيرة ابن هشام: ١٦٠/٣.

(٣) بثر معونة: ماء لبني عامر بن صعصعة، بين ديار بني عامر وحرّة بني سليم وهي إلى الحرّة أقرب. (معجم ما استعجم: ١٢٤٥/٤).

(٤) ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعثهم بناء على اقتراح من أبي براء عامر بن مالك حين قدم عليه. وذكر البخاري وغيره أن ذلك بسبب طلب تلك القبائل التي تظاهرت بالإسلام.

هؤلاء الصحابة بئر معونة اعترضهم عامر بن الطفيل في تلك القبائل فغدروا بهم وقتلواهمهم ولم يسلم منهم إلا كعب بن زيد سقط صريعاً ولا يزال به رمم فتركه القوم ظناً منهم أنه مات فعاش، وعمر بن أمية أعتقه عامر بن الطفيل لرقبة على أمه.

وكان وقع خبر حادثة الرجيع وبئر معونة على الرسول ﷺ وأصحابه أليماً ومفجعاً، لهذا قنت الرسول ﷺ شهراً في صلاته يدعو على تلك القبائل^(١).

غزوة الأحزاب (الخنندق)^(٢):

كانت في السنة الخامسة من الهجرة^(٣). وسميت بهذا الاسم لأنه اشترك فيها جميع أعداء المسلمين على مختلف أنواعهم وطوائفهم، من المشركين، واليهود، والمنافقين، وتحزبوا لحرب المسلمين.

سببها:

سعى زعماء يهود بني النضير - بعد أن أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة - إلى قريش والقبائل المشركة، وتحريضهم على حرب المسلمين. ولأن قريشاً تسعى للقضاء على المسلمين وتحرير طريق تجارتها من خطرهم؛ فقد وافقوا على المشاركة، ودعوا إليها حلفاءهم من قبائل نجد وتهامة. وقد أغرى اليهود قبيلة غطفان - كبرى قبائل نجد - بدفع نصف ثمار خيبر لهم. وبلغ عدد المشاركين من الأحزاب عشرة آلاف مقاتل.

(١) عن حادثة بئر معونة انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الرجيع وبئر معونة. سيرة ابن هشام: ١٨٣/٣.

(٢) انظر خريطة النشاط العسكري للمسلمين بين أحد والخنندق وخريطة غزوة الخنندق في ملحق الخرائط.

(٣) وقيل إنها في السنة الرابعة، ولكن الأرجح أنها في الخامسة. (زاد المعاد لابن القيم: ٢٦٩، ٢٧٠/٣)

المسلمون وفكرة حفر الخندق:

علم المسلمون بنبا مسير الأحزاب إليهم، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه، فأشار سلمان الفارسي عليه السلام بفكرة حفر خندق في الجهة الشمالية للمدينة، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة، في حين تتمتع بقية الجهات بتحصينات طبيعية، حيث تتشابك فيها الأبنية مع البساتين في جهة، وفي جهات أخرى تمتد الحرات التي من الصعب اختراقها^(١). وافق الرسول ﷺ والمسلمون على فكرة سلمان، وشرعوا في التنفيذ على الفور، فجعل الرسول ﷺ على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً^(٢). وقد تحطى المسلمون كل العوائق التي مرت بهم في حفر الخندق، من قصر المدة، وبرد الطقس، وقلة المؤونة، ووعورة الأرض، وضعف آلات الحفر. وقد كان لمشاركة الرسول ﷺ أصحابه في أعمال الحفر أثراً كبيراً في إثارة حماسهم للعمل.

كانت فكرة حفر الخندق جديدة لا يعرفها العرب، لذا فوجئت جموع الأحزاب حينما قدموا ووقفوا أمام الخندق مدهوشين، فاضطروا إلى أن يعسكروا أمامه دون أن يخترقوه. وقد رتب الرسول ﷺ المسلمين وعددهم ثلاثة آلاف، فجعل أناس يقومون بدوريات حراسة في المدينة؛ خوفاً من غدر اليهود والمنافقين داخل المدينة، وبقيّة الجيش لحراسة الخندق ومنع اقتحام الأحزاب له.

وقد حاول المشركون اقتحام الخندق عدة مرات، إلا أن المسلمين تمكنوا من صدّهم، وحدثت مناوشات رشق بالنبل من وراء الخندق، وظل بإمكان المسلمين السيطرة على الوضع، حتى اشتدّت بهم الأزمة، عندما تمكن الأحزاب من إقناع يهود بني قريظة داخل المدينة من نقض عهدهم مع المسلمين وإعلان الحرب بجانب الأحزاب، فأصبح المسلمون في وضع حرج دفع الرسول ﷺ أن يستشير الأنصار في أن يعطي غطفان ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا فتمنعه من ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عباد وقالوا: كنا نحن وهم على الشرك لا يطعمون منا في شيء من ذلك فكيف نفعله بعد أن أكرمنا الله عز وجل بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ما لنا

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٢/ ٦٦، ٦٧. العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٢٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٤/ ٨٣. المعجم الكبير للطبراني: ٦/ ٢١٢.

بهذا من حاجة ولا نعطيهم إلا السيف. فقال ﷺ: (فنعلم إذا)^(١). وزاد من حرج الوضع مظاهرة المنافقين للأحزاب، بإشاعة الخوف بين المؤمنين، والسخرية منهم. وقد صور الله حالة المؤمنين الحرجة بقوله: إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا^(٢).

وحين فعل المسلمون ما في وسعهم، واستكملوا الأسباب المطلوبة منهم، وبعد أن أصبح الأمر فوق طاقتهم، هنا جاء نصر الله لهم. فمع أن المسلمين - آنذاك - لم يواجهوا قوة مثل هذه القوة، إلا أن الخسائر كانت فيها أقل، فقد أفسد الله ما بين الأحزاب واليهود، حيث تمكن نعيم بن مسعود - الذي أسلم ولم يعلم المشركون ولا اليهود بإسلامه، وكان على علاقة حسنة بالطرفين - تمكن من زرع الشك بينهم، حتى اختلفوا وارتاب كل منهما بالآخر^(٣). وأرسل الله جنوده على الأحزاب، حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا^(٤) وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا^(٥)﴾، فاضطر الأحزاب إلى الرحيل عن المدينة خائبين: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا^(٦) وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ^(٧) وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا^(٨)﴾. وبنهاية هذه الغزوة تحول المسلمون من سياسة الدفاع عن المدينة إلى غزو المشركين والهجوم عليهم في بلادهم. وقد تحدث الرسول ﷺ عن هذه النتيجة مسبقاً فور رحيل الأحزاب، حيث قال: (الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم)^(٩). والمقصود بهؤلاء مشركو قريش. وهذا لا يعني أن الرسول ﷺ لم يغز عموم

(١) عن خبر عرض الرسول ﷺ لغطفان انظر: سيرة ابن هشام: ٣ / ٢٤٧. ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٧٣ / ٤. مصنف عبدالرزاق: ٥ / ٣٦٧. فتح الباري: ٧ / ٤٠٠. على اختلاف بينهم يسير في الألفاظ.

(٢) سورة الأحزاب، الآية [١٠].

(٣) عن قصة نعيم بن مسعود انظر: سيرة ابن هشام: ٣ / ٢٤٧. ابن كثير: السيرة النبوية: ٣ / ٢١٤.

(٤) سورة الأحزاب، الآية [٩].

(٥) سورة الأحزاب، الآية [٢٥].

(٦) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الخندق: حديث ٤١١٠.

المشركين في تلك المرحلة، بل كان يتحين الفرص لتوجيه بعض السرايا لتأديب بعض القبائل المعادية له هنا وهناك.

النشاط الحربي للمسلمين بين غزوة الخندق والحديبية

نوع النشاط	الشهر/ السنة	القائد	الجهة
غزوة	١١ / ٥هـ	الرسول ﷺ	يهود بني قريظة
سرية	١ / ٥هـ	محمد بن مسلمة ؓ	القرطاء من بني بكر
غزوة	٣ / ٥هـ	الرسول ﷺ	بنو لحيان بعسفان
غزوة الغابة	٣ / ٦هـ	الرسول ﷺ	الرد على غارة عينة بن حصن
سرية	٣ / ٦هـ	عكاشة بن محصن ؓ	نو أسد
سرية	٤ / ٦هـ	محمد بن مسلمة ؓ	بنو ثعلبة بذي القصة
سرية	٤ / ٦هـ	أبو عبيدة ؓ	بنو ثعلبة بذي القصة
سرية	٤ / ٦هـ	زيد بن حارثة ؓ	بنو سليم بالجموم
سرية	٥ / ٦هـ	زيد بن حارثة ؓ	اعتراض قافلة لقريش
سرية	٦ / ٦هـ	زيد بن حارثة ؓ	بنو ثعلبة بالطرف
سرية	٦ / ٦هـ	زيد بن حارثة ؓ	ناس من جذام بحسمى
سرية	٧ / ٦هـ	زيد بن حارثة ؓ	وادي القرى
سرية الخطب	٦هـ	أبو عبيدة ؓ	للتصدي لعير قريش
سرية	٨ / ٦هـ	عبدالرحمن بن عوف ؓ	دومة الجندل
سرية	٨ / ٦هـ	علي بن أبي طالب ؓ	بنو سعد بن بكر بفدك لعزمهم إمداد اليهود بخيبر
سرية	٩ / ٦هـ	زيد بن حارثة ؓ	بنو فزارة بـ وادي القرى لاعتراضهم قافلة للمسلمين
سرية	١٠ / ٦هـ	كُوز بن جابر ؓ	إلى العرينين

المرحلة الثانية: مرحلة الصلح:

صلح الحديبية:

مكث المسلمون في المدينة بعد الهجرة ست سنوات منقطعين عن زيارة المسجد الحرام والطواف به، مع أنهم بإيمانهم أحق بزيارته وعمارته من المشركين، ولكن كانت ظروف المرحلة السابقة تمنعهم من زيارته. أما وقد أظهر الله المسلمين، وكثر عددهم، وأضعف جانب المشركين بعد الخندق، فإنه من المناسب أن يسعى المسلمون لزيارة المسجد الحرام كغيرهم من العرب الذين يفدون إليه، وجاء تحقيق ذلك عندما رأى الرسول ﷺ في المنام من أنه يطوف وأصحابه بالبيت الحرام معتمرين: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ» فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا^(١). وكان ﷺ يتوقع منع قريش لهم من دخول مكة؛ لذا حاول جمع أكبر عدد من المسلمين للسير معه، فخرج ومعه ألف وأربعمائة من المسلمين^(٢). وقد حاول ﷺ جهده أن يظهر لقريش نواياه السلمية، وأنه لم يخرج لحرب؛ فساق الهدي أمامه، وأحرم بالعمرة. ولما علم في الطريق أن قريشاً تستعد لمنعه من الدخول، وعزمهم على حربه؛ غير طريق سيره تلافياً للصدام معهم، وسار حتى نزل "الحديبية"^(٣).

بيعة الرضوان:

من الحديبية بعث ﷺ عثمان بن عفان ؓ للحوار مع قريش، وإقناعهم بضرورة فتح المجال للمسلمين بدخول المسجد الحرام وأداء العمرة. ولكن قريشاً

(١) سورة الفتح، الآية [٢٧].

(٢) ورد ثلاث روايات في عدد أصحاب الحديبية، الأولى أنهم ألف وأربعمائة، والثانية ألف وخمسمائة والثالثة ألف وثلاثمائة، ولعل المشهور أنهم ألف وأربعمائة. صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية. صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام. سيرة ابن هشام: ٢٥١/٣.

(٣) الحديبية: بتشديد الياء وتخفيفها، سميت بشجرة حذاء في ذلك الموضع، وهي التي بايع الرسول ﷺ أصحابه عندها، تبعد عن مكة (معجم البلدان: ٢/٢٢٩). وتبعد عن مكة ٢٢ كم غرباً على طريق جدة القديم.

حبسوا عثمان رضي الله عنه، وأشاعوا قتله؛ لمعرفة رد فعل المسلمين. هنا طلب الرسول ﷺ من أصحابه مبايعته على الموت، فبايعوه على ذلك. وسميت هذه البيعة بيعة الراضون، وكانت تحت شجرة هناك، وقد أثنى الله على هذه البيعة وأهلها حيث قال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(١). فلما علمت قريش بذلك أطلقت سراح عثمان رضي الله عنه، ثم بعثت عدداً من الرسل للتفاوض مع محمد ﷺ. وقد أثبت كل واحد من هؤلاء الرسل لقريش أن محمداً وأصحابه لم يأتوا للحرب، وإنما قدموا لزيارة البيت الحرام، ولكن كان من العسير على قريش أن تسمح لهم بذلك، لأن فيه - كما يرون - خدش لكبريائهم أمام العرب. لذا بدؤوا يفكرون في المخرج، فحاولوا التوصل لصلح يحفظ لهم كبرياءهم، ويظهرون فيه ضعف المسلمين. وهذا ما يبدو من بنود الصلح التي وقعها الرسول ﷺ معهم، وهي:

- * أن يرجع المسلمون هذا العام دون دخول مكة، ويأتون للعمرة في العام القادم.
- * وقف الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات.
- * أن من قدم من مكة مسلماً للمدينة يُرد إلى مكة.
- * من قدم من المسلمين إلى مكة مرتداً عن الإسلام لا ترده قريش إلى المسلمين.
- * أن من أحب من القبائل الدخول في حلف محمد أو في حلف قريش فلهم ذلك، ويحترم كل طرف حلفاء الآخر.^(٢)

وفي ظاهر تلك الشروط إجحاف بحق المسلمين، مما جعلهم يراجعون رسول الله ﷺ، ويظهرون عدم رضاهم عنها، فقد جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلاتنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: (بلى). قال: فقيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم. فقال: (يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا)^(٣).

(١) سورة الفتح، الآية [١٨].

(٢) للوقوف على شروط الصلح انظر: مسند الإمام أحمد: ٤/ ٣٢٥. سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٦٦.

(٣) صحيح البخاري: كتاب: كتابة الإمام الناس / باب المصالحة.

واتضح للمسلمين فيما بعد أن تلك الشروط تحولت كلها لصالحهم، حتى إن قريشاً بنفسها طلبت إلغاء ما كان المسلمون يظنون أن فيه إجحافاً بحقهم.

نتائج صلح الحديبية:

لقد سمى الله هذا الصلح فتحاً، حين أنزل على رسوله ﷺ في طريق عودته إلى المدينة قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١). فسأله رجل: أفتح هو؟ فقال: (نعم) والذي نفسي بيده، إنه لفتح).^(٢) ومن أهم نتائج هذا الصلح ما يلي:

[١] في هذا الصلح اعترفت قريش لأول مرة بكيان المسلمين ودولتهم حين وقعت معهم الصلح. وقد أدى هذا إلى دخول بعض القبائل في التحالف مع المسلمين علانية، دون خوف من قريش أو مجاملة لها. كما فعلت خزاعة.

[٢] أتاح وقف الحرب للمسلمين التفرغ لتصفية الحساب مع أعداء آخرين للإسلام. فتم غزو اليهود في خيبر وفتحها سنة سبع، وغزو غطفان في نجد في غزوة ذات الرقاع، وتوجيه جيش إلى مؤتة شمال الجزيرة، وآخر في غزوة ذات السلاسل لتأديب بعض القبائل الموالية للروم.

[٣] أتاح هذا الصلح للمسلمين التفرغ لنشر الإسلام، فبعث الرسول ﷺ رسله إلى الملوك والرؤساء في الجزيرة وخارجها، يدعوهم للإسلام، كما أعطى هذا الصلح القبائل الأخرى الجرأة في الاتصال بالمسلمين والتعرف على الإسلام. وبدل على سرعة انتشار الإسلام خلال سنتين من الصلح أنه سار مع الرسول ﷺ لفتح مكة عشرة آلاف مسلم. كما كان من نتيجة الصلح دخول عدد من مشاهير قريش في الإسلام كخالد بن الوليد، وعمر بن العاص رضي الله عنهما.

(١) سورة الفتح، الآية [١]. وانظر تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣ / ٤٢٠، والحاكم في مستدركه: ٢ / ٤٥٩. وصححه ووافقه الذهبي.

أهم الأحداث بين صلح الحديبية وفتح مكة^(١)؛

تأديب الأعراب والقبائل المتربصة؛

منذ انتصار المسلمين في معركة بدر والأعراب في الجزيرة العربية - لاسيما -
القرييين من مكة والمدينة وهم فزعون من قوة المسلمين ويرون فيها خطراً يهدد ما
ألفوه من حياة السلب والنهب، كما أن هناك عدداً من القبائل المشركة لم تنزل
تربص بالمسلمين الشر إذ لم يتمكن الرسول ﷺ من توجيه ضربة قاصمة لهم،
لانشغاله بحربه مع قريش، ولا اعتماد تلك القبائل سياسة الانسحاب وعدم
المواجهة مع جيوش المسلمين كلما غزتهم، لذا استغل الرسول ﷺ الصلح مع
قريش لتوجيه جزء كبير من نشاطه الحربي لتأديب هؤلاء وهؤلاء، فوجه ما يزيد
على خمسة وعشرين حملة عسكرية ضد الأعراب والقبائل المتربصة، وكان من
أهمها غزوة ذات الرقاع^(٢).

وقد تمكن المسلمون بهذه الحملات العسكرية من تحقيق عدد من
النتائج أهمها: إبقاء تفوق كفة المسلمين الحربية في المدينة، وقذف الرعب
في قلوب أعدائهم، وقطع الطريق على قيام أي تحالف بين تلك القوى
ضد المسلمين، ومنها الحصول على قدر كبير من الغنائم والأموال عززت
من قوة المسلمين الاقتصادية.

مكاتبة الملوك والزعماء^(٣)؛

هياً صلح الحديبية للنبي ﷺ فرصة كبيرة للانتقال بالدعوة إلى الميدان
العالمي، تحقيقاً للمهمة التي بعثه الله بها للعالم أجمع، كما قال تعالى: ﴿وَمَا

(١) انظر خريطة النشاط العسكري للمسلمين بين صلح الحديبية وفتح مكة في ملحق الخرائط.

(٢) عن هذه الحملات والسرايا انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ١١٧ - ١٣٣. والسيرة
النبوية لابن كثير: سرايا وغزوات سنتي ست، وسبع من الهجرة.

(٣) انظر خريطة كتب الرسول ﷺ للملوك وحاملها في ملحق الخرائط.

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ^(١) وقوله: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٢) وقد حفلت السنة السابعة للهجرة بعدد من الرسائل التي وجهها الرسول ﷺ إلى الملوك والزعماء المشهورين في العالم^(٣). والمهم هنا أن نتعرف على مضمون تلك الرسائل، ونتبين مواقف الملوك والزعماء منها.

أما مضمونها: فقد اختلفت عبارات الرسائل قصراً وطولاً، ولكن جميعها يتضمن البدء باسم الله، وتقدير ذكر الرسول ﷺ على المرسل إليه، وكانت التحية فيها جميعاً (السلام على من اتبع الهدى) كما تضمنت جميعها الدعوة إلى الإسلام. واختلفت في بقية العبارات بحسب حال المرسل إليه، فالنصارى يُذكر في رسائلهم قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكُتِّبْ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٤) كما تضمنت تحمیلهم - إن لم يسلموا - مسؤولية إثم رعاياهم.

أما الزعماء العرب الوثنيون في الجزيرة: فتضمنت الرسائل الموجهة لهم تخويفهم بأن أمر رسول الله ﷺ سيظهر، وأن جيوشه ستحل بمواضع ملكهم، كما تضمنت الوعد بإبقائهم على زعامتهم إن هم أسلموا. أما مواقف الملوك والزعماء من تلك الرسائل فقد اختلفت على النحو التالي:

(١) سورة الأنبياء، الآية [١٠٧].

(٢) سورة سبأ، الآية [٢٨].

(٣) أشهر الذين كتبهم الرسول ﷺ كسرى الفرس، وقصر الروم، وملك مصر، وملك الحبشة، وحاكم البحرين، وملك عُمان، وزعيم اليمامة، وصاحب دمشق.

(٤) سورة آل عمران، الآية [٦٤].

القسم الأول: من استجاب للدعوة الرسول ﷺ فأسلم:

ومن هؤلاء ملك الحبشة النجاشي واسمه أصحمة^(١)، وهو الذي صلى عليه الرسول ﷺ صلاة الغائب حين جاءه الوحي بنجر وفاته^(٢). ومنهم ملك البحرين واسمه المنذر بن ساوى^(٣). ومنهم ملك عُمان جيفر بن الجلندر^(٤).

القسم الثاني: من لم يسلم ولكن كان رده جميلا وبعث بالهدايا:

ومن هؤلاء قيصر الروم هرقل، فكان في بيت المقدس حين ورده كتاب رسول الله ﷺ، فأمر أن يُبحث له عن أحد من أهل الحجاز ليسأله عن أمر النبي ﷺ، فوافق قدوم أبي سفيان إلى الشام في تجارة لقريش، فجيء به ومن معه إلى هرقل، فوجه له عدة أسئلة تبين له منها أن محمدا ﷺ نبيا حقا، فمما قال لأبي سفيان: (فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه منكم، فلو أنني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه)^(٥) ومنعه من الإسلام خوفا على حكمه لمعارضة البطارقة له لو أسلم.

ومنهم ملك مصر المقوقس، فورد في رده على كتاب الرسول ﷺ: ((وقد أكرمتُ رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك))^(٦).

أما صاحب اليمامة (هوزة بن علي) فقد كتب إلى رسول الله ﷺ: (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك). وأجاز مبعوث رسول الله ﷺ ببعض الهدايا. فلما جاء الخبر

(١) زاد المعاد / ٣ / ٦٩٠. الرحيق المختوم: ٣٦٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجنائز. باب موت النجاشي.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١ / ٢٦٣.

(٤) المعجم الكبير للطبراني: ١٢ / ٢٢١. زاد المعاد: ٣ / ٦٩٣ - ٦٩٥.

(٥) صحيح البخاري: ١ / ٦.

(٦) المعجم الكبير للطبراني: ٤ / ١٢. زاد المعاد: ٣ / ٦٩٢.

رسول ﷺ قال: (لو سألني مَيَّابَة من الأرض^(١) ما فعلت، باد وباد ما في يديه..) فلما انصرف رسول الله ﷺ من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنه قد مات^(٢).

القسم الثالث: من أساء الرد وأخذته العزة بالإثم:

وتمثل هذا في كسرى ملك الفرس فإنه لما جاءه كتاب رسول الله ﷺ مزقه، فدعا عليهم الرسول ﷺ أن يمزقوا كل ممزق^(٣). وقد استجاب الله دعوة نبيه عليه الصلاة والسلام. ولم يكتف كسرى بتمزيق الكتاب، بل كتب إلى واليه على اليمن (باذان) أن يبعث من يأتيه بمحمد، فبعث باذان وفدا إلى الحجاز، فلما قدم الوفد المدينة ذكروا للنبي ﷺ ما بعث به كسرى إلى باذان، وطلبوا منه أن ينصرف معهم، فطلب منهم الرسول ﷺ أن يقابلوه غدا، وفي الغد أخبرهم ﷺ - بوحي من الله - بقيام شيرويه بن كسرى على أبيه وأخذه الملك منه بعد قتله. فدهشوا لذلك، وطلب منهم الرسول ﷺ أن يذهبوا إلى باذان ويخبروه، فإن هو أسلم أعطاه ما تحت يده من الملك، فلما ذهبوا وأخبروا باذان بالأمر، لم يلبثوا قليلا حتى جاء كتاب شيرويه بخبر قتله لأبيه، وأخذه الملك، فأسلم باذان ومن معه من الفرس في اليمن^(٤).

وأما صاحب دمشق (الحارث بن أبي شمر الغساني) فقد غضب حينما قرأ الكتاب ورمى به وقال: من يتزع مني ملكي أنا سائر إليه ولو كان في اليمن، وأمر بالاستعداد للحرب، وكتب يستأذن هرقل، فثناه هرقل عن عزمه فغير موقفه، فأجاز الحارث مبعوث رسول الله ﷺ ببعض الهدايا وردده بالحسنى^(٥).

(١) السيابة: مفرد سَيَّاب، وهو ثمر النخل حينما يكون بلحا. لسان العرب: سيب.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٦٢/١.

(٣) صحيح البخاري: باب كتاب النبي إلى كسرى وقيصر. سنن البيهقي: ١٧٧/٩.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٦٠/١.

(٥) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٦١/١.

المرحلة الثالثة: غزو المسلمين للمشركين. فتح مكة^(١):

سببه:

كانت قبيلة بني بكر قد دخلت في حلف قريش، وقبيلة خزاعة في حلف الرسول ﷺ - كما سبق في صلح الحديبية - وبعد اثنين وعشرين شهرا من الصلح^(٢) اعتدت بنو بكر على خزاعة، واستعانوا بقريش فأمدوهم بالرجال والسلاح وبيتوا خزاعة ليلا وهم غارون على ماء لهم يقال له "الوتير" وقتلوا منهم عشرين رجلا^(٣). وبمقتضى شروط صلح الحديبية فإن أي اعتداء على الحليف يعد نقضاً للصلح، وبذا خرقت قريش معاهدة الصلح. وهذا ما دعا الرسول ﷺ للمسارعة لنجدة خزاعة حين قدم وفدهم بزعامه عمرو بن سالم الخزاعي الذي قال قصيدة استنجد فيها بالرسول ومما جاء فيها:

لا هُم إنسي ناشدا محمدا	حلف أيننا وأبيه الأتلدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم يبتوننا بالوتير هجدا	فقتلوننا ركعا وسجدا
فانصر رسول الله نصرا أعتدا	وادع عباد الله يأتوا مددا ^(٤)

فقال رسول الله ﷺ: (نصرت يا عمرو بن سالم).

(١) انظر خريطة فتح مكة في ملحق الخرائط.

(٢) ذكر ابن سعد أن اعتداء بني بكر في شهر شعبان على رأس ٢٢ شهرا من الصلح، وذكر غيره أنه بعد الصلح بسبعة عشرة أو ثمانية عشر شهرا. ولعل ما ذكره ابن سعد أقرب للصواب فالمشهور أن الصلح كان في ذي القعدة من السنة السادسة، كما أن فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة. وسير الأحداث يدل على أنه لم يكن بين اعتداء بكر وفتح مكة إلا وقت يسير لا يصل إلى أربعة أشهر.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٣٤ / ٢.

(٤) سنن البهقي الكبرى: ٢٣٣ / ٩. المصنف لابن أبي شيبة: ٤٠١ / ٧.

سير المسلمين إلى مكة وفتحها:

شعر مشركو قريش بالخطأ الكبير الذي وقعوا فيه باعتدائها على حلفاء الرسول ﷺ. ولتدارك الأمر أرسلوا على الفور أبا سفيان لتأكيد الهدنة مع المسلمين، ولكنه فشل في تحقيق ذلك، وعاد إلى مكة خائباً.

أمر الرسول ﷺ أصحابه بالتهيؤ للخروج معه، دون أن يحدد جهة خروجه، حتى إذا حان موعد السير أخبرهم بعزمه على غزو مكة، ويريد من ذلك مباغته قريش حتى تستسلم دون قتال، وكاد سر الرسول ﷺ ينكشف لقريش لولا عناية الله بنبية إذ أوحى إليه بما دبّره حاطب بن أبي بلتعة (رضي الله عنه)، حين كتب إلى قريش يخبرهم بمسير الرسول ﷺ إليهم، ودفع بالكتاب إلى امرأة. فأرسل المصطفى ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن عمرو، فتمكنوا من اللحاق بالمرأة وأخذ الكتاب منها^(١).

خرج المسلمون مع رسولهم ﷺ في العاشر من شهر رمضان المبارك، في السنة الثامنة، وانضم إليهم أعداد كبيرة من القبائل المحيطة بالمدينة التي أسلمت، حتى بلغ عددهم عشرة آلاف مجاهد. وقد حرص ﷺ على أن يفتح مكة وينهي مقاومة قريش دون إراقة دماء، يظهر ذلك جلياً في حرصه على السرية والسرعة في تحركه، حتى

(١) ورد في صحيح البخاري: وغيره بيان السبب الذي دفع حاطب (رضي الله عنه) لاتخاذ هذا الموقف، فحين سألته ﷺ: (يا حاطب ما حملك على ما صنعت؟) قال: يا رسول الله ما لي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ولكني أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع بها عن أهلي ومالي وليس من أصحابك أحد إلا له هنالك من قومي من يدفع الله به عن أهله وماله قال صدق ولا تقولوا له إلا خيراً قال فعاد عمر فقال يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين دعني فلأضرب عنقه قال: (أو ليس من أهل يدر وما يذريك لعل الله أطلع عليهم فقال اغمّلوا ما شئتم فقد أوجبت لكم الجنة)، فأغروا رقت عيتاه فقال الله ورسوله أعلم.

وقد أنزل الله معاتباً حاطب وعذراً المؤمنين من فعله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ سورة الممتحنة، الآية [١].

بباغت قريش قبل أن تتمكن من الاستعداد، فقد بعث خيلاً بين يدي جيشه تقبض العيون، كما كلف حليفته خزاعة أن لا يدعوا قادماً يدخل مكة^(١). كما يظهر في حرصه على السير بأكبر عدد من المسلمين، وإظهار قوتهم لقريش ليدفعهم الرعب إلى الاستسلام، فحين قرب من مكة وقسم جيشه إلى ألوية نزل بمر الظهران^(٢) وأمر جيشه أن يوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار.

نجحت خطة الرسول ﷺ، فكانت قريش قد بعث أبا سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء في فرقة استطلاعية، فلما رأوا عدد النيران هالهم الأمر، وتمكن حرس الرسول من القبض عليهم، فأسلم حكيم وبديل فأطلق سراحهم، أما أبو سفيان فتردد فأمر الرسول ﷺ عمه العباس ؓ أن يحبسه عنده حتى يصبح، وتمكن العباس من إقناع أبي سفيان بالإسلام، فأعلن إسلامه للرسول ﷺ، فقال العباس: يا رسول الله: بأبي أنت وأمي إن أبا سفيان رجل يحب الشرف والذكر، فأعطه شيئاً يتشرف به، فقال رسول الله ﷺ: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن). فقال أبو سفيان وما تسع داري؟ فقال: (من دخل الكعبة فهو آمن) فقال وما تسع الكعبة؟ فقال: (من دخل المسجد فهو آمن) فقال وما يسع المسجد؟ فقال: (من أغلق بابه فهو آمن). فقال هذه واسعة. وأمر الرسول ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان حتى تمر به الكتائب كل كتيبة بسلاحها. فلما مرت به الكتائب كتيبة كتيبة زاده الأمر هولا وخوفاً على مصير قريش، حتى قال للعباس: أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! فقال العباس: إنها النبوة.

فلما اطمأن ﷺ أن الرسالة وصلت إلى أبي سفيان أطلقه ليذهب إلى قريش، فصاح فيهم: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. قالوا فما الأمر؟ فقال من دخل داري فهو آمن. فقالوا ويحك وما دارك وما تغنى عنا؟ قال ومن دخل المسجد فهو آمن. ومن أغلق عليه داره فهو آمن. فتنفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

(١) فتح الباري: ٧/٨.

(٢) بينه وبين مكة ستة عشر ميلاً. معجم ما استعجم: ١٢١٢/٤.

ودخلت ألوية الرسول ﷺ مكة من عدة نواح، ولم يجدوا مقاومة، إلا ما كان من لواء خالد بن الوليد ؓ فوجد مقاومة يسيرة. وفور دخول الرسول ﷺ مكة وأعلن الأمان جاء زعماء قريش خاضعين يبائعونه على الإسلام^(١).

كان دخول الرسول ﷺ مكة دخول المتواضع الخاضع لربه، ولم يكن دخوله دخول الملوك الجبارين، أو الموتورين الحاقدين. فعلى الرغم من ما لقيه المسلمون من أذى من أهل مكة قبل الهجرة وبعدها، يعلن النبي الرحيم ﷺ مفاجاته للجميع - وقد تمكن من العقاب - فيقول مخاطباً جموع قريش الحائرة: (ما تظنون أنني فاعل بكم؟) فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم).^(٢) فعفا عن أهل مكة، غير نفر يسير أهدر دمهم لعداوتهم الشديدة، وتكرر نقضهم للعهود، وتطاولهم بالسخرية على الرسول ﷺ ودين الله. كما أمر بتحطيم جميع أصنام قريش، وتطهير المسجد الحرام منها، فكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعن بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.^(٣) وأمر بها فأخرجت وأرسل بعض أصحابه لهدم أصنام القبائل الأخرى المجاورة لمكة. وبفتح مكة وإعلان الرسول ﷺ العفو العام؛ دخل أهل مكة في الإسلام، وانتهت مقاومة قريش^(٤).

(١) المعجم الكبير للطبراني: ٩/٨ - ١١. فتح الباري: ٨/٨، ٧. بشيء من التصرف والاختصار. إلا

قول العباس للرسول إن أبا سفيان رجل يحب الشرف... فمن تاريخ دمشق: ٢٣/٤٤٨، ٤٤٧.

(٢) أبو عبيد: كتاب الأموال: ١/٢٠٢. سيرة ابن هشام: ٤/٣٢. وفيها: اذهبوا فأنتم الطلقاء. السنن

الكبرى للبيهقي: ٩/١١٨. وانظر تخريج طرق ورود هذه القصة عند مهدي رزق الله: السيرة

النبوية: ٥٦٩، وقال بعد ذكر الروايات والحديث يتقوى بهذه الطرق.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المظالم/ باب هل تكسر الدنان. وفيه نصاً ببدل صنما. وكتاب كتابة

العلم/ باب من كبر في نواحي الكعبة. السنن الكبرى للبيهقي: ٦/٣٨٢ و ٥/١٥٨.

(٤) ولتفاصيل فتح مكة انظر: سيرة ابن هشام: ٤/٣ وما بعدها. الطبقات الكبرى لابن سعد:

١٣٤/٢.

من نتائج فتح مكة،

كان فتح مكة آخر ضربة وجهت لكفار قريش. وباستسلام قريش - زعيمة الشرك - أزيحت عقبة كؤود في طريق الإسلام. فقد كانت القبائل الأخرى تترصد ما يؤول إليه الصراع بين المصطفى ﷺ ومشركي قريش، فلما انتهت مقاومة قريش ودخلت في الإسلام، بادرت القبائل الأخرى بالدخول فيه^(١). وقد أنزل الله في ذلك سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. ويدل على كثرة الداخلين في دين الله بعد الفتح أنه حضر مع الرسول ﷺ في غزوة حنين - في أعقاب الفتح - اثنا عشر ألف مقاتل^(٢).

ثقيف تتزعم الشرك،

غزوة حنين (شوال / سنة ثمان هـ):

ظلت قبائل هوازن وفي مقدمتها قبيلة ثقيف ترقب المواجهة بين المسلمين وقريش طيلة السنوات الماضية، وكانت ترى أن قريشا تكفيها عبء المواجهة والدفاع عن الشرك. فلما تم فتح مكة، وانتهت مقاومة قريش أدركت هوازن أن عليها حمل لواء مواجهة المسلمين والدفاع عن نفسها أولا، وعن الشرك ثانيا، لذا فقد تجمعت أعداد كبيرة من قبائل هوازن وفي مقدمتها ثقيف. وأحلافها^(٣)، وتأهبوا لمواجهة المسلمين، وكانت قيادتهم لمالك بن عوف النصرى، وكان قد أمر باصطحاب النساء والأولاد والأموال، والأنعام، فاعترض عليه دريد بن الصمة وهو كبير مجرب، فقال له مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاقل عنهم. قال دريد: وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم يتفعلك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحت في أهلِكَ ومالك.

لما وصلت أنباء هوازن إلى الرسول ﷺ بعث عبدالله بن أبي حذرد الأسلمي ﷺ ليدخل في هوازن ويعلم علمهم، فجاءه بخبر جموعهم واستعدادهم للحرب.

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب من شهد الفتح: حديث ٤٣٠٢ في الفتح الرباني: ٨ / ٢٢.

(٢) سيرة ابن هشام: تاريخ خليفة بن خياط: ٨٨. طبقات ابن سعد: ٢ / ١٥٤، ١٥٥. وانظر

العمرى: السيرة النبوية الصحيحة: ٢: ٤٩٦.

(٣) لمعرفة بطون هوازن المشاركة في حنين لنظر: سيرة ابن هشام: ٤ / ٦٥.

توجه الرسول ﷺ من مكة في اثني عشر ألف، فيهم ألفان من "الطلقاء" ممن أسلم حديثاً من أهل مكة^(١). وقد اغتر بعض المسلمين بكثرة عددهم حتى قال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة.

وصل الجيش الإسلامي وادي حنين^(٢) وكان المشركون من هوازن قد كمنوا في مضيقه وشعابه ومنحنياته، فلما المخدر فيه المسلمون في غبش الصبح فاجأهم المشركون وحملوا عليهم حملة واحدة، وانهالت عليهم السهام من كل صوب، فانكشفت خيل المسلمين، وفرت مقدمتهم فتبعضهم الناس منهزمين، وثبت الرسول ﷺ في الميدان ومعه نفر قليل من أهل بيته وأصحابه. وكانت هذه الجولة الأولى التي عاتب الله فيها المسلمين بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾^(٣).

أما الجولة الثانية فقد كانت للمسلمين، إذ بقي الرسول ﷺ ثابتاً في الميدان يقاتل بشجاعة ومعه نفر القليل، ومعهم الملائكة تثبتهم، وأمر الرسول ﷺ عمه العباس أن ينادي في الناس، فنادي بأعلى صوته: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها يقولون يا لبيك يا لبيك. فحملوا على المشركين، فأشرف رسول الله ﷺ فنظر إلى قتالهم فقال: (الآن همي الوطيس.) ثم أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: (انهزموا ورب محمد)^(٤) فقذف الله في قلوبهم الرعب وانهزموا لا يلوي أحد منهم على أحد، تاركين وراءهم نساءهم وأموالهم وأنعامهم، فغنمها المسلمون.

(١) لم يكن لدى كثير من هؤلاء الطلقاء رغبة في القتال مع المسلمين، وإنما خرجوا رغبة في الغنيمة، بل كان بعضا ممن لم يتمكن الإيمان في قلبه يتربص بالمسلمين، وكان وجودهم مع المسلمين من أسباب الهزيمة التي حلت بهم أول الأمر.

(٢) حنين واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً. معجم ما استعجم: ٤٧١/٢.

(٣) سورة التوبة، الآية [٢٥].

(٤) ورد قول الرسول ﷺ هذا في صحيح مسلم: باب غزوة حنين.

وهذه الجولة التي قال الله فيها: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

ولم يكتف الرسول ﷺ بهزيمة هوازن في حنين، بل بعث من يتعقب فلول المنهزمين حتى لا يتمكنوا من التجمع من جديد فألحق بهم المسلمون هزائم جديدة في معركتي أوطاس، ونخلة^(٢).

حصار الطائف:

لما انهزمت هوازن لجأت ثقيف ومعهم مالك بن عوف إلى الطائف وتحصنوا فيها، فتوجه الرسول ﷺ لحصارهم، وكانت الطائف حصينة بجبالها وأسوارها، كما كان أهلها يمتلكون وسائل الدفاع الفتاكة، كالمنجنيق. وهذا ما جعل المسلمين يجدون مشقة في حصار الطائف على الرغم من استبسالهم واستخدامهم المنجنيق وبعض الدبابات^(٣) وقد استشهد في الحصار اثنا عشر رجلاً، وأمام هذا الوضع جاء بعض أصحاب رسول الله وقالوا: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم. ولكنه ﷺ بدل أن يدعو عليهم دعا لهم بقوله: (اللهم اهد ثقيفا وات بهم)^(٤) ثم رجع إلى المدينة. وأيقنت ثقيف - لما رأت البلاد من حولها دخلت الإسلام - أن لا مفر لها من الدخول مع من دخل، فجاؤا في العام التاسع من الهجرة إلى المدينة معلنين إسلامهم^(٥).

(١) سورة التوبة، الآية [٢٦].

(٢) انظر تفاصيل غزوة حنين: الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٤٩/٢.

(٣) الدبابات هنا عربة من خشب مغطاة يحمي بها المقاتلون من سهام عدوهم، ليتمكنوا من الوصول إلى أسوار المدينة.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٥٩/٢. وفي سنن الترمذي: مناقب ثقيف. وقال صحيح غريب. ولكن ليس فيه لفظ وات بهم.

(٥) عن غزوة حنين وحصار الطائف انظر: البخاري: المغازي، باب قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْيَيْنَاكُمْ كَرْثُكُمْ﴾ ٥٤/ وباب غزوة الطائف/ ٥٦. سيرة ابن هشام: ١٢٧، ٦٥/٤. الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٤٩/٢.

قسمت الغنائم

نتيجة لاصطحاب هوازن نساءهم وأموالهم وأنعامهم معهم، فقد كانت غنائم المسلمين منهم كبيرة جدا حين انهزموا، فكانت محصلة الغنائم: ستة آلاف من النساء والأطفال، وأربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة^(١). وكان ﷺ قد أمر بالغنائم فجمعت ورحلت إلى الجعرانة^(٢) فلما قفل من حصار الطائف، قسم الفضة وأخر قسمة الغنائم بضع عشرة ليلة، أملا في أن تقدم هوازن مسلمة فيرد عليهم ما أخذ منهم، فلما تأخروا، قسم جميع الغنائم.

وقد حضي المؤلفلة قلوبهم^(٣) من الطلقاء والأعراب بالنصيب الأوفر من القسمة، فكان ﷺ يعطي الواحد منهم المائة من الإبل، بل زاد بعضهم عن المائة، فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل. فقال: ابني يزيد. قال: أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل. قال: ابني معاوية قال: أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل. وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأل مائة أخرى فأعطاه إياها. وهكذا كان يعطي هؤلاء المؤلفلة عطاء من لا يخشى الفقر، حتى نفدت تلك الغنائم.

وقد يبدو لأول نظرة لمن لم يعن النظر غرابة في طريقة توزيع هذه الغنائم، ولكن كان للرسول ﷺ في ذلك هدف سام ومرمى بعيد الغور، كان همه أن يعمق إيمان المئات الذين أجبرتهم أحداث الفتح على الإسلام ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، ويقاؤهم بهذه الحال فيه خطر على الصف المسلم، لا سيما وأنهم يحسون أنهم مهجورون ومغلوبون على أمرهم. وقد تحقق للرسول ﷺ ما أراد في الوصول إلى قلوب هؤلاء عن طريق الدنيا التي لم يزل حبها يمتلك قلوبهم، ولعل قول صفوان أحد هؤلاء يكفي لتأكيد ذلك حين قال: (والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ١٥٢. فتح الباري: ٨ / ٤٨.

(٢) الجعرانة: بتشديد الراء وتخفيفها، ماء بين مكة والطائف وهي إلى مكة أقرب. (معجم البلدان: ١٤٢ / ٢)

(٣) المقصود بالمؤلفة قلوبهم: الذين أسلموا حديثا ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم، أو الذين لم يسلموا فیرغبون بالعطاء للدخول في الإسلام، أو الزعماء الذين يرجى بعطائهم كسب من ورائهم من قومهم. وجل الذين تألفهم الرسول بغنائم حنين من القسم الأول.

أبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ^(١). فإذا كان الأمر بلغ بصفوان هذا الحد وهو مشرك فلا شك أن الأمر مع غيره أكثر تأثيراً. ومع هذا فإن حرمان الأنصار من هذه الغنائم^(٢) أوجد شيئاً في نفوس بعضهم، خاصة أحداث السن منهم، فصدرت منهم بعض التساؤلات، مثل قوله: (إن هذا هو العجب! إن سيفونا تقطر من دماء قريش، وإن غنائمنا ترد عليهم؟)^(٣) ومثل: (إذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا؟)^(٤) وغير ذلك. فلما وصلت تلك المشاعر إلى الرسول ﷺ بادر بالإجابة عليها في أسلوب تربوي نبوي عظيم يرويه لنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه حين قال: (لَمَّا أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أُعْطِيَ مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَي مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ. فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ هَذَا الْحَي قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفِيءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَي مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ. قَالَ: (فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟) قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا أَمْرٌ مِنْ قَوْمِي وَمَا أَنَا. قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ. قَالَ فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل / باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا.

(٢) يرى بعض المؤرخين كالواقدي أن ما قسمه الرسول ﷺ على المؤلفلة قلوبهم كان من الخمس، ووزع أربعة الأخماس على أفراد الجيش ومنهم الأنصار، ولكن أهل التحقيق كابن حجر وغيره يرون أن القسمة كانت لجميع الغنائم. وذلك خلاف الأصل في غنائم المعركة. وقد خرج ابن حجر ذلك على غرجين: أولهما: أن هذا خاص بغنائم معركة حنين تأليفاً لأهل مكة لحداثة إسلامهم وجبراً لمصائبهم، والثاني: أن جل الجيش الإسلامي فر من المعركة ولم يبق مع رسول الله سوى نفر قليل، لذا فلا حظ للجيش فيها. (فتح الباري: ٤٨/٨).

(٣) متفق عليه.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الزكاة / باب إعطاء المؤلفلة قلوبهم.

الْحَظِيرَةِ. قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدُّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَي مِنْ الْأَنْصَارِ قَالَ فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَقَالَةٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ، وَجِدَّةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَالًا فَهَذَا كُمْ اللَّهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ؟ وَعِدَاءٌ فَأَلْفَ اللَّهَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا بَلَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ وَأَفْضَلُ. قَالَ أَلَا تَحِبُّونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟) قَالُوا وَيَمَاذَا نُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ. قَالَ: (أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصَدَقْتُمْ، أَتَيْتُنَا مَكْدُبًا فَصَدَقْتَنَا، وَمَخْذُولًا فَتَصَرَّنَا، وَطَرِيدًا فَأَوَيْتَنَا، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَا. أَوْجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لَعَاةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأْلُفُ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا وَوَكَلْتَكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّأْوِ وَالتَّبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ. اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ ابْنَاءِ الْأَنْصَارِ). قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقْنَا^(١).

وقبل أن يرحل الرسول ﷺ من الجعرانة قدم عليه وقد هوأزن معلنين إسلامهم ويطلبون منه أن يرد عليهم ما أخذ منهم، فخيرهم ﷺ بين المال أو السبي، فاختاروا السبي. فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فاثني على الله بما هو أهله، ثم قال: (أَمَّا بَعْدُ فَإِنْ إِيخْوَانُكُمْ هَؤُلَاءِ جَاؤُونَا ثَائِبِينَ وَإِلَيَّ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ فَمَنْ أَحَبُّ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ وَمَنْ أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظٍّ حَتَّى تُعْطِيَهُ إِثَاءً مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ) فقال الناس قد طيبنا ذلك يا رسول الله لهم فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّا لَا نَذِيرُ مِنْ أَذْنٍ مِنْكُمْ فِيهِ مِئْنٌ لَمْ يَأْذَنْ فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرْقَاؤُكُمْ

(١) مسند الإمام أحمد: ٧٦/٣.

أمركم) فرجع الناس فكلّمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بأنهم قد طيّبوا وأذنوا^(١).

وهذا درس تربوي آخر من رسول الله ﷺ عظيم، وأسلوب في الإدارة حكيم. فقد سره إسلام هوازن، ومعلوم عنه ﷺ أنه ما سئل على الإسلام شيئا إلا أعطاه فهو يرغب في رد سيهم إليهم، وكان بإمكانه أن يأمر أصحابه بذلك، ولكنه ﷺ أراد - وقد وزعه عليهم - أن يكون ذلك عن طيب نفس منهم، ووعد من لم يرضى بالتعويض على ذلك. فصلّى الله عليه وسلم، ورضي عن أتباعه.

تحرك بعد ذلك المسلمون مع رسولهم إلى مكة وأدوا العمرة في شهر ذي القعدة، ثم توجه قافلا إلى المدينة، ووصلها في نهاية شهر ذي القعدة بعد أن غاب عنها قرابة شهرين ونصف حقق فيها نجاحات عظيمة متراكمة.

(١) صحيح البخاري: كتاب الوكالة/ باب إذا وهب شيئا لوكيله.

ثانياً: الدولة الإسلامية ومواجهة أهل الكتاب:

(أ) المواجهة مع اليهود:

كان اليهود أجدر الناس باتباع النبي محمد ﷺ حين بعث، لأنهم يعلمون قرب خروجه، ويخبرون الناس بذلك، ويعلمون أوصافه. لكنهم لما علموا أنه من غيرهم أبوا الدخول في دينه، وكنتموا الحقيقة التي يعلمونها، حسداً من عند أنفسهم. ولم يكتفوا بكتمان الحقيقة بل إنهم قلبوها، فحين سألت قريش بعض زعمائهم عن أمرهم وأمر محمد ﷺ، قال اليهود: أنتم خير وأهدى من محمد، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾^(١)، كما كانوا يمدون قريشاً ببعض الأسئلة لإحراج محمد ﷺ^(٢).

ولما قدم الرسول ﷺ المدينة أبدى تسامحاً مع اليهود، وأظهر لهم حسن التعامل، وفتح معهم الباب واسعاً لتحقيق علاقة متينة تقوم على تحقيق مصلحة الطرفين. فوقع معهم معاهدة سلمية - كما سبق - ولكن اليهود - كما أوضحت الأحداث - قد وقعوا تلك المعاهدة رضوخاً للواقع الجديد، وفي نفوسهم تحين للفرص، وتطلع للتخلص من وجود المسلمين في المدينة. وقد عبروا عن حقدهم على الإسلام والمسلمين بصور شتى من السخرية والاستهزاء، وإثارة الشبه والشكوك، ومحاولة إثارة النعرة القبلية من جديد بين العرب في المدينة، وتشجيع حركة النفاق، حيث كان بعضهم يدخل في الإسلام نفاقاً وكذباً، ثم يخرج منه؛ ليشككوا الناس في دين الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٣).

(١) سورة النساء، الآية [٥١].

(٢) سنن الترمذي: ٤ / ٣٦٦. حديث: ٥١٤٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية [٧٢].

ومع هذا ظل الرسول ﷺ ملتزماً بمعاهدته معهم، حتى تطورت عداوتهم إلى المواجهة الصريحة، ونقضوا عهدهم. وسنستعرض كيف نقضت طوائف اليهود عهدها مع المسلمين، وموقف الرسول ﷺ من ذلك.

نقض بني قينقاع العهد:

كان لانتصار المسلمين في معركة بدر وقع مؤلم في نفوس اليهود، الذين يتربصون بالمسلمين السوء. وقد أظهر يهود بني قينقاع ما في نفوسهم من حقد بعد معركة بدر، لذا أسرع الرسول ﷺ بجمعهم في سوقهم، وقال: (يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، وأسلموا. فإنكم قد عرفتم أنني نبي مرسل؛ تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم). قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا قومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس^(١). وعلى الرغم من تحذيرهم للرسول ﷺ في هذا الموقف؛ فقد أمهلهم حتى حدث منهم اعتداء على إحدى المؤمنات، حين ذهبت إلى سوقهم، فجلست عند صائغ منهم، فأرادوها على كشف وجهها فأبت، فتحايل الصائغ وعقد طرف ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت عورتها؛ فضاحك اليهود، فصاحت المرأة، فوثب أحد المسلمين فقتل اليهودي، فاجتمع عليه اليهود فقتلوه، فوقع الشر بين المسلمين واليهود^(٢).

جلاء بني قينقاع: (شوال/ السنة الثانية)

عدّ الرسول ﷺ ما حدث من يهود بني قينقاع نقضاً للعهد. فسار بأصحابه إلى حصونهم، فحاربهم خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه ليحكم فيهم بما شاء. وهنا تدخل حليفهم المنافق عبد الله بن أبي بن سلول، وألح على الرسول ﷺ أن يخلي سبيلهم. فقال: أربع مائة حاسر وثلاث مائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدكم في غداة واحدة إني امرؤ أخشى الدوائر. فقال ﷺ: (هم لك).

(١) سيرة ابن هشام: ٤٢٦/٢. سنن البيهقي الكبرى: ١٨٣/٩.

(٢) المصدر السابق: ٢٤٢٧.

وأمر بإخراجهم من المدينة، فخرجوا ولحقوا بأذرعات في الشام^(١). وفي موقف عبدالله ابن أبي بن سلول نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝﴾ ففكر الذين في قلوبهم مرض يسرعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيضربحوا على ما أسروا في أنفسهم نذيمين^(٢).

نقض يهود بني النضير العهد وجلاؤهم. (ربيع الأول / ٤هـ):

بعد معركة بدر ظهر من بعض أفراد يهود بني النضير مثل ما ظهر من بني قينقاع من حقد على المسلمين، وخاصة من كعب بن الأشرف، حيث ذهب بعد معركة بدر إلى مكة لمواساة قريش في مصابهم، وكان شاعراً، فقال أشعاراً في رثاء قتلاهم، وحرّضهم على قتال المسلمين، كما كان يقول أشعاراً في نساء المسلمين يتغزل بهن. لهذا أمر الرسول ﷺ أصحابه بقتله، قائلاً: (من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله) وتنفيذاً لأمره ﷺ قام بعض الصحابة بقتله^(٣).

اعتبر الرسول ﷺ تصرفات كعب عملاً فردياً ولم يؤاخذ به قومه، بل إنه لما أثار مقتل كعب مخاوفهم وقع معهم معاهدة، أكد فيها ما تم توقيعه في المعاهدة السابقة حين قدم المدينة^(٤).

ولكن بني النضير لم يدعهم الحقد والحسد لربي الله حتى نقضوا عهودهم. ويظهر ذلك في اتصالاتهم السرية مع قريش؛ لتحريضهم على المسلمين، ودلاتهم على عورات المسلمين، وتقديم بعض المساعدة لهم^(٥).

(١) المصدر السابق: ٤٢٨، ٤٢٧. طبقات ابن سعد: ٩٢/٢. تفسير ابن كثير: ٧٠/٢.

(٢) سورة المائدة، الآيتان [٥١-٥٢]. تفسير الطبري: ٢٧٥/٦. تفسير ابن كثير: ٧٠/٢.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب قتل كعب بن الأشرف / ١٥.

(٤) العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٣٠٤/١.

(٥) مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٤١٨.

إلا أن الحادث الذي دفع الرسول ﷺ إلى إعلان الحرب عليهم وإجلالهم هو محاولة اغتيالهم له. فحين قدم الرسول ﷺ عليهم في ديارهم، طالباً منهم مساعدته في دفع دية قتيلين قتلتهما أحد أصحابه خطأ، أظهروا له استعدادهم لمساعدته، تحقيقاً لما بينه وبينهم من المعاهدة، وطلبوا منه الانتظار. فجلس إلى جدار أحدهم، ثم خلا بعضهم إلى بعض وتأمروا على قتله، مستغلين فرصة وجوده بينهم، واتفقوا على أن يصعد أحدهم بصخرة كبيرة فيلقيها على الرسول ﷺ ليقتله. فأوحى الله إلى رسوله بذلك فقام مسرعاً وعاد إلى المدينة، وأمر أصحابه بالسير معه لحرب بني النضير، فسار إليهم المسلمون وحاصروهم، وطلب منهم الرسول ﷺ أن يعطوه عهداً جديداً فأبوا، فقاتلهم حتى استسلموا، وفرض عليهم الجلاء من المدينة، على أن لهم ما حملت الإبل من الأمتعة. فحملوا ما استطاعوا حمله، وأخذوا يخربون ما أمكنهم تخريبه في بيوتهم؛ حتى لا يستفيد منه المسلمون. فمنهم من خرج إلى خيبر، ومنهم من خرج إلى الشام. وكان ذلك في السنة الرابعة من الهجرة.^(١) وفي أمر بني النضير أنزل الله سورة الحشر.

نقض يهود بني قريظة العهد. (ذي القعدة/ ٥ هـ):

جاء نقض بني قريظة العهد في ظروف حرجة للمسلمين، حيث كانوا مشغولين بالتصدي لعشرة آلاف من الأحزاب يحاصرون المدينة، وكان نقضهم للعهد بتحريض من يهود بني النضير الذين نزلوا خيبر بعد جلائهم من المدينة؛ فقد تسلل زعيمهم حبي بن أخطب إلى زعيم بني قريظة كعب بن أسد، فما زال يحرضه حتى وافق له على نقض العهد ومشاركة الأحزاب في قتال المسلمين واستئصالهم، وحين علم المسلمون بذلك دخلهم هم كبير، وخافوا على نساءهم وأطفالهم من بني قريظة، ولكن الرسول ﷺ اتخذ التدابير اللازمة؛ فنظم فرقاً يطوفون بالمدينة لحراستها من الداخل. ولما هزم الله الأحزاب ورحلوا عن المدينة، جاء الأمر من الله لنبيه بالتوجه فوراً لبني قريظة. فأمر الرسول ﷺ أصحابه بالمسير إليهم قائلاً: (لا يصلين أحد العصر إلا في

(١) عن جلاء بني النضير انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب حديث بني النضير رقم

١٤. سيرة ابن هشام: ٣/ ١٩١. البيهقي: دلائل النبوة: ٣/ ١٨١، ١٨٢.

بني قريظة^(١). ثم تكامل المسلمون أمام حصون بني قريظة، وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى استسلموا، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وطلبوا منه أن يحكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه - سيد الأوس - فقد طمعوا في أن يخفف عليهم الحكم؛ للحلف الذي بينهم وبين قومه، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول مع بني قينقاع. فقبل ذلك ﷺ واستدعى سعداً - وكان قد جرح في أيام الأحزاب - فلما حضر سعد رضي الله عنه حكم فيهم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم. فقال ﷺ: (قضيت بحكم الله)^(٢).

وتنفيذاً لهذا الحكم، تم حجز اليهود، وحفرت الأخاديد في المدينة، وجيء بهم جماعات، ومن ثبت أنه بلغ الحلم قتل، ثم دفنوا، وبلغ عددهم على الأرجح أربعمائة رجل، وقيل أكثر من ذلك^(٣). ولم يقتل عدد يسير لدخولهم في الإسلام^(٤)، أو ممن حصلوا على الأمان من بعض الصحابة^(٥). وقسمت أموال بني قريظة ونساؤهم وأولادهم على المسلمين.

لماذا هذا العقاب الشديد لبني قريظة ؟

قد يستغرب بعض من يطلع على ما ناله بنو قريظة من عقاب، ويرى أن فيه قسوة. ولكن يزول ذلك حينما ينظر نظرة إنصاف وعدل، ويعن النظر في ظروف وملابسات الحكم، ومنها:

[١] جاء نقض بني قريظة العهد بعد أن رأوا ما حلّ بطوائف اليهود قبلهم - بني قينقاع وبني النضير - بسبب نقضهم للعهد، فكان في ذلك إنذار لهم، ولكنهم لم

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب ٣٠. غزو بني قريظة.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب ٣٠. غزو بني قريظة..

(٣) عن الروايات في عددهم انظر: ابن حجر: فتح الباري ٧ / ٤١٤. مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٤٦١.

(٤) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب حديث بني النضير رقم ١٤.

(٥) سيرة ابن هشام: ٣ / ٢٦١-٢٦٣.

يستفيدوا من هذا الإنذار، ولم يعتبروا. ولا شك أن عقاب من يكثر إنذاره أشد ممن هو أقل منه في الإنذار.

[٢] جمع بنو قريظة بنقضهم العهد بين جريمتين: الجريمة الأولى تخليهم عن العهد الذي وقعه بينهم وبين المسلمين، وهو الدفاع عن المدينة إذا داهمها عدو. والجريمة الثانية أشنع من الأولى، حيث لم يكتفوا بالتخلي عن المشاركة في الدفاع بل تواطؤوا مع العدو في مهاجمة المسلمين. وعقاب من جمع جريمتين أشد وأنكى من عقاب صاحب الجريمة الواحدة.

[٣] جاء نقض بني قريظة للعهد في ظروف حرجية للمسلمين، ومن المؤكد - لولا عناية الله ونصره للمؤمنين - أن يحدث لهم على يد الأحزاب واليهود مثلما حدث لبني قريظة من قتل رجالهم وسبي أموالهم ونسائهم، لذا كان عقاب بني قريظة موافق لعظم جريمتهم، وجزاؤهم من جنس عملهم.

[٤] إذا كان سعد بن معاذ رضي الله عنه هو الذي نطق بهذا الحكم عليهم؛ إلا أنه هو حكم الله فيهم، كما أخبر به ﷺ بقوله لسعد: (قضيت بحكم الله) ومن أعدل وأحسن من الله حكماً، فهو أعلم باليهود ونواياهم، وأعلم بالحكم الموافق لجريمتهم، وليس لأحد أن يعترض على حكم أحكم الحاكمين.

وبالقضاء على يهود بني قريظة، وجلاء بني قينقاع وبني النضير من قبل، استراح المسلمون في المدينة من عدو ماكر كان يترصد بهم الدوائر، ويتحين بهم الفرص.

المواجهة مع يهود خيبر:

أصبحت خيبر بعد جلاء اليهود من المدينة أكبر تجمع يهودي في جزيرة العرب، وفر إليها رؤوس طوائف اليهود المطرودين من المدينة، ومنها أخذوا يدبرون الخطط للقضاء على الإسلام، فمنهم نبعت فكرة غزو الأحزاب للمدينة، فكان من الحزم توجيه ضربة قاصمة لهم، والقضاء على خطرهم. وحدث هذا بعدما وقع الرسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش، فتوجه إلى خيبر في محرم من السنة السابعة، وحاصرها بالمسلمين وفحتها - وهي مجموعة حصون - حصناً بعد الآخر، واستسلموا بعد قتال

عنيف، ورضخوا لحكم الرسول ﷺ بجلاتهم^(١). ولكن لما كانت خيبر منطقة زراعية وتجارية، فليس من الحكمة ترك تلك المزارع تموت دون أن يتفجع منها المسلمون، وليس بإمكان المسلمين أن يحلوا محل اليهود لانشغالهم بالعمل لنصرة الإسلام، ونشره بين الناس والجهاد في سبيله، لذا وافق ﷺ على طلب اليهود بأن يبقوهم في مزارعهم يعملون فيها، ولهم نصف الثمر^(٢). على أن للمسلمين الحق في إخراجهم منها إذا لزم الأمر. فبقوا على ذلك حتى عهد الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حيث أخرجهم عندما حتمت المصلحة إخراجهم.

وبعد فتح خيبر اضطر بقايا اليهود في جزيرة العرب إلى الدخول تحت حكم النبي ﷺ، مثل يهود فذك، وتيماء، ووادي القرى، فعاملهم معاملة يهود خيبر^(٣). وخلال فتح خيبر جرت بعض الأحداث التي تكشف البون الشاسع بين تعامل الرسول ﷺ وتعامل اليهود. فعلى الرغم من كل ذلك العداء الذي تكنه قلوب عامة اليهود للرسول ﷺ والمسلمين، ويظهر في كثير من تصرفاتهم، إلا أن الرسول ﷺ لم يكن ليقابلهم بمثل هذا التعامل، بل تعامل معهم بما يؤكد لهم أنه نبي على خلق عظيم. فمن ذلك أنه جاءه - خلال حصاره لأحد حصون خيبر - رجل يرمى الغنم لأحد اليهود، وطلب من الرسول أن يعرض عليه الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم، ثم استفتى الرسول ﷺ في شأن غنم اليهودي التي معه، فلم يستغل الرسول ﷺ الفرصة - وهو في حرب معهم - ليستولي على الغنم، بل أمر الرجل أن يضرب وجوه الغنم، وسترجع بنفسها لصاحبها^(٤).

وبعد نهاية فتح خيبر، حاول اليهود اغتيال المصطفى ﷺ، وذلك حين أهدته امرأة منهم شاة مشوية بعد أن وضعت فيها السم، وقد أكثرت من السم في ذراع الشاة،

(١) عن فتح خيبر انظر: سيرة ابن هشام: ٣ / ٣٧٨ وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب معاملة النبي أهل خيبر: رقم ٤٠. صحيح مسلم: كتاب المساقاة: باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان: ٤٢ - ٤٨. ابن القيم: زاد المعاد: ١ / ٤٠٥.

(٤) سيرة ابن هشام: ٣ / ٣٩٧، ٣٩٨.

لعلمها أن الرسول ﷺ يحب لحمها. فقبل الهدية، وبدأ في الأكل ومعه بعض أصحابه، وبقدرة الله أخبرته الذراع بأنها مسمومة، فلفظ ما تناول من لحمها من فمه. وبعد استجواب المرأة اعترفت بجريمتها، فلم يعاقبها في حينها لمجرد قيامها بوضع السم، ولكنه قتلها عندما مات أحد أصحابه متأثراً بالسم الذي وضعت^(١).

وهكذا نجد أنه كان بإمكان اليهود العيش في المدينة وفي جزيرة العرب في هدوء وسلام، لو وفوا للمسلمين عهودهم، وأظهروا حسن نواياهم. ولكنهم سعوا إلى حتفهم بأنفسهم؛ فقد أعماهم الحقد، والحسد لهذا النبي الكريم ﷺ والدين الجديد، عن حقائق الأمور. كان ذلك منهم منذ أول وهلة، وحتى آخر لحظة. فتذكر صفية بنت حيي بن أخطب بعد أن أسلمت وتزوجت رسول الله ﷺ، أن والدها حيي بن أخطب النضيري حين قدم النبي ﷺ المدينة ذهب إليه هو وأخوه أبو ياسر بن أخطب، ثم رجعا يمشيان بفتور وضعف لا تكاد أقدامهما تحملانهما، لما أصابهم من الوهن حين تبين لهما أنه النبي حقاً، فتقول صفية: وسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي حيي: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبت؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت^(٢). وصدق في عداوته لرسول الله ﷺ بكل ما أوتي. فلما أمكن الله منه، وتم القبض عليه مع يهود بني قريظة، وجيء به ليقتل، ورأى رسول الله ﷺ قال: (أما والله ما لُمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يَحْذِلَ الله يَحْذِلُ)^(٣).

ويقول الغزالي رحمه الله في بيان سبب عداوة اليهود للمسلمين: «إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين، وأن سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوي، وأنهم لا يكثرثون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة، لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شهواتهم الغالبة، وأثرتهم اللازمة، ومن ثم

(١) عن خبر سم الشاة أنظر: صحيح البخاري: الهبة/باب قبول هدية المشركين. سنن البيهقي: ٤٦/٨. المستدرک على الصحيحين: ٣/٢٤٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/١٤١، ١٤١. يرويه عن ابن إسحاق.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/٢٦٠. السيرة النبوية لابن كثير: ٣/٢٣٩. كلاهما عن ابن إسحاق.

شكك القرآن في قيمة الإيمان الذي يدّعيه القوم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُوبِ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١). وقال: والظاهر أن طوائف اليهود التي عاشت بين العرب كانت عصابات من المرتزقة، اتخذت الدين عنواناً لمطامع اقتصادية بعيدة، فلما ثوهم أن هذه المطامع مهددة بالزوال ظهر الكفر المخبوء، فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين^(٢).

(ب) المواجهة مع النصارى،

يتركز وجود النصارى في نجران جنوب جزيرة العرب، وهناك عدد من القبائل العربية المنتصرة في شمال الجزيرة في طرف الشام الجنوبي، ويسبب بعدهم عن موطن البعثة النبوية فلم يكن لهم احتكاك بالمسلمين في السنوات الأولى من البعثة. ولكن يجدر هنا ذكر موقف ملك الحبشة النصراني المتسامح مع المسلمين حين هاجروا إليه ومنحهم من عدله وكرمه. وحين عز جانب الإسلام بعد فتح خيبر وفتح مكة، بدأ الرسول ﷺ خطوة متقدمة لنشر الإسلام في ربوع الجزيرة وخارجها، فوجه عدداً من الكتب والرسائل إلى الملوك والرؤساء؛ يدعوهم للدخول في دين الله. - كما سبق ذكره - وهنا بدأ الاحتكاك مع النصارى.

نصارى نجران.

بعث المصطفى ﷺ كتاباً إلى أسقف نجران يدعو له للدخول في الإسلام. فاستشار صاحب نجران أصحابه، فأشاروا عليه أن يبعث وفدًا لمناقشة النبي محمد ﷺ ومعرفة خبره. فقدم الوفد والتقى بالرسول ﷺ وناقشوه في بعض المسائل وأجابهم عنها. وحين سألوه عن عيسى عليه السلام، قال: (ما عندي فيه شيء يومي هذا..). فلما أصبح من الغد جاءهم وقد أنزل الله عليه الإجابة عن سؤالهم، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى

(١) سورة البقرة، الآية [٩١].

(٢) فقه السيرة: ٢٦١، ٢٦٢.

عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ اكُنْ فَيَكُونُ^(١). إلا أنهم لم يعترفوا بتلك الحقيقة في شأن عيسى، فطلب الرسول ﷺ مباہلتهم كما جاء في تمام الآية السابقة، ولكنهم خافوا سوء عاقبتها عليهم فلم يستجيبوا له، وقبلوا أن يدفعوا الجزية، وطلبوا من الرسول ﷺ تخديدها، فكتب معهم إلى صاحب نجران كتاباً حدد فيه دفع جزية مقدارها ألفاً حلة في السنة^(٢). وعاد الوفد إلى نجران. وبعد مدة جاء أسقف نجران على رأس وفد إلى المدينة، وأقاموا مدة عند رسول الله ﷺ، وسمعوا بعض ما أنزل عليه من القرآن. فلما عادوا كتب لهم الرسول ﷺ كتاب أمان، ما أصلحوا ونصحوا^(٣). ودخل في الإسلام عدد من نصارى نجران قبل وفاته عليه السلام.

نصارى الشمال:

أما النصارى في الشمال - المتمثلون في دولة الروم والقبائل العربية المحالفة لهم - فبدأ الاحتكاك بهم عندما اعتدى بعضهم على أحد رُسلِ رسول الله ﷺ الحاملين لكتبه بالقتل، وتحرش بعضهم الآخر بسرايا رسول الله ﷺ التي بعثها لنشر الإسلام^(٤). ومن أهم الأحداث في مواجهة المسلمين مع نصارى الشمال الآتي:

معركة مؤتة: جمادى الأولى ٨ هـ:

إضافة إلى توجه الرسول ﷺ لنشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، جاء مقتل حامل كتاب رسول الله ﷺ الحارث الأزدي إلى ملك "بصرى" على يد شُرْحبيل بن

(١) سورة آل عمران، الآية [٥٩].

(٢) عن تفاصيل وفد نجران انظر: الطبقات الكبرى: ٣٥٧/١. البيهقي: دلائل النبوة: ٣٨٥/٥ - ٣٩١. السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ١٠٠ - ١٠٨. وورد في صحيح البخاري خبر المباہلة، كتاب المغازي: باب قصة أهل نجران.

(٣) البداية والنهاية: ٥٥/٥.

(٤) مثل قتل رسول رسول الله ﷺ الحارث بن عمير ؓ إلى صاحب بصرى (أسد الغابة لابن الأثير: ١/ ٣٤١) وقتلهم لأفراد السرية التي بعث على رأسها كعب بن عمير ؓ (السيرة النبوية لابن كثير: ٤٥٤/٣. عن الواقدي)

عمرو الغساني سببا مباشرا لمعركة مؤتة، فحين بلغ الخبر رسول الله ﷺ اشتد عليه الأمر وندب الناس للخروج إلى مؤتة حيث قتل الحارث (عليه السلام) ^(١). تسارع الصحابة (عليهم السلام) للخروج فاجتمع ثلاثة آلاف مجاهد، وعلى غير المعتاد عين الرسول ﷺ ثلاثة أمراء للجيش حيث قال: (عليكم زيد بن حارثة فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة) ^(٢). وودعهم الرسول ﷺ وأصحابه قائلا: (اغزوا بسم الله في سبيل الله).

واصل الجيش الإسلامي نحو الهدف الذي حدده لهم ﷺ بأن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقتلوه ^(٣). وفي "معان" من أرض الشام فاجأت الأخبار المسلمين بما لم يتوقعوه، حيث علموا أن هرقل جاء في مائة ألف من الروم، واجتمع له مائة ألف من القبائل العربية المنتصرة، وهذا ما دعا المسلمين للتشاور في الأمر، فرأى قوم أن يكتبوا لرسول الله ﷺ فإما أن يمددهم بقوة وإما أن يأمرهم بالقتال، ولكن عبد الله بن رواحة (عليه السلام) طرح رأيا حسم به الأمر حين قال: (يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة). فتشجع الناس وأجمعوا على رأيه، فانطلق بهم زيد بن حارثة (عليه السلام) ولقي بهم جموع النصارى في مؤتة.

أحداث المعركة:

في مؤتة دارت معركة بين طرفين غير متكافئين في العدد والعدة، ومع ذلك ضرب المسلمون أمثلة للبطولة نادرة تجلّى فيها أثر الإيمان حين يملأ النفوس وكيف

(١) عن هذا السبب انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣٤٣/٤. تاريخ مدينة دمشق: ٧/٢.

(٢) سنن النسائي الكبرى: ٦٩/٥. مسند الإمام أحمد: ٢٩٩/٥.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٢٨/٢.

يصنع الأعاجيب، وكان قادة المعركة خير مثال للبطولة والفداء، فتقدم أولهم زيد بن حارثة ﷺ فقاتل حتى استشهد، فحمل الراية بعده جعفر بن أبي طالب ﷺ فتقدم الصفوف كالأسد الهزبر، فقطعت يده اليمنى فحمل الراية بيده اليسرى فقطعت فضم الراية على صدره بعضديه حتى استشهد، فآخذ الراية عبدالله بن رواحة ﷺ فقاتل حتى استشهد، واشتد هجوم النصارى على المسلمين، فحمل الراية رجل من المسلمين ودعاهم لاختيار قائد لهم، فاختاروا خالد بن الوليد ﷺ، فتمكن - بمجنكته العسكرية - أن ينقذ المسلمين من هذا الموقف الحرج حين أحدث تغييرات في تنظيم الجيش فقد وأخر وجعل الميسرة ميمنة والعكس، فظن العدو أن هناك مدداً قدم للمسلمين فأضعف هذا في جانبهم فلم يحرصوا على مطاردة المسلمين في حركتهم الانسحابية وهم يقاتلون.

وعلى ما أصاب المسلمين في هذه المعركة إلا أنها تعد نصراً للمسلمين، فكان من المتوقع وموازين القوى بهذا الاختلاف أن يبيد النصارى معظم الجيش الإسلامى، ولكن لم تسفر المعركة إلا عن ثلاثة وعشرين شهيداً فحسب، ومن جوانب النصر أن المعركة كشفت للنصارى مدى ما يتمتع به المسلمون من شجاعة نادرة لم يعهدوها، فجعفر ﷺ وجد به أكثر من تسعين طعنة وضربة، كما انكسر في يد خالد بن الوليد ﷺ تسعة أسياف من شد ضربه في الأعداء، وقاتل المسلمين بهذه الروح سيجعل قتلى الأعداء - وإن لم تحصى - أضعافاً مضاعفة ولا شك.

وكان الرسول ﷺ قد أخبر المسلمين بما أوحى الله إليه بنتيجة المعركة ففي صحيح البخاري^(١): (عن أنس ﷺ) أن النبي ﷺ نعى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَبْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ فَقَالَ: (أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأَصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأَصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ بَنُ رَوَاحَةَ فَأَصِيبَ وَعَيْتَاهُ تُذْرِفَانِ حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ).

ولا شك أن المسلمين أفادوا دروسا وخبرات عظيمة من هذا اللقاء الأول مع الروم في مستقبل حركاتهم الجهادية معهم، حيث عرفوا علة قوتهم، وعددهم، وأساليب قتالهم وخططهم، وطبيعة الأرض التي يقاتلون عليها^(١).

سرية ذات السلاسل، جمادى الآخرة/٨هـ:

بعد أيام من عودة الجيش الإسلامي من مؤتة بعث الرسول ﷺ سرية قوامها ثلاثمائة مجاهد، بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهدف هذه السرية تأكيد قوة المسلمين في نظر القبائل النصرانية شمال الجزيرة التي شاركت مع الروم في مؤتة، وتأديب ما يمكن تأديبه من تلك القبائل، وقطع الطريق على أي منها أن تفكر في غزو المسلمين، خاصة وقد بلغ الرسول ﷺ أن جمعا من قضاة قد تجمعوا يريدون غزو أطراف المدينة.

وقد حققت تلك السرية هدفها، فحين انطلق عمرو بن العاص رضي الله عنه وبلغ ديار بعض تلك القبائل علم بتجمعهم فبعث يطلب مددا فأمده الرسول ﷺ بمائتي مجاهد، فسار عمرو بالناس حتى وطىء بلاد قبيلة "بلي" ودوخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد "عذرة" و"بلقين" ولقي في آخر ذلك جمعا فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا ثم قفل المسلمون راجعين^(٢).

غزوة تبوك: رجب/٩هـ:

بعد أن تم فتح مكة وإنهاء مقاومة قريش وكسر شوكة مشركي العرب في الجزيرة عاود الرسول ﷺ نشاطه لمواجهة نصارى الروم ومن حالفهم من القبائل العربية المنتصرة مواصلة لنشر رسالة الإسلام، وقد بدأ بالروم قبل الفرس لأنهم أقرب^(٣)، وقد عجل بخروج الرسول ﷺ إلى الروم ما بلغه أن ملك الروم قد جمع جموعا كبيرة من الروم وانضم إليه جموعا أخرى من القبائل العربية المنتصرة^(٤)، فندب الرسول

(١) العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٤٧٠/٢.

(٢) عن هذه السرية انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٣١/٢. السيرة النبوية لابن كثير: ٥١٦/٣.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير: ٣/٤.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٦٥/٢.

ﷺ الناس للخروج، وقد وافق وقت هذه الغزوة ظروفًا قاسية، فكان الحر شديدًا، والأرض مجدبة، ووافق وقت نضج الثمار بالمدينة، مما يصعب معه الخروج، لذا سميت هذه الغزوة غزوة العسرة وجيشها بجيش العسرة، ولهذا الظروف مع بعد المسافة وقوة العدو فقد بين الرسول ﷺ وجهة الجيش على غير عادته في غزواته، حيث كان يكتفى ولا يصرح ببيان الوجهة حتى تتم جميع الاستعدادات ويخرج للغزوة.

استجاب لدعوة الرسول ﷺ للخروج أعداد كبيرة من المسلمين من المدينة ومن خارجها بلغ عددها ثلاثين ألف مجاهد، ولكن كثيرًا منهم لا يجد الراحة والزاد الذي يمكنه من السير مع الجيش، لذا حث الرسول ﷺ الناس للتطوع في تجهيز الجيش ورغب في ذلك، فكان عما قال: (مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ)^(١)، فتسابق الصحابة - على ما بهم من ضيق الحال - للتطوع، وكان في مقدمتهم عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي تطوع بعدد من الجمال والمال ما جعل الرسول ﷺ يقول له: (ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا)^(٢) وأنفق عبدالرحمن بن عوف نصف ماله، وأما من لم يجد مالاً فيجود به أو راحلة تحمله فقد جاد بدموعه تعبيراً على ما في قلبه من حب للبذل والمشاركة، وهؤلاء ذكرهم الله فيمن ليس عليه حرج في تخلفه عن الخروج مع الجيش فقال تعالى عنهم: وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ^(٣). وفيهم قال الرسول ﷺ: (إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَاوِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ) قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قال: (وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمُ الْعُدَّةُ)^(٤).

(١) صحيح البخاري: باب فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) فضائل الصحابة للأحمد بن حنبل: ١ / ٥١٥. المستدرک علی الصحیحین للحاکم: ٣ / ١١٠.

(٣) سورة التوبة، الآية [٩٢].

(٤) صحيح البخاري: باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر.

ضرب الرسول ﷺ له معسكرا خارج المدينة في ثنية الوداع^(١) حتى يتم توافد من يريد الخروج معه، واستعمل ﷺ محمد بن مسلمة رضي الله عنه على المدينة، كما استخلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه على أهله.

وحيثما تكامل خروج الناس سار الرسول ﷺ بجيشه الكبير متغلبين على تلك الظروف القاسية، وكان يتعاقب على البعير الواحد الرجلان والثلاثة، وفي الطريق مر الجيش الإسلامي بـ "الحجر" وهي ديار ثمود^(٢) فاستقى الناس من بئرها، فأمرهم الرسول ﷺ أن يهريقوا الماء ولا يشربوه، ويعلفوا الإبل ما عجنوا منه، وأمرهم أن يستقوا من بئر الناقة^(٣). كما أمرهم أن لا يخرج أحد منهم الليلة أحد إلا ومعه صاحبه ففعل الناس ما أمرهم به، إلا رجلين من بني ساعدة، خرج أحدهما لحاجته فخنق على مذهبه^(٤) وخرج الآخر في طلب بعير له فاحتلمته الريح حتى طرحته بجبلي طيء، فأخبر الرسول ﷺ بذلك، فدعا للذي أصيب فشفي، وأما الآخر فأهدته طيء للرسول ﷺ^(٥). وحيثما تسارع بعض الناس للدخول على أهل الحجر وبلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: (لَا تُدْخِلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تُكُونُوا بِأَكْيُنٍ فَإِنْ لَمْ تُكُونُوا بِأَكْيُنٍ فَلَا تُدْخِلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ)^(٦).

سار الرسول ﷺ بجيشه متوجها للروم وحلفائها حتى بلغ تبوك ومكث هناك عشرين يوما حيث تصل أخبار جيشه للروم وحلفائها من العرب، فإن كان لهم قوة

(١) ثنية الوداع بفتح الواو وهو اسم من التوديع عند الرحيل وهي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة. (معجم البلدان ج ٢/ ص ٨٦)

(٢) هم قوم النبي صالح عليه السلام، وكانوا قد طلبوا منه معجزة فأخرج الله لهم ناقة من صخرة عظيمة، فقتلوها فأرسل الله عليهم صيحة قتلتهم. انظر الآيات: الأعراف [٧٣ - ٧٨]. وتسمى ديارهم الآن مدائن صالح.

(٣) انظر صحيح البخاري: كتاب التفسير/ باب قوله تعالى: ولئى ثمود أخاهم صالح.

(٤) أصيب وهو يقضي حاجته.

(٥) سيرة ابن هشام: ١٧٦/٤.

(٦) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

على مواجهة المسلمين تقدموا للمواجهة، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، فلعلهم علموا بكثرة المسلمين واستعدادهم للقتال فدخلهم الرعب فأثروا عدم المواجهة وتفرقوا.

وفي تبوك بعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه في سرية إلى دومة الجندل، فأسر ملكها النصراني "أكيدر الكندي" فلما قدم به إلى الرسول ﷺ أطلقه وصالحه على دفع الجزية. وهناك قدم ملك "أيلة" وأهدى للرسول ﷺ بغلة بيضاء، وصالح الرسول ﷺ على دفع الجزية فكتب له الرسول ﷺ كتاب أمان له ولأهل أيلة^(١)، كما صالح بعض القبائل العربية المنتصرة على مثل ذلك^(٢). ثم بعد ذلك قفل المسلمون مع رسولهم إلى المدينة بعد أن أكدت تلك الغزوة هيبتهم في قلوب النصارى وحلفائهم من القبائل العربية المنتصرة فلم يجرؤا على مواجهة المسلمين^(٣).

وقضات مع غزوة تبوك:

كشفت هذه الغزوة عن قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم، وبيّنت مدى تضحياتهم لدينهم وانقيادهم لنبيهم، حين سارعوا بالبذل والخروج مع رسول الله على الرغم من صعوبة الحال وقلة المال.

فضحت هذه الغزوة المنافقين وكشفت حقيقتهم، من خلال تحاذيهم عن الخروج، وتخذيل الناس عنه، وإعاقة غيرهم عن التطوع بشتى الوسائل، ومن خرج منهم - وهم قلة - كشفت الغزوة ما كان يدور بينهم من غمز ولمز للمؤمنين، وظهر حقدهم على رسول الله ﷺ بمحاولة بعضهم اغتياله^(٤).

كشفت هذه الغزوة عمق التربة الإيمانية للصحابة الكرام، وأثرها في المبادرة إلى التوبة حين يقع الخطأ، وتحمل عواقب الصدق عند الاعتذار من الخطأ، والرضوخ

(١) انظر كتاب الأمان: سيرة ابن هشام: ٤ / ١٨١، الطبقات الكبرى: ٢٨٩ / ١.

(٢) مثل مصالحة ملك أيلة: صحيح البخاري: كتاب الجزية/ باب إذا وادع الإمام: رقم ٣. سيرة ابن هشام: ٤ / ١٨٠.

(٣) عن تفاصيل غزوة تبوك انظر: سيرة ابن هشام: ٤ / ١٦٩. الطبقات الكبرى: ٢ / ١٦٥. سيرة ابن كثير: ٣ / ٤.

(٤) سبق ذكر هذه المحاولة في موضوع أساليب المنافقين في مواجهة الدعوة.

لأي عتاب وتحمل أي عقاب دنيوي يترتب على هذا الصديق للفوز برضا الله وثواب الآخرة. ظهر هذا في صدق الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ^(١)، وبقوا في المدينة مع المنافقين أو من حبسهم العذر، فجاء رجوع الرسول ﷺ وجاء المتخلفون من المنافقين لإبداء أعذارهم الكاذبة صدق هؤلاء الثلاثة وذلك حين قال كعب بن الأشرف (يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه لقط أعطيت جدلاً ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني لبوشكن الله يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقيبي الله، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك) وكذلك صدق صاحبيه، فأرجأ الرسول قبول اعتذارهم حتى ينزل فيهم أمر من الله، وأمر الناس أن لا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى أقرب الناس إليهم، حتى ضاقت بهم الأرض وضافت عليهم أنفسهم، وظلوا على هذه الحال خمسين يوماً حتى أنزل الله توبتهم^(٢).

هذه الغزوة رد على الشيعة الرافضة الذين يطعنون في صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم، حيث يزعم هؤلاء - قاتلهم الله - أن معظم الصحابة ارتدوا إلا نفرأ يسيراً منهم. فقد خرج في هذه الغزوة ثلاثون ألفاً من الصحابة، وقد حكم الله بتوبته عليهم جميعاً حين قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣) ومن تاب الله عليه ورضي عنه هل يجزئ عاقل أن يطعن فيه.

(١) هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

(٢) انظر قصة هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا في صحيح البخاري: باب حديث كعب بن مالك.

وصحيح مسلم: باب حديث كعب بن مالك وصاحبيه.

(٣) سورة التوبة، الآية [١١٧].

تجهيز جيش أسامة رضي الله عنه:

تأكيداً للتوجه نحو غزو نصارى الشمال لم تكن غزوة تبوك آخر نشاط للرسول ﷺ في هذا المجال، بل قد عزم قبيل وفاته على توجيه جيش جديد، وبدأ في إعداده وجعل على قيادته أسامة بن زيد رضي الله عنه، وقال له: (سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش) ولكنه رضي الله عنه مرض ثم توفي قبل مغادرة الجيش المدينة. فلما تولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة أنفذه، سيراً على نهج الرسول ﷺ^(١).

(١) عن تأمير أسامة على الجيش انظر: صحيح البخاري ومسلم: مناقب زيد بن حارثة. وعن تجهيز الجيش الطبقات الكبرى: ١٨٩/٢.

ثالثاً: الدولة الإسلامية ومواجهة المنافقين

النفاق: هو إظهار الخير وإسراز الشر، وهو نوعان:
[١] نفاق اعتقادي: وهو إظهار الإسلام وإسراز الكفر، وهذا يخلد صاحبه في النار.
[٢] ونفاق عملي: وهو من أكبر الذنوب^(١). وهو من يتصف ببعض صفات المنافقين، ومن يخالف قوله عمله.

ظهور النفاق:

لم يظهر النفاق إلا بعد الهجرة، لأن المسلمين في مكة ضعفاء، والقوة كانت للمشركين، فلا يحتاج من أراد البقاء على الشرك إلى مجاملة المسلمين، ولكن حين تمت الهجرة إلى المدينة، وقوي جانب المسلمين، وأصبحت لهم الغلبة، وجد من أراد البقاء على كفره - ممن لا يفكرون إلا في مصالحهم الخاصة، ولا ينظرون إلا إلى حياتهم الدنيوية وهم عن الآخرة هم غافلون - وجد هؤلاء أنهم سيكونون شواذاً في المجتمع، وأن مراكزهم ومصالحهم التجارية، والاجتماعية معرضة للخطر، لذا أثر هذا الصنف العيش بشخصية منفصمة ذات وجهين، هي البقاء في دواخلهم على كفرهم، وادعاء الإسلام ظاهرياً؛ ولم يكن هؤلاء واضحين في بادئ الأمر، ولكن الأحداث كشفت عن كثير من أشخاصهم، وجلت كثيراً من صفاتهم.

أساليب المنافقين في مقاومة الإسلام:

على أن المنافقين لم يحملوا السلاح لمحاربة المسلمين، إلا أنهم من أخطر أعدائهم؛ ذلك لأنهم يعيشون بينهم، ويعرفون أسرارهم، ويتظاهرون بمحبتهم. وقد سلكوا عدة أساليب لمحاربة الإسلام والمسلمين، نذكر أهمها فيما يلي:

[١] محاولة تضريق كلمة المسلمين بعد أن جمعهم الله على الدين:

يعتقد المنافقون أن وجود المهاجرين من المسلمين في المدينة كان على حسابهم، لذا كانوا يحاولون إيقار صدور الأنصار على المهاجرين، كلما وجدوا لذلك فرصة، مثلاً

(١) تفسير ابن كثير: ٧٢ / ١.

حدث في غزوة بني المصطلق عندما حدث شجار بين أنصاري ومهاجري، فاستغل كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الفرصة، فأخذ يعاتب الأنصار على إيوائهم المهاجرين، وطلب منهم عدم الإنفاق عليهم حتى ينفضوا عن الرسول ﷺ. فأنزل الله فيه: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ۚ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١).

[٢] التحذيل عن الجهاد بالقول والعمل:

يدرك المنافقون أن انتصارات المسلمين على المشركين أو اليهود تؤدي إلى زيادة قوة المسلمين، وتثبيت أقدامهم في المدينة، لذا حاولوا إشاعة روح التخاذل عن الجهاد، وإضعاف معنويات المسلمين، تارة بالقول - كما كانوا يقولون في غزوة تبوك لا تنفروا في الحر، وفي أحد حين قتل من قتل من المسلمين قالوا كما قال الله عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لَا خَافِيَنَا وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۚ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢) فدل على أنهم كانوا يخذلون عن الجهاد، وحين كان الرسول ﷺ يجهز لغزوة تبوك، ويبحث أصحابه على الخروج معه، كان المنافقون يشبطون الهمم ويقولون كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٣). وتارة بالعمل - فمواقفهم كثيرة منها انسحابهم من جيش المسلمين في غزوة أحد حين خرجوا معهم وعددهم ثلاثمائة ليحدثوا بذلك خللاً في صفوف المسلمين ويضعفوا من معنوياتهم.

[٣] موالاة أعداء الإسلام ومظاهرتهم في حربهم للمسلمين:

أوضح الله صلة المنافقين بأعداء الإسلام، والاشتراك معهم للتخطيط في الخفاء لحرب الإسلام والمسلمين. فمن ذلك قوله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا

(١) سورة المنافقون، الآية [٧].

(٢) سورة آل عمران، الآية [١٦٨].

(٣) سورة التوبة، الآية [٨١].

ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ^(١) والمراد بشياطينهم هنا رؤسائهم من أحبار اليهود والمشركين والمنافقين^(٢). ومن ذلك بناؤهم مسجداً أظهروا أنهم أقاموه للصلاة شفقة على الضعيف والمريض، وليلة المطيرة الشتوية، ولكنهم في الحقيقة بنوه لكي يجتمعوا فيه بعيداً عن أنظار المسلمين، فيقولون ما شاؤوا، ويلتقون فيه برسل أعداء المسلمين، ويرسمون فيه خططهم. وكانوا قد بنوه قبيل خروج الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك، وطلبوا منه أن يصلي فيه ليكون في ذلك حجة لهم وإقراراً منه لهم. فوعدهم بالصلاة فيه إذا عاد من تبوك، ولكن بعد عودته وقبل وصوله المدينة يوم أنزل الله عليه آيات، كشف فيها نوايا المنافقين من بناء هذا المسجد، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْآدًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ^(٣)﴾. فأمر رسول الله ﷺ من يأتي مسجد الضرار فيهدمه ويحرقه.^(٤)

[٤] السخرية والاستهزاء بالمسلمين:

ومن أساليبهم السخرية بالمسلمين، والاستهزاء بالله ورسوله والمؤمنين، وذلك كثير. ففي أثناء حفر الخندق بشر رسول الله ﷺ المؤمنين بأن الله سيفتح لهم بلاد الشام وفارس واليمن، فلما قدمت جموع الأحزاب المدينة قالوا كما قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا^(٥)﴾، ووفي غزوة تبوك وحين رأوا المؤمنين يتسابقون للإتفاق في سبيل الله - حين أحجموا هم - يسلطون ألسنتهم بالسخرية، فمن رأوه أنفق كثيراً اتهموه بالرياء، ومن أنفق قليلاً - وهو غاية ما يستطيع - قالوا: إن الله غني عن صدقة هذا. فأنزل الله فيهم:

(١) سورة البقرة، الآية [١٤].

(٢) تفسير ابن كثير: ٧٦/١.

(٣) سورة التوبة، الآية [١٠٧].

(٤) سيرة ابن هشام: ١٨٥/٤.

(٥) سورة الأحزاب، الآية [١٢].

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

[ه] ترويح الإشاعات الكاذبة في المجتمع المسلم:

ومن أساليب المنافقين نشر الإشاعات الكاذبة، خاصة تلك الإشاعة التي تعمل عملها في تفريق الصفوف، وتنافر القلوب. ومن أبشع تلك الإشاعات ما أشاعوه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين سنحت لهم الفرصة، عند قدوم الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق. فحدث أن عائشة رضي الله عنها سقط قرط لها فذهبت تبحث عنه، والرسول ﷺ وأصحابه قد تجهزوا للمسير، فتأخرت، فحمل الرجال هودجها^(٢) وهم يظنون أنها فيه - وكانت خفيفة الوزن - فلما جاءت وجدت القوم قد رحلوا فجلست في مكانها فأخذها النوم، فمر بها الصحابي صفوان بن المعطل رضي الله عنه - وكان يتعقب الجيش - فطلب منها أن تركب بعيره، وأمسك بزمام البعير ماشياً على قدميه، فلما قدم المدينة أظهر المنافقون - وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول - حقدهم، وفاح كفرهم، فاتهموا عائشة رضي الله عنها بفعل الفاحشة مع صفوان رضي الله عنه، وأشاعوا ذلك وروجوه بين الناس، وتلقف ذلك نفرٌ قليلٌ من المتسرعين بالاستهتهم يرددونه دون وعي لخطورة الأمر، وعاش البيت النبوي شهراً من المعاناة حتى أنزل الله عشر آيات^(٣) بين فيها عظم ذنب أولئك الذين آذوا رسول الله ﷺ بمثل هذه الفرية الدنيئة، وعاتب المؤمنين الذين وقعوا في فخ المنافقين بترديد مقولتهم الدنيئة، وبرأ ساحة أم المؤمنين رضي الله عنها وبشرها بأن ذلك الاتهام ليس شراً بل هو خير. وأول هذه الآيات قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وجاء في عتاب المتسرعين المتخذعين بمقولة المنافقين قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ

(١) سورة التوبة، الآية [٧٩].

(٢) الهودج هو مكان مستور يوضع على ظهر البعير تركب فيه النساء.

(٣) سورة النور الآيات [١١-٢٠].

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِنَّ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ، كما أثنى الله على موقف الحسين الظن بأهل المؤمنين، وهو يمثل موقف عامة الصحابة رضي الله عنهم، فحكى الله موقف بعض أولئك الذين حين سمعوا الإشاعة قالوا: سبحانك هذا بهتان عظيم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾^(١). فانظر كيف حاول المنافقون التنفيس عن قلوبهم الوغرة^(٢) بإشغال المجتمع المسلم بمثل هذه الفرية الدنية.

[٦] محاولة اغتيال الرسول ﷺ:

في غزوة تبوك خرج مجموعة من المنافقين مع المسلمين لا من أجل المشاركة في الجهاد مع المسلمين، ولكن لأغراض أخرى منها: التخذيل والسخرية، وطلب الغنيمة، ومنها تحين الفرص لإيذاء المسلمين، ففي العودة مر الجيش بعقبة مرتفعة ضيقة في طرف وادي متسع، فأمر الرسول ﷺ الجيش أن يسلكوا بطن الوادي، ونهى أن يتبعه أحدا في العقبة لخطورتها، وجعل زمام ناقته مع عمار بن ياسر رضي الله عنه، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه يسوقها، لكن اثني عشر منافقا تأخروا، ثم لحقوا بالرسول ﷺ متلثمين في ظلمة الليل ومسرعين لتفترق ناقه الرسول ﷺ به وتطرحه من أعلى العقبة، ولكنه رضي الله عنه سمع صوتهم فأمر حذيفة بالتصدي لهم، فعلموا أن مؤامرتهم قد انكشفت، فأسرعوا واختلطوا بالجيش حتى لا يعرفهم أحد. ولكن الله أطلع نبيه عليهم فلم يخبر أحدا بأسمائهم غير حذيفة رضي الله عنه. وبقي ذلك سرا عنده^(٣).

أسلوب الإسلام في مواجهة المنافقين:

لما كان واقع المنافقين في حربهم للإسلام معقداً غير صريح، فهم يتظاهرون بالإسلام وقلوبهم ممتلئة بالكفر، والحقد على الإسلام، والغش لأهله، ويعلنون أنهم مع المؤمنين

(١) انظر هذه الآية والآيات التي قبلها في حديث الإفك في سورة النور الآيات: [١١-٢٠].

(٢) الوغرة: المثلثة غيظاً.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي: ٩/ ٣٢. السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٣٤، ٣٥. وورد في صحيح مسلم

خبر معرفة حذيفة بهؤلاء المنافقين: كتاب صفات المنافقين.

ويحلفون على ذلك الأيمان المغلظة، وإن كانوا في الحقيقة في صف أعدائهم، وهم يقدمون الأعذار بالسستهم عن أخطائهم المتكررة، وقلوبهم مصرة على مقارفة تلك الأخطاء. فالحرب بهذه الحال مع المنافقين ليست مكشوفة في ميدان الأرض، للسيوف فيها مجال، أو للشجاعة فيها أثر، وإنما هي حرب خفية في ميدان النفوس، وأدغال القلوب. لذا كفى الله المؤمنين - آنذاك - خوض الحرب معهم، وتولى بنفسه توجيه الضربات لهم، فكشف في آيات كثيرة ما تخفيه قلوبهم، وفضح نواياهم، وأعلن ما يسرونه في مجالسهم الخاصة، كما بين صفاتهم للمؤمنين ليحذروهم في كل حين، وهذا سر كون الآيات التي تحدثت عنهم أكثر بكثير من الآيات التي تحدثت عن المشركين، لأن مواقف المشركين واضحة معلنة، أما مواقف المنافقين وأساليبهم فهي خفية ملتوية، تحتاج إلى مزيد بيان وتوضيح. ففي أول سورة "البقرة" كانت الآيات التي يئنت وصف المنافقين أكثر من الآيات التي يئنت وصف المؤمنين أو الكافرين، وفي سورة آل عمران تفصيل وبيان لما تخفيه نفوسهم، وفضح لمواقفهم المخزية في غزوة أحد. وجاءت معظم آيات سورة التوبة كالصواعق المرسلة على المنافقين؛ فما تركت شيئاً مما تكنه نفوسهم من حقدٍ إلا ذكرته، وفصلت في بيان أحوالهم وصفاتهم، لذا أطلق على هذه السورة عدة أسماء مرتبطة بموضوع فضحها للمنافقين^(١). ونزلت سورة خاصة بهم سميت سورة: "المنافقون". وقد كانت تلك الحرب التي شنها الله عليهم في القرآن أعظم عليهم من وقع السيوف، حتى أصبحت نفوسهم في قلق، وقلوبهم في هلع، كل يوم يتوقعون آية تنزل بفضيحة جديدة لهم، كما قال تعالى عنهم: **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنِّي اللَّهُ خَارِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ**^(٢).

أما رسول الله ﷺ فإنه كان يتعامل معهم بحذر، تنفيذاً لأمر الله له بقوله: **﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفِكُونَ﴾**^(٣) وكان يعاملهم بسياسة النفس الطويل،

(١) من هذه الأسماء "الفاضحة"؛ لأنها فضحت المنافقين (فتح القدير) للشوكاني: ٢ / ٣٣٢.

(٢) سورة التوبة، الآية [٦٤].

(٣) سورة المنافقون، الآية [٤].

فيقبل أعدائهم الكاذبة حين يبدونها له، ويصبر على تصرفاتهم المشينة. وقد آتت هذه السياسة ثمارها، ففي غزوة بني المصطلق التي حاول المنافقون فيها إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار، قال زعيمهم عبدالله بن أبي بن سلول: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». يعني أنه سيخرج رسول الله ﷺ من المدينة. فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: «دعني أضرب عنق هذا الخبيث. فقال ﷺ: (دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)^(١). فلما اقتربوا من المدينة جاء ابن عبد الله بن أبي واسمه مثل أبيه عبد الله، وهو مسلم، فقال للرسول ﷺ: (إنه بلغني أنك تريد قتل أبي لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، وإنني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار). فقال له ﷺ: (بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا). فكان بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: (كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتني يوم قلت لي أقتله لأرعدت له أنف)^(٢) لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته). فقال عمر رضي الله عنه: (قد علمت والله لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري)^(٣).

وقد بقيت تلك الآيات القرآنية الخالدة التي نزلت في النفاق والمنافقين، والأحاديث التي بين رسول الله ﷺ فيها صفات المنافقين، منارات للمسلمين في كل عصر، توضح لهم صفات المنافقين، وتبين أحوالهم الخفية، وأساليبهم الماكرة؛ لأن النفاق داء لا ينقطع، وأصحابه هم أصحابه في كل حين، لا يختلفون باختلاف الزمن.

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب ما ينهى من دعوى الجاهلية رقم ٨.

(٢) أنف جمع أنف.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٦، ٢٣٧. عن ابن إسحاق بسند منقطع. ورواه الطبراني والبيهقي كما في مجمع الزوائد للهيتمي: ٩/ ٣١٨. وقال الهيتمي رجاله ثقة. وانظر: مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٤٣٦.

الأحداث الأخيرة في حياة الرسول ﷺ:

الوفود إلى رسول الله ﷺ:

بعد انتهاء مقاومة قريش ودخولها في الإسلام بفتح مكة، وبعد القضاء على تحالف قبائل هوازن في غزوة حنين، زالت أكبر عقبة أمام انتشار الإسلام في ربوع جزيرة العرب، وبين قبائلها. فقد كانت القبائل الأخرى تتربص ما يؤول إليه الصراع بين النبي ﷺ وقريش، فلما انتهت مقاومة قريش ودخلت في الإسلام بادرت القبائل الأخرى بالدخول في الإسلام^(١). وقد أنزل الله في ذلك سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. ففي العام التاسع من الهجرة - العام التالي لفتح مكة - وبعد عودته ﷺ من تبوك، تدفقت الوفود من أنحاء الجزيرة العربية إلى المدينة، حتى سمي هذا العام: عام الوفود^(٢). وقد بلغ عدد تلك الوفود أكثر من ستين وفدًا^(٣). وأوصلها بعض الباحثين إلى مائة وفد^(٤). وشملت تلك الوفود قبائل العرب في جزيرة العرب قاطبة^(٥). ويختلف عدد أفراد تلك الوفود من وفد إلى آخر، فحين بلغ بعضها التسعة والعشرة، نجد أن بعضها بلغ الأربعمئة رجل^(٦).

شهدت المدينة حركة كثيفة لاستقبال وفود القبائل التي جاءت لتعلن إسلامها وخضوعها للدولة الإسلام، وقد أعطى الرسول ﷺ هذه الوفود أهمية كبرى، ومن أهم مظاهر هذا الاهتمام:

- (١) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الفتح: حديث ٤٣٠٢ في الفتح الرباني: ٨ / ٢٢.
- (٢) سيرة ابن هشام: ٤ / ٢٢١، ٢٢٢.
- (٣) أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢ / ٥٤١.
- (٤) كما ذكرهم الشامي في سيرته، انظر: مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٦٣٩.
- (٥) للوقوف على تفاصيل أخبار تلك الوفود انظر: سيرة ابن هشام: ٤ / ٢٢١ وما بعدها. الطبقات الكبرى لابن سعد: ١ / ٢٩١ - ٢٥٩.
- (٦) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١ / ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٥.

* أناب عنه أبا بكر رضي الله عنه لقيادة المسلمين لأداء فريضة الحج في هذا العام؛ لانشغاله باستقبال تلك الوفود، التي لم تنقطع طوال العام^(١).

* حسن استقباله لتلك الوفود، وإكرامهم، وتأمين مقر سكنهم وضيافتهم، إما في المسجد، أو في بعض منازل أصحابه، وإجزال العطايا تأليفاً لقلوبهم.

* استماعه لخطبائهم وشعرائهم، وتلطفه في الإجابة على أسئلتهم، وحلمه على ما يصدر من بعضهم من غلظة وجفاء في المعاملة، كعادة الأعراب.

وكان الرسول ﷺ يرسل - في الغالب - مع الوفود عند عودتها بعض أصحابه لتعليم أفراد تلك القبائل القرآن الكريم، وتعاليم الدين الإسلامي. كما كان يضع على كل قبيلة وناحية أميراً يتوب عنه في الحكم، وجباية الصدقات.

وبهذا نجد أن الجزيرة العربية - ولأول مرة - تتوحد سياسياً تحت لواء قيادة واحدة، وهذه نتيجة لتوحد قلوبهم على الدين الإسلامي، بعبادة الله وحده ونبذ ما سواه.

حجة الوداع:

في السنة العاشرة من الهجرة عقد ﷺ العزم على أداء فريضة الحج، فأعلن ذلك لأصحابه في المدينة، وللمسلمين عامة، وحرصاً من المسلمين على حضور تلك الفريضة مع رسول الله ﷺ أخذوا يستعدون لمرافقته، وقدمت أعداد كبيرة من المسلمين إلى المدينة لذلك، ومنهم من لحق بالرسول ﷺ في الطريق، ومنهم من وافاه بمكة، وكانوا من الكثرة حتى ما يستطيع الرسول ﷺ تبليغهم كلامه إلا عن طريق مبلغين، يرفعون أصواتهم ليسمعوا الناس كلامه^(٢). وقد بلغ عددهم أربعين ألفاً^(٣).

وتسمى حجة النبي ﷺ هذه بحجة الوداع؛ لأنه ودع أصحابه بقوله: (لعلي لا أحج بعد عامي هذا)^(٤) كما تسمى حجة البلاغ؛ لأنه ﷺ بلغ فيها أصحابه أحكام الحج، وأوصاهم بوصايا عديدة، وأمرهم أن يبلغوا عنه ما سمعوا.

(١) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة: ٢٦٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤ / ٢٧٦.

(٣) قدرهم بذلك أبو زرعة. العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢ / ٥٤٩.

(٤) سنن الترمذي: كتاب الحج / ٥٥. مسند الإمام أحمد ٥ / ٢٦٢.

مبادئ ووصايا في حجة الوداع:

خطب رسول الله ﷺ خلال حجة الوداع عدة خطب، بعضها في الطريق، وبعضها في المشاعر خلال أدائه مناسك الحج. ومن أهم المبادئ والوصايا التي وردت في تلك الخطب:

- [١] بيان مناسك الحج، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام الخمسة.
- [٢] تأكيد حرمة سفك الدماء، وسلب الأموال، وهتك الأعراض.
- [٣] تأكيد الأخوة الإسلامية، وبيان حقوق المسلم على أخيه المسلم.
- [٤] التأكيد على الاعتصام بالكتاب والسنة، وتحريم الكذب عليه ﷺ.
- [٥] التحذير من التفرق والنزاع بين المسلمين، وتحذيرهم من اتباع سبل الشيطان المؤدية إلى ذلك.
- [٦] تحريم التعامل بالربا والظلم بين الناس.
- [٧] التأكيد على الالتزام بأركان الإسلام وشرائعه.
- [٨] وصية الرجال بالإحسان إلى النساء، والرفق بهن، ومراعاة حقوقهن، وبيان حق الزوج على زوجته.
- [٩] الأمر بطاعة ولاية الأمر، والسمع لهم في غير معصية الله.
- [١٠] الوصية بالأرقاء^(١).

وبتمام أعمال حجة الوداع، وما بينه الرسول ﷺ فيها من توجيهات ووصايا، يكون الدين الإسلامي قد اكتملت تعاليم شريعته، وأتم الله نعمته على المسلمين بتمامه، فأنزل الله في يوم عرفة آخر آية نزلت في القرآن، يُذكر عباده فيها بهذه النعمة، وهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

(١) عن خطب رسول الله ﷺ في الحج انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب حجة الوداع.

حديث: ٤٤٠٣، ٤٤٠٦. صحيح مسلم: ٢/ ٨٨٩-٨٩٠. مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٦٨٣.

(٢) سورة المائدة، الآية [٣].

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

وفاة الرسول ﷺ وشماله ومعجزاته

وفيه:

- مرض الرسول ﷺ ووفاته.
- شمائل الرسول ﷺ.
- معجزات الرسول ﷺ ودلائل نبوته.

1. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -\frac{1}{2} \log 2 = -\frac{1}{2} \times 0.3010 = -0.1505$

2. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

3. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

4. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

5. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

6. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

7. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

8. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

9. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

10. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

11. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

12. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

13. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

14. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

15. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

16. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

17. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

18. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

19. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

20. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

21. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

22. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

23. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

24. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

25. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2} = -0.1505$

مرض الرسول ﷺ ووفاته :

بنهاية حجة الوداع كانت شرائع الإسلام قد كملت، ورسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ قد تمت، لذا فإن مهمة الحبيب المصطفى ﷺ كمبلغ عن ربه لعباده قد انتهت بتمام الدين، وبقي تطبيق تلك التعاليم التي بلغها عن ربه، وهذه يقوم هو بها أو غيره. وحيث إن الرسل عليهم السلام كغيرهم من البشر يموتون: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾^(١)، فقد أشعر الله نبيه بقرب أجله وهو في حجة الوداع، وذلك حين أنزل الله سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(٢)، فعلم الرسول ﷺ بقرب أجله، وهذا واضح في خطبه في الحج وبعده.

وبعد عودته ﷺ من الحج بثلاثة أشهر ألم به المرض حتى اشتد به، فاستأذن نساءه أن يبقى في بيت عائشة رضي الله عنها فأذن له، وأمر أبا بكر ﷺ ليصلي بالناس. وفي اليوم الأخير أحس بتحسن ونشاط فأطل على المسلمين في المسجد وهم يصلون؛ فكادوا يخرجون من صلاتهم فرحاً بذلك، وتأخر أبو بكر ظناً منه أن الرسول ﷺ سيصلي بالناس، ولكنه أشار إليهم أن أتموا صلاتكم، وعاد إلى فراشه^(٣).

وبعد مرور عشرة أيام على مرضه ﷺ توفي ورأسه في حجر عائشة رضي الله عنها، وذلك في يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشر للهجرة، وعمره ثلاث وستون سنة.

وقع خبر وفاته ﷺ على المسلمين كالصاعقة، إذ لم يهن عليهم فراق الحبيب ﷺ. ومن شدة الهول والصدمة لم يصدق بعضهم بموته، وصار المسلمون في حيرة بين

(١) سورة الأنبياء، الآية [٣٤].

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير/ باب تفسير سورة إذا جاء نصر الله. تفسير ابن كثير: ٥٢٩/٨.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب مرض النبي ووفاته: حديث رقم: ٤٤٤٨ في فتح الباري.

مصدق ومكذب ومدهوش، وكان أبو بكر ﷺ غائباً في بعض نواحي المدينة، فلما قدم دخل على الرسول ﷺ وهو مغطى فكشف الغطاء وقبله وبكى، وقال: (بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها). ثم خرج إلى الناس وهم ما بين مصدق ومكذب فقال: (أما بعد، فمن كان منكم يعبد حمداً فإن حمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت). وتلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْتَفِعُونَ بِالَّذِينَ مَاتُوا قُلْ أَوْفَىٰ أَتَقْلَبُونَ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(١)، فكان الناس ما سمعوا بهذه الآية من قبل، وتلقفها الناس يرددونها^(٢). وهذا موقف من مواقف تميز أبي بكر، وقوة إيمانه ﷺ.

تجهيز الرسول ودفنه:

وفي اليوم التالي لموته - يوم الثلاثاء - غُسل رسول الله ﷺ وكُفن في حجرة عائشة ﷺ، ثم دخل عليه الناس أرسالاً أرسالاً، أي مجموعة مجموعة، يدخلون من باب فيصلون عليه ثم يخرجون من الباب الآخر لا يؤمهم أحد. فلما فرغوا من الصلاة عليه اختلفوا في مكان دفنه، فقال أبو بكر ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه). وأمرهم أن يدفنوه في موضع فراشه^(٣)، فدُفن ﷺ في حجرة أم المؤمنين عائشة ﷺ^(٤).

(١) سورة آل عمران، الآية [١٤٤].

(٢) عن موت الرسول ﷺ وموقف عمر وأبي بكر انظر: صحيح البخاري: كتاب الجنائز/ باب الدخول على الميت.

(٣) سنن الترمذي: ٣/ ٣٣٨. وصححه الألباني. وورد هذا الحديث بصيغة أخرى (ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض) في مسند أبي يعلى: ١/ ٣١. وسنن البيهقي: ٤/ ٣٠.

(٤) عن تجهيز الرسول والصلاة عليه ودفنه انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ٣٤١. السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٣٢٩ - ٥٣٣.

أثر وفاة الرسول ﷺ:

لقد أحدث موت النبي ﷺ صدمة موجعة لأصحابه، وعلت وجوههم الكآبة، وأطبق الحزن على أهل المدينة خاصة، والمسلمين في أرجاء الجزيرة عامة. لقد كان حزنهم عليه عظيماً، كيف لا وقد كان وجوده بينهم عظيماً، وأثره في حياتهم كبيراً، فأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وجمع به قلوبهم بعد الفرقة والشتات، كما فقدوا بفقدته نزول الوحي الذي كان يصلهم بربهم. فقيما بعد زار أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أم أمين حاضنة رسول الله ﷺ، فلما انتهيا إليها بكتا. فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: (ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء). فهيجتهما على البكاء فجعلتا يبكيان معها^(١).

لقد أحس المسلمون بموته بالوحشة تملأ نفوسهم، والظلمة تغشى الكون من حولهم. ويا الله ما أبعد البون بين هذا اليوم الذي مات فيه الحبيب ﷺ، وذلك اليوم الذي دخل فيه المدينة مهاجراً. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا)^(٢).

أمّا غير المسلمين من المنافقين، واليهود، والنصارى، والأعراب، فقد فرحوا بموت الرسول ﷺ، فارتد كثير من الأعراب الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وتطلّع النصارى واليهود لضعف المسلمين وسقوط دولتهم الناشئة، وأصبح المسلمون في خطر من أعدائهم، ولكن الله هيأ لهم أبا بكر رضي الله عنه، فشد من أزر المسلمين، وحارب بهم أعداء الإسلام في كل صوب، حتى أعاد للإسلام هيئته وقوته في أرجاء الجزيرة. فرضي الله عنه وأرضاه.

(١) صحيح مسلم: ٤ / ١٩٠٧ حديث رقم ٢٤٥٤.

(٢) سنن الترمذي: ٥ / ٥٨٨. وقال هذا حديث صحيح غريب. ومسنند أحمد: ٣ / ٢٢١. وصححه

الحاكم في المستدرک: ٣ / ٥٩.

شمائل الرسول ﷺ:

البحث في شمائل المصطفى ﷺ بحر لا ساحل له، فهي شاملة كاملة شمول الإسلام وكماله، فما من خلق حسن جاء في القرآن الكريم أو حث عليه الرسول ﷺ إلا وهو متجسد فيه. تقول زوجته عائشة رضي الله عنها - وهي من أقرب الناس إليه : (كان خلقه القرآن)^(١). وقد أثنى عليه الله في القرآن بعظيم خلقه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢). وكفى بشهادة الله له شهادة.

من أخلاق النبي ﷺ وشمائله:

من العسير أن نتحدث بإلمام عن أخلاق النبي ﷺ وشمائله في مثل هذا الكتاب، ولكن نذكر طرفاً منها في جوانب ثلاثة: فمنها ما يتعلق بتعامله مع ربه، ومنها ما يتعلق بتعامله مع المؤمنين، ومنها ما يتعلق بتعامله مع أعدائه.

أولاً: تعامله مع ربه:

لما كان ﷺ أعلم الناس بربه تعامل معه بمقتضى هذا العلم، فكان أعبد الناس له، وأتقاهم له، وأقربهم منه، وأكثرهم حباً له، وأشدّهم شوقاً لما عنده، وأعظمهم ثقة به. ويظهر كل ذلك جلياً في سلوكه وتعامله مع ربه. ففي عبادته لا يدانيه أحد. سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن تطوع رسول الله ﷺ في الصلاة، فقال: (إنكم لا تطيقونه)^(٣). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته، ولا نائماً إلا رأيته^(٤). وهو في ذكر دائم لربه في جميع أحواله وبكل جوارحه،

(١) صحيح مسلم: كتاب المسافرين: باب جامع صلاة الليل ومن نام عنها أو مرض. مسند الإمام

أحمد: ٢١٦/٦. تفسير ابن كثير: ٨/ ٢١٤.

(٢) سورة القلم، الآية [٤].

(٣) سنن الترمذي: ٢/ ٤٩٣. مسند الإمام أحمد: ١/ ١٦٠. السنن الكبرى للبيهقي: ١/ ١٧٨.

(٤) صحيح البخاري: كتاب التهجد باب قيام الليل رقم ١١. ٢/ ٤٦.

فما من عمل أو حال إلا شرع له ذكراً يُقال فيه، وحث أمته عليه^(١). ففي المجلس الواحد يُعد له مائة استغفار^(٢)، بل إن قلبه في حال ذكر دائم لله لا ينام. قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتنام قبل الوتر؟ فقال: (يا عائشة إن عينيّ ثنمان ولا ينام قلبي)^(٣). ويتجلى ذكره لله وصلته به كذلك حين يشتد به الأمر، فكثيراً ما يبتهل ويتضرع بالدعاء في معاركة طالباً من الله النصر، ليقينه أنه صانع النصر.

وهو في هذه العبادة المتواصلة لله لا يقوم بها على أنها عمل إلزامي يجب أن يتخفف منه بأسرع وقت، كلا؛ بل إنه يمارسها وهو يشعر حين أدائها بسعادة غامرة، ولذة مائعة. فهو القائل: (وجعلت قرّة عيني في الصلاة)^(٤). كما يؤديها طلباً لرضى ربه وعرفاناً بالجميل له. فحين أخبره الله بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر بقوله تعالى: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٥) ما زاده ذلك إلا اجتهداً ودأباً في العبادة. فكان يصلي في الليل حتى تنفطر قدماه، ف قيل له: تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (أفلا أكون عبداً شكوراً)^(٦).

ويمكن أن نوجز أبرز مظاهر تعامله ﷺ مع ربه فيما يلي:

* حبه والتفاني في طلب مرضاته.

* إجلاله وتعظيم حرّماته.

* الثقة به واليقين بما عنده.

(١) انظر زاد المعاد لابن قيم: فصل في هديه ﷺ في الذكر: ٢ / ٣٦٥ - ٤٦٧.

(٢) سنن الترمذي: ٥ / ٤٩٤. وقال حسن غريب صحيح، وصححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري: كتاب التهجد باب ٦١. ٢ / ٤٨.

(٤) سنن النسائي: النساء / ١.

(٥) سورة الفتح، الآية [٢].

(٦) صحيح البخاري: كتاب التهجد باب: قيام النبي / ٦.

* ثناؤه عليه وشكره على نعمه.

* اللجوء إليه عند الشدائد والحن.

* خشيته والخوف من عقابه.

وهذه العبادة الدؤوبة، وهذا التعامل المتصل بالله، كان خير معين له على النهوض بأعباء الرسالة وتبعاتها الجسام، وكذا يجب أن يكون أتباعه في صلتهم وتعاملهم بربهم، ليكون ذلك خير معين لهم في قيامهم بواجباتهم في حياتهم، وتحقيقاً لهم الفوز برضوان الله وجناته في آخرتهم.

ثانياً: تعامله مع المؤمنين:

(أ) تعامله مع أهله وخاصته:

من الممكن أن يتصنع المرء ويتكلف في رسم صورة حسنة لتعامله مع قوم يخالطهم وقتاً دون آخر، وفي بعض أحواله دون سائرها، ولكن من الصعب أن ينجح في ذلك مع من يعيش معهم سائر وقته، وفي جميع أحواله الخاصة والعامة. لذا فإن أخلاق المرء ومعاملته تظهر على حقيقتها في بيته ومع ذويه.

ولقد كان رسول الله ﷺ أسوة حسنة، ومثالاً عالياً في رسم صورة فريدة في تعامل المرء مع أهله وذويه. عاش ﷺ مع إحدى عشرة زوجة، وعدد من الإماء والموالي، وكان له أربع بنات، ولهن عدد من الأولاد. فكيف تعامل مع هؤلاء كزوج كريم، وأب رحيم، وسيد رؤوف.

أما تعامله مع زوجاته فقد كان تعامله معهن ﷺ من منطلق قوله: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)^(١)، وقوله: (خيركم خياركم لنسائهم)^(٢). تعامل ﷺ مع زوجاته - على الرغم من كثرتهم وانتشار الغيرة بينهن - بلطف وحلم وصبر وتقدير واحترام، مما يدل على معرفته بطبيعة المرأة حق المعرفة، فكان يقدر عواطف الغيرة

(١) سنن الترمذي: ٥/ ٧٠٩، ح/ ٣٨٩٥. حديث صحيح صححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي: ٣/ ٤٦٦، ح/ ١١٦٢. وقال حديث حسن صحيح. مسند أحمد: ٤٧٢/ ٢.

الراسخة في تكوين المرأة، فتعامل معها بواقعية. فكان يوماً عند عائشة رضي الله عنها، فأرسلت له زوجته صفية رضي الله عنها قصعة فيها طعام، فغضبت عائشة، فضربت بيدها القصعة حتى سقطت وانكسرت وتناثر الطعام. فقال ﷺ: (غارت أمكم). وقام وضم القصعة المكسورة بعضها إلى بعض، وجمع الطعام وجعله فيها، وقال: (كلوا)، وحبس الخادم. فلما فرغوا من الأكل جاء بقصعة سليمة من عند عائشة، وأعطاهما الخادم، وقال: (إناء بإناء)^(١).

ولما كان قد تزوج عائشة وهي طفلة في التاسعة من عمرها، كان يراعي هذا السن، فيسمح لها بممارسة اللعب والتسلية مع صديقاتها. فكان إذا دخل خجلن منه ففررن، فيأخذهن ويردهن إليها ليلعن معها^(٢). وإذا دخل ومعها بنات من لعب، استتر بثوبه منها حتى لا تستحي منه وتمتنع عن اللعب^(٣).

وهذه البساطة واللطافة مع نسائه لم يكن ليخفيها عن أصحابه. ففي سفر مع أصحابه ومعه زوجته صفية كان يضع لها ركبته لتضع رجلها عليها حتى تركب بعيرها^(٤). وفي سفر آخر قال لأصحابه: (تقدموا)، ثم تأخر وعائشة وتسابق معها فسبقته، ولما كبرت وثقل وزنها أجرى سباقاً آخر فسبقها، وقال: (هذه بتلك)^(٥).

وكان ﷺ يستشير زوجاته ويأخذ بمشورتهن، ففي صلح الحديبية وبعد أن أمر أصحابه أن ينحروا الهدي ويحلقوا رؤوسهم، ليتحللوا من الإحرام، فلم يفعل

(١) صحيح البخاري: كتاب المظالم. باب ٣٤. ولم يصرح بذكر أسماء زوجات النبي. سنن الترمذي: ٦٤٠/٣. ح/ ١٣٥٩. وفيه تصريح بذكر عائشة وصفية. سنن أبي داود: ٣/ ٢٩٧. ح/ ٣٥٦٧.

(٢) انظر صحيح البخاري: كتاب الأدب باب ٨١. مسند الإمام أحمد: ٦/ ١٦٦.

(٣) الطبقات لابن سعد: ٦٥/٧. وقال أكرم العمري بإسناد صحيح: السيرة النبوية الصحيحة: ٦٤٩/٢.

(٤) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة خيبر / ٣٨.

(٥) سنن أبي داود: ٢٩/٣. ح/ ٢٥٧٨. السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ٣٠٤. ح/ ٨٩٤٣.

ذلك أحد من الصحابة؛ لأنه شق عليهم أن يعودوا دون عمرة، فأمرهم الثانية والثالثة فلم يفعل أحد، فدخل ﷺ على زوجته أم سلمة فذكر لها ذلك، فأشارت عليه أن يخرج ولا يكلم أحداً فينحر ويأمر حالقه ليحلق رأسه، فلما رآه أصحابه نحروا وحلقوا^(١).

وكان الرسول ﷺ متواضعاً في بيته، يشارك في القيام ببعض مهن أهله^(٢)، فيخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويخدم نفسه^(٣).

أما تعامله مع الأولاد والأطفال من حوله؛ فكان لهم أباً رحيماً، ومربياً حكيماً، يسعى لإدخال السرور إلى نفوسهم، ويتبسط معهم بما يناسب عقولهم وأعمارهم. فكان يحملهم ويقبلهم، ويحادثهم. فروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ أخذ بيدي حفيده الحسن أو الحسين، وقدميه على قدمي رسول الله، وأمره أن يرقى عليه حتى وضع قدميه على صدر رسول الله ﷺ، فأمره أن يفتح فاه ثم قبله^(٤). وكان يحمل أمانة بنت ابنته زينب عليها السلام في الصلاة، فإذا ركع وضعها، وإذا قام رفعها^(٥). وصلى بأصحابه مرة فجاء الحسين بن علي عليه السلام فركب على عنقه وهو ساجد، فأطال السجود، فسأله أصحابه عن طول سجوده فقال: (إن ابني قد ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته)^(٦).

(١) انظر القصة في صحيح البخاري: كتاب الشروط/باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب ٤٠.

(٣) فتح الباري: ٤٦١/١٠. وذكر حديثاً في هذا وقال أخرجه الإمام أحمد وابن سعد وصححه وابن حبان.

(٤) رواه البخاري في الأدب، والطبراني. انظر: محمد نور سويد: منهج التربية النبوية للطفل: ١٨٢.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب رحمة الولد/١٨.

(٦) أحمد: ٩١/٦. وقال العراقي في الإحياء: ٢١٨/٢. رواه النسائي ورواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين.

ولم يكن هذا التعامل خاص بأولاده ﷺ وأحفاده، بل كان عاماً لأطفال المسلمين. فكثيراً ما يتوقف للأطفال إذا مر بهم بمازحهم، ويمسح على رؤوسهم ووجوههم، ويلطفهم، ويسألهم^(١).

أما تعامله مع خدمه ومواليه فكان تعاملًا لطيفاً رقيقاً. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (خدمته عشر سنين، فما قال لي أف قط، وما قال لي شيء صنعت لم صنعت؟ ولا شيء تركته لم تركته؟)^(٢) وكان يأخذ ابن موله أسامة بن زيد ويضعه على فخذه والحسن بن علي رضي الله عنهما على فخذه الأخرى، ثم يضمهما ويقول: (اللهم ارحمهما فإني أرحمهما)^(٣). وحين علم أن أبا ذر رضي الله عنه نال من مولاه عنده وعيَّره بأمه قال له ﷺ: (إنك امرؤ فيك جاهلية)، وقال: (هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم. فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه)^(٤). وبلغ من شدة اهتمامه بأمر الأرقاء أن وصَّى بحسن معاملتهم وهو على فراش الموت^(٥).

وفي قصة مولى رسول الله ﷺ زيد بن حارثة خير دليل على حسن تعامله ﷺ مع الخدم. وذلك أن زيدا سُرِق من أمه وهو ابن ثمان سنين، من بلاد قبيلة طي في شمال جزيرة العرب، وبيع عبداً، فاشتراه حكيم بن حزام من الشام في تجارة له، وقدم به مكة، وأعطاه عمته خديجة بنت خويلد، فوهبته لزوجها محمد ﷺ، الذي أضافه على زيد من كريم الأخلاق وحسن التعامل ما جعله يحبه حباً أنساه أهله وذويه. لكن والد زيد ظل مهموماً لا يلد له عيش أو يهنأ بنوم منذ فقد ابنه. ومما قاله مصوراً وله حزنه عليه:

(١) للوقوف على مواقفه ﷺ في هذا الباب انظر: محمد نور سويد: منهج التربية النبوية للطفل: ١٧٩ وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب: حسن الخلق/ ٣٩. ورواه صحيح مسلم والترمذي.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب: ٢٢.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب: ٤٤.

(٥) مسند أحمد: ١١٧/٣. سنن أبي داود: ٣٥٩/٥. كتاب الأدب ح/ ٣١٥٦. وللوقوف على مزيد

من تعامله ﷺ مع الخدم والمماليك انظر: مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٧٢٣، ٧٢٤.

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
فو الله ما أدري وإنني لسائلٌ
أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل
وتعرض ذكره إذا غربها أفل
إلى أن قال:

سأعمل نص العيس في الأرض جاهداً
حياتي أو تأتي علي منيبي
ولا أسام التطواف أو تسام الإبل
فكل امرئ فائر وإن غره الأمل
وبعد كل هذا الوجد والحزن من حارثة على ولده؛ تأتبه الأخبار بأن ابنه في مكة،
فيسارع - وأخوه كعب - إلى مكة، ويذهبان لمحمد ﷺ لفداء الفتى زيد. وبعد توسلهم
بأن يقبل محمد ﷺ فداء ابنهم زيد يفاجئهم بعرض لم يدر بخلد هما، حيث يقول:
(أدعوه وأخبره، فإن اختاركما فذاك، وإن اختارني فو الله ما أنا بالذي اختار على من
اختارني أحداً). فقالا: قد زدت على النصف. فدعاه نبي الهدى ﷺ، فلما جاء قال:
(من هذان؟) قال: هذا أبي حارثة بن شراحيل، وهذا عمي: كعب بن شراحيل،
فقال: (قد خيرتك؛ إن شئت ذهبت معهما، وإن شئت أقمت معي). فقال: بل أقيم
معك. فقال له أبوه: يا زيد، أختار العبودية على أهلك وأمك وبلدك وقومك؟! قال:
إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، وما أنا بالذي أفارقه أبداً^(١).

(ب) تعامله مع عامة أصحابه،

بلغت معاملته ﷺ لأصحابه الغاية في حسن المعاملة، وتنوعت في جوانبها حتى
استوعبت جميع الصفات الحسنة، والأخلاق العالية، التي لا يبلغها إلا سيد المرسلين
عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وفيما يلي أورد جملة يسيرة منها:

*** التواضع ولين الجانب:**

فكانت الأمة من إماء أهل المدينة تأخذ بيده فتنتلق به حيث شاءت^(٢). وبلغ من
تبسطه مع أصحابه ما جعل النساء يجرون على سؤاله حقوقهن، ورفع أصواتهن

(١) السهيلي: الروض الأنف: ١/ ٢٨٧.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب الكبر / ٦١.

عنده، بما لا يجرؤون فيه على غيره. فدخل مرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النبي ﷺ وعنده عدد من النساء يسألنه، وقد علت أصواتهن، فلما سمعن صوت عمر انقطعت أصواتهن فجأة، فلما دخل عمر ضحك النبي ﷺ، فسأله عمر عن سر ضحكك، فقال: (عجبت من هؤلاء اللاتي كنّ عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب) فقال عمر: (أنت أحق أن يهبن) ...^(١) وفي يوم من أعظم أيام النصر والظهور لرسول الله ﷺ على أعدائه، يوم فتح مكة جاءه رجل فأخذته الرعدة من الهابة فقال له النبي ﷺ: (هون عليك فإنما أنا بن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)^(٢).

* زيارتهم في منازلهم ومواسمتهم:

فمن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ زار أهل بيت من الأنصار، فطعم عندهم طعاماً، فلما أراد الخروج أمر بمكان من البيت فنضح له على بساط، فصلى عليه ودعا لهم^(٣). وتكرر زياراته ﷺ لبيوت أصحابه، وليس هذا مجال بسط الحديث فيها.

* قبول هداياهم والاستجابة لدعواتهم:

فكان يقبل هداياهم، ويستجيب لدعواتهم، مهما كانت متواضعة. فقد قال ﷺ: (لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت)^(٤).

* عيادة مريضهم ومواساة مصابهم:

كان ﷺ يأمر بعيادة المريض، ويحث أصحابه عليها، وما يسمع بمرض أحد من أصحابه إلا زاره ودعا له^(٥). وقد جاء زواجه لعدد من نسائه مواساة لهن، بعد فقد

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب باب التبسم / ٦٨.

(٢) رواه الحاكم في المستدرک: کتاب المغازی، ٥٠/٣. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب الزيارة / ٦٥.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الهبة باب القليل من الهبة / ٢.

(٥) صحيح البخاري: كتاب المرضى: الأبواب: ٤، ٥، ١٠، ١٣، ١٥.

أزواجهن، ومراعاة منه لأولادهن، كزواجه بأم سلمة رضي الله عنها حين مات زوجها وخلف معها أربعة من الأولاد^(١). وكذا زواجه من سودة بنت زمعة حين توفي زوجها وخاف عليها من بطش أخوها وقومها الذين هم على الكفر^(٢).

* التلطف بالمخطئين منهم وعدم تعنيفهم:

كان ﷺ حريصاً على مشاعر أصحابه، رفيقاً بمن يخطئ منهم. فإذا بلغه عن أحدهم شيء لم يقل له قلت كذا وكذا، ولكن يقول: (ما بال أقوام يقولون كذا وكذا)^(٣). وحين جاء أعرابي وبال في المسجد جاهلاً ثار عليه الناس ليقعوا فيه، فقال لهم رسول الله ﷺ: (دعوه، وأهريقوا على بوله ذنباً من ماء - أو مسجلاً من ماء - فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين)^(٤).

* سخاؤه لهم وعدم رد حاجة من سألته منهم:

فقد جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وأهدته بردة، فقبلها، وكان محتاجاً إليها. فراها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فاكسنيها. فقال: (نعم). فلما قام ﷺ عاتبه أصحابه فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعته. فقال: رجوتُ بركتها حين لبسها النبي ﷺ، لعلني أكفن فيها^(٥).

هذه جملة يسيرة من أخلاقه ﷺ في تعامله مع أصحابه، ولا يتسع المجال مهما امتد لذكر بقيتها، فقد كان يلقاهاهم بالبشاشة ويتبسم في وجوههم، ويصبر على غلظة طباع بعضهم، ويوقر كبيرهم، ويرحم صغيرهم، ويساعد محتاجهم ﷺ.

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨ / ٨٧-٨٩. وانظر مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٧٠٢.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨ / ٥٢-٥٣.

(٣) سنن أبي داود: ٥ / ١٤٣ ج/٤٧٨٨. وانظر: صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب من لم يواجه الناس بالعتاب / ٧٢.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب يسروا ولا تعسروا / ٨٠.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب ٣٩.

ثالثاً: تعامله مع أعدائه:

لم يكن الرسول ﷺ يضمّر عداوة لأحد، ولكن أعداءه يبادلونه العداوة من طرف واحد. فقد جاء لهداية البشر جميعاً، وسعى بكل الطرق والوسائل لإنقاذهم من الظلمات إلى النور، ومن الغواية إلى الهداية، لقد كان يسعد كلما أنقذ نفساً من شقائها إلى سعادتها، ومن ضلالها إلى هداها، وهذا يفسر حلمه ﷺ بقومه على شدة إيذائهم له، وصبره على أذاهم طمعاً في هدايتهم. وفيما يلي جملة من أخلاقه ﷺ في تعامله مع أعدائه.

حرصه على هدايتهم:

كان المصطفى ﷺ شديد الحرص على هداية أعدائه. فكم كان يحزن ويتألم حين يرى إعراضهم عن دعوته، فهو يحرص على هدايتهم أشد من حرصهم على إيذائه. وقد ذكر الله في كتابه تلك الخصلة السامية في تعامله مع أعدائه، في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) أي مهلك نفسك بحزنك عليهم لبعدهم عن الإيمان^(٣).

دعاؤه لهم بالهداية والبعد عن الغواية:

كثيراً ما كان ﷺ يدعو ربه بأن يهدي المعرضين عن الدين، المعادين له، أفراداً وجماعات. وقد شرح الله صدور كثير من المشركين للإسلام بسبب تلك الدعوات الصادقة، كدعائه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب)^(٤). وجاء إسلام قبيلة دوس نتيجة لدعائه لهم؛ فحين أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي عاد إلى قومه "دوس" يدعوهم إلى الإسلام، فلما امتنعوا رجع إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يدعو عليهم، لكنه أبى ودعا لهم بقوله:

(١) سورة الكهف، الآية [٦].

(٢) سورة الشعراء، الآية [٣].

(٣) تفسير ابن كثير: ٥ / ١٣٢ / ٦ / ١٤٤.

(٤) مسند أحمد: ١ / ٩٥. سنن الترمذي: ٥ / ١٧٩، مناقب عمر بن الخطاب.

(اللهم اهد دوساً) وقال: (ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم) فعاد فدعاهم فاسلموا^(١). وحين استعصى على المسلمين فتح الطائف ودعا الرسول ﷺ أصحابه إلى فك الحصار عن ثقيف، طلب منه بعض المسلمين أن يدعوا عليهم، فلم يدعوا عليهم بل دعا لهم بقوله: (اللهم اهد ثقيفاً)^(٢)، فلم تلبث ثقيف حتى جاءت تعلن إسلامها.

العضو عنهم عند المقدرة وعدم مبادلتهم الإيذاء:

حين اشتد أذى قريش عليه- بعد وفاة عمه وزوجته- خرج إلى الطائف، فلقي من أهلها أشد مما لقي من أهل مكة. وفي طريق عودته من الطائف جاءه جبريل عليه السلام وقال: (إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم) فناداه ملك الجبال: (يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيين)^(٣)، فقال ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً)^(٤) وقد سبق ذكر عفوهِ عن قريش بعد فتح مكة وقوله لهم: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)^(٥). وعفا عن غورث بن الحارث على الرغم من محاولته قتل الرسول ﷺ، فلما عاد إلى قومه قال: (جئتكم من عند خير الناس)^(٦).

(١) قصة إسلام الطفيل ودعوته قومه في أسد الغابة لابن الأثير: ٤ / ٥٤. عن ابن إسحاق. وفي صحيح البخاري: خبر دعوة الرسول ونص الدعاء ﴿اللهم اهد دوساً وائت بهم﴾ المغازي: باب قصة دوس / ٧٥.

(٢) سنن الترمذي: مناقب ثقيف. وقال صحيح غريب.

(٣) جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله.

(٤) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق: باب ٧ / ح ٣٢٣١ في الفتح ٦ / ٣١٢، ٣١٣. صحيح مسلم: ٣ / ١٤٢٠ ح ١٧٩٥.

(٥) أبو عبيد: كتاب الأموال: ١ / ٢٠٢. سيرة ابن هشام: ٤ / ٣٢. وفيها اذهبوا فأنتم الطلقاء. وانظر تخريج طرق ورود هذه القصة عند مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٥٦٩، وقال بعد ذكر الروايات والحديث يتقوى بهذه الطرق.

(٦) صحيح البخاري: المغازي: باب غزوة ذات الرقاع ٣١. صحيح مسلم: الصلاة: باب صلاة الخوف.

احترام عهودهم ومواثيقهم:

لم يشهد التاريخ أن نبي الله محمداً ﷺ أبرم عهداً مع أحد غيره ثم نقضه، حتى مع أعدائه. ويشهد لذلك أعداؤه أنفسهم. فحين قدم اليهودي حيي بن أخطب على كعب بن أسد زعيم يهود بني قريظة يريد على نقض عهده مع النبي ﷺ والانضمام إلى الأحزاب؛ كان مما قاله كعب لحبي أول الأمر: (إني عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً)^(١).

حصار القتال معهم في أضيق نطاق:

يختلف قتال الرسول ﷺ لأعدائه عن أي قتال على وجه الأرض؛ فلم يكن يريد بالقتال إبادة خصمه، وإنما اضطر لقتالهم حين سدوا أمامه كل الطرق لقبول دعوته، ولم يخلوا بينه وبين الناس ليبليغهم رسالة ربه، التي أمر بتبليغها لكافة الناس. لذا كان لابد من قتال هؤلاء حتى لا يفتنوا الناس عن الدخول في دين الله، كما أمره الله بذلك في قوله: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢). ولكن قتاله لهم كان محصوراً في ميدان القتال فحسب، وعلى من عائد وجعل من نفسه محارباً لله ورسوله. فكان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أو صاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: (اغزو باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزو ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.... فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم)^(٣). فأين هذه الأخلاق الحربية النبوية من

(١) سيرة ابن هشام: ٢٣٦/٣. السيرة النبوية لابن كثير: ١٩٨/٣. كلاهما عن ابن

إسحاق البيهقي: دلائل النبوة: ٤٠٠/٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية [٢٩].

(٣) صحيح مسلم: ٣/١٣٥٧ ح/ ١٧٣١. سنن الترمذي: ٤/١٦٢. مسند الإمام أحمد: ٥/

٣٥٨. والمثلثة قطع أجزاء من جسم الإنسان وهو حي.

ما يفعله أعداء الإسلام في حروبهم الجائرة للمسلمين، فمع أن باعث هذه الحروب التسلط ونهب الثروات، فإنها لا تتحرج أن تقتل الصغير والكبير وتهدم البيوت على أصحابها والمساجد على عمارها.

الرفق بأسراهم:

في عدد من معارك الرسول ﷺ مع أعدائه وقع بعضهم في أسرهم، فتعامل معهم تعاملًا يوضح سمو الإسلام وعظمته، ففي معركة بدر التي كانت أول لقاء حاسم مع مشركي قريش وقع منهم سبعون رجلاً في أسر المسلمين، وعلى الرغم مما فعله هؤلاء بالمسلمين فقد تعامل معهم المبعوث رحمة للعالمين ﷺ بالرفق واللين فبعد أن فرقهم على أصحابه قال: (استوصوا بهم خيراً)^(١) وقد نفذ المسلمون هذه التوصية النبوية بدقة فأحسنوا في تعاملهم للأسرى، فكانوا يؤثرونهم على أنفسهم بأحسن الطعام، ويحملونهم على دوابهم بينما هم يمشون^(٢). ويحكي أحد أسرى بدر عجبه من هذا التعامل فيقول: كنت في الأسارى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ: (استوصوا بالأسارى خيراً) وكنت في نفر من الأنصار فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم أكلوا التمر وأطعموني الخبز بوصية رسول الله ﷺ إياهم^(٣). وقد كان لهذا التعامل الحسن أثر في نفوس الأسرى لذا فقد أسلم معظمهم، ومن ذلك قصة أسر ثمامة بن أثال وإسلامه^(٤). فاین هذا التعامل النبوي السامي مع الأسرى من تعامل الدول التي

(١) السيرة النبوية لابن كثير: ٤٧٥/٢.

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر: ٩/٦٧.

(٣) الطبراني: المعجم الكبير: ٢٢/٣٩٣. بإسناد حسن. مجمع الزوائد: ٨٦/٦.

(٤) ثمامة بن أثال الحنفي زعيم بني حنيفة، وقد أسرته فرقة من المسلمين، فأوثقه الرسول ﷺ في المسجد، وأمر بالإحسان إليه، وكان يمر به ويقول ما عندك يا ثمامة فيقول: (عندي يا محمد خير إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكرك وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت) فلما كان اليوم الثالث وسأله الرسول ﷺ وأجابه بمثل ما سبق في اليوم الأول والثاني، قال ﷺ: (أطلقوا وثاقه)، فانطلق ثمامة إلى أقرب بستان فاغتسل وعاد إلى المسجد ليعلم إسلامه. انظر القصة بتمامها في صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب وفد بني حنيفة. وصحيح مسلم: كتاب الجهاد/ باب ربط الأسير.

تدعي التحضر مع أسراها بأبشع صور الذل والوحشية. وما أسرى "قواننامو" ومعتقلي سجن "أبو غريب" عنا ببعيد.

أداء حقوق من يعايش منهم:

هناك عدد من غير المسلمين عاشوا مع المسلمين، ممن لهم عهد وذمة، أو من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر والعداوة للمسلمين، فكان ﷺ يؤدي ما لهؤلاء من حقوق وواجبات، كحق الجوار إن كانوا جيراناً، أو حق القرابة إن كانوا أقرباء. فقد كان بجواره ﷺ يهودي وله غلام يخدم النبي ﷺ، فلما مرض الغلام وفقده ﷺ زاره ودعاه إلى الإسلام فأسلم.^(١)

مكافأة أهل المعروف منهم والثناء عليهم:

من سمو خلقه ﷺ اعترافه بفضل من يسدي له معروفاً من المشركين، وحرصه على مكافأتهم على معروفهم حين تسنح له الفرصة، فممن قدم للرسول ﷺ معروفاً المطعم بن عدي حين سعى في نقض صحيفة المقاطعة العامة، وإجارتته^(٢) للرسول ﷺ حين أراد دخول مكة بعد عودته من الطائف. وقد كان ﷺ يقدر هذه المواقف للمطعم بن عدي، فقد كان على استعداد لإطلاق جميع أسرى بدر "السبعين" لو كان المطعم حياً وسأله ذلك^(٣). وفي معركة بدر كان المصطفى ﷺ يقول لأصحابه: (ومن لقي منكم أبا البختري بن هشام بن أسد فلا يقتله)^(٤) وكان أبو البختري ممن كف أذاه عن الرسول ﷺ، ومن سعى في نقض صحيفة المقاطعة.

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز: باب إذا أسلم الصبي / ٧٩ ح / ١٣٥٦. سنن أبي داود: ٣ /

١٨٥. مسند أحمد: ٣ / ١٧٥.

(٢) أي قام بحمايته من أي اعتداء.

(٣) انظر صحيح البخاري: كتاب المغازي / باب شهود الملائكة بدر.

(٤) الفسوي: المعرفة والتاريخ: تحقيق منصور خليل. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٤١٩ هـ: ١ /

٢٧٩. سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٦٩.

بل كان ﷺ يثني خيرا على زوج ابنته زينب المشرك الربيع بن العاص، لحسن خلقه ورفضه طلب قريش أن يطلق زوجته زينب نكاية منهم في الرسول ﷺ^(١).
وتلك الأخلاق والشماثل غيض من فيض، وقطرة من بحر، من شمائل المصطفى ﷺ، التي لا يمكن حصرها، ولكن نذكر بأن هناك من الأخلاق الذاتية المتعلقة بحياته الخاصة، كزهده في الحياة، والبعد عن مظاهر النعيم، ونظافته، وحبه للجميل من اللباس والطيب، وطريقته في الأكل، واللباس، والنوم، والمشي، وشجاعته، وغيرها من الشمائل والأخلاق، التي لا يمكن استيفائها في مثل هذا المقام، وهي مبسطة في كتب الشمائل والسنن.

(١) المصدر السابق: ٢٩٦/٣. الطبراني: المعجم الكبير: ٢/ ٤٢٨. وكان ذلك قبل الأمر بتحريم زواج المسلمة من المشرك.

معجزات الرسول ﷺ ودلائل نبوته :

المعجزة هي: الأمر الخارق للعادة والمخالف للمألوف في سنن الكون. ^(١) وما أرسل الله نبياً إلا وجعل له معجزة، أو عدداً من المعجزات، تدل على أنه نبي مرسل من الله تعالى إلى خلقه. وفي هذا المبحث نذكر أهم معجزات نبي الرحمة محمد ﷺ ودلائل نبوته.

المعجزة الخالدة «القرآن الكريم»:

تعريف القرآن بإيجاز هو: كلام الله المنزل على النبي محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته ^(٢). وهو المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ، وجاءت هذه المعجزة موازية لعظم رسالته وشموها لجميع الجن والإنس، صلاحها لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، فلما كانت طبيعة رسالة الأنبياء من قبل محدودة بأقوام معينين، أو بزمان ومكان محددين كانت معجزاتهم محدودة تبعاً لذلك. وجاءت معجزة المصطفى ﷺ في القرآن لتبقى خالدة، يلمسها ويحس بها كل إنسان إلى يوم القيامة. ومما يؤكد ذلك قوله ﷺ: (ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ^(٣) ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) ^(٤). وكثرة أتباعه تأتي من استمرار معجزته تلك، فيكثر من يؤمن به ^(٥). ويأتي إعجاز القرآن الكريم من وجوه عدة أهمها:

[١] الإعجاز اللغوي: ويظهر في فصاحة القرآن وبلاغته، وجمال تركيبه وأساليبه. ويأتي وجه الإعجاز هنا حيث إنه نزل في مجتمع العرب؛ وهم أرباب الفصاحة،

(١) عدنان محمد زرزور: علوم القرآن: ٢١٨.

(٢) المصدر السابق: ٤٦.

(٣) أي العلامات والدلائل.

(٤) صحيح البخاري: ٩٦ / ٦. كتاب فضائل القرآن: باب كيفية نزول الوحي. صحيح مسلم:

كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ.

(٥) قد بسط ابن كثير رحمه الله القول حول هذا الحديث في البداية والنهاية: ٦٩ / ٦.

المفتنون بأَساليب الكلام وأسرار البلاغة، وبلغوا في ذلك شأنًا لم يبلغه غيرهم. ومع هذا تحداهم الله بأن يأتوا بمثل القرآن، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور، بل تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، فعجزوا عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٥١﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٥٢﴾ (١). وتحدي العرب بالقرآن هنا فيه وجه شبه بمعجزات الأنبياء السابقين، حيث جاءت معجزاتهم تتناسب مع واقع أقوامهم. (فكانت عصى موسى عليه السلام في قوم قد برعوا في السحر، وجاء إحياء عيسى عليه السلام للموتى وإبراء الأكمه والأبرص، في قوم برعوا في الطب) (٢).

[٢] وهو معجز من حيث إنه اشتمل على كم هائل من الأحكام، والأوامر والنواهي، والآداب، والأخبار، ومع ذلك جاء متناسقاً لا اختلاف فيه ولا تعارض: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٣).

[٣] تأثيره النافذ إلى أعماق القلوب: فكيف تأثر به من سمعه، حتى ولو لم يكن ممن يؤمن به. وكما أناس دخلوا في الإسلام لمجرد سماعهم لتلاوة آيات منه. وقد كان المشركون في عهد النبي ﷺ يدركون هذا الأثر، لذا كانوا يحاولون منع الناس من سماعه، والتشويش على من يريد سماعه، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾^(٤) وكانوا إذا قدم مكة أحد خوفوه من محمد ﷺ فقالوا: إنه ساحر يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجه. وقالوا له: فلا تكلمه ولا تسمع منه^(٥). ومع ذلك فلا يملكون قلوبهم من أن

(١) سورة البقرة، الآية [٢٣ - ٢٤].

(۲) عدنان محمد زررور: علوم القرآن : ۲۱۹.

(٣) سورة النساء، الآية [٨٢].

(٤) سورة فصلت، الآية [٢٦].

(٥) ابن الأثير: أسد الغاية: ٣/ ٥٤.

تأثر بسماع القرآن حين تناح لأحدهم الفرصة. فبعد معركة بدر قدم جبير بن مطعم المدينة - قبل أن يسلم - في شأن أسرى بدر. ويقول عن نفسه: فدخلت المسجد ورسول الله ﷺ يصلي المغرب، فقرأ بالطور، فكأنما صدع قلبي حين سمعت القرآن^(١). وكثير من أسلم في الماضي والحاضر كان السبب الرئيس لإسلامهم استماعهم آيات من القرآن الكريم، جذبتهم للدين الإسلامي جذباً. والعجيب أن نفاذ أثر القرآن في القلوب يتعدى حتى إلى من لا يعرفون اللغة العربية.

[٤] إخباره عن الماضين: فقد جاء فيه ذكر الأمم الماضية، وأخبارهم مع رسلهم، وما حدث لهم. مع أن محمداً أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يكن صاحب أسفار يطلع من خلالها على بعض تلك الأخبار. ففي مجمل ذكر قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمَهُمُ اللَّهُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(٢) ولولا ذكر القرآن لكثير من تلك الأخبار الماضية لم يعلم بها أحد. وجاء ذكر بعضها في الكتب السابقة فصَدَقَها القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

[٥] إخباره عن أحداث في المستقبل: ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن أمور في المستقبل، وقعت كما أخبر، وهي كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَن كَانَ مُشْرِكًا فِي الدِّينِ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٤) في بضع سنين. ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٥) يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ

(١) مسند الإمام أحمد: ٨٣/٤. وفي صحيح البخاري قال: (كاد فلي يطيّر) كتاب التفسير: باب تفسير سورة الطور.

(٢) سورة آل عمران، الآية [٤٤].

(٣) سورة يوسف، الآية [١١١].

الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^(١) فقد نزلت هذه الآيات والفرس قاهرين للروم، وكان هذا يسر كفار قريش لأنهم وثنيون مثل الفرس، والمسلمون يرجون انتصار الروم لأنهم أهل كتاب. فلم تمض سبع سنوات حتى انتصر الروم على الفرس وهزموهم، ففرح المسلمون لذلك، وأسلم أناس بسبب ذلك^(٢).

[٦] اشتماله على أسرار علمية وسنن كونية لم تعرف إلا بعد نزوله بزمان طويل: وقد بين الله ذلك في قوله تعالى: ﴿سَتُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣) وهذا بابه واسع، فلا يزال التطور العلمي يكشف لنا عن أسرار ذلك الإعجاز العلمي للقرآن، في مجال النفس البشرية، أو مجال هذا الكون الفسيح وما يجري فيه، وفي أعماق البحار أو طبقات الفضاء، أو فوق سطح الأرض أو في باطنها. ومن تلك الآيات الكثيرة قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَفْرَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ۖ كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ ۖ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤)، فلم يُعلم بأن الإنسان كلما صعد إلى أعلى كلما ضاق به التنفس لنقص الأكسجين إلا في العصر الحديث. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِءَايَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٥) ففي الآية حقيقة علمية لم تكتشف إلا في العصر الحديث. فقد كشف علم التشريح المجهرى أن الجلد عضو غنيٌ بالنهايات العصبية، وهذا يجعله أشد أجزاء الجسم

(١) سورة الروم، الآية [١-٥].

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) سورة فصلت، الآية [٥٣].

(٤) سورة الأنعام، الآية [١٢٥].

(٥) سورة النساء، الآية [٥٦].

إحساساً بالألم. لذا فحين تحترق أنسجة جلود المستحقين لعذاب النار في الآخرة يبدل الله جلودهم بجلود جديدة حتى يستمر شعورهم بالألم^(١).

[٧] حفظ الله له على مر العصور: فالقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تكفل الله بحفظه من التحريف، أو الزيادة والنقص، وسيبقى ذلك إلى قيام الساعة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢). ولقد فشلت كل محاولات التحريف للقرآن الكريم في الماضي والحاضر، ليبقى الكتاب السماوي الوحيد الذي لم تظاله يد التحريف.

معجزات أخرى:

كان للنبي ﷺ - بالإضافة إلى معجزة القرآن الخالدة - عدد كبير من المعجزات الحسية كغيره من الأنبياء، ونذكر جملة يسيرة منها بإيجاز:

الإسراء والمعراج:

جاءت حادثة الإسراء والمعراج للنبي ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها، وما ترتب على ذلك من اشتداد أذى المشركين عليه، فجاءت تثبيتاً وتسلياً له في تلك الظروف. ومجمل هذه المعجزة أن الله أسرى بنبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى في فلسطين، على دابة أعدها الله لذلك تسمى: "البراق". ومن المسجد الأقصى عُرج به إلى السماوات السبع، ولقي فيها عدداً من الأنبياء عليهم السلام، ورأى سدره المنتهى، ورأى في الجنة صوراً من النعيم التي أعدها الله لأهلها، كما نظر في النار فرأى صوراً من أحوال المعذنين فيها. وهناك فُرِضت عليه الصلوات الخمس، ثم نزل إلى بيت المقدس، وصلى فيه بالنيين وعاد إلى مكة، كل ذلك في ليلة واحدة. وحين أصبح تحدث عن رحلته تلك فدهش من سمعه من قريش، وزادهم ذلك سخرية به، على الرغم من أنهم طلبوا منه دليلاً حسياً على

(١) لمزيد من الاطلاع على موضوع الإعجاز العلمي والكوني في القرآن انظر: المعجزات القرآنية:

تأليف هارون يحيى. مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر.

(٢) سورة الحجر، الآية [٩].

ذلك فوصف لهم المسجد الأقصى، وهم يعلمون أنه لم يره، وصدقه من رآه منهم على وصفه. كما أخبرهم ببعض ما شاهده في طريقه، ومن ذلك قافلة تجارية قادمة من الشام، أخبرهم بأنه لقيهم في طريقه، وذكر بعض ما حدث للقافلة لحظات مروره عليهم، فلما قدمت القافلة وسألوهم صدقوه، ولكن مع هذا كذب الكفار^(١).

انشقاق القمر:

كان كفار قريش يطلبون من النبي ﷺ المعجزات دليلاً على صدقه، ولكن الله يرد عليهم بأن مثل هذه المعجزات لن تزيدهم إلا عناداً، كما حدث مع أتباع الأنبياء السابقين، ولكن حين ألحوا على الرسول ﷺ بأن يريهم آية قال لهم: (انظروا إلى القمر)، فإذا هو منشق فرقتين يفصل بينهما جبل حراء^(٢). ولكن كما أخبر الله لم يزداهم ذلك إلا عناداً، لأن سؤالهم كان من أجل التعجيز لا من أجل الوقوف على الحقيقة.

إخبار الرسول ﷺ بأمور مستقبلية:

أخبر الرسول ﷺ بعدد من الأمور في المستقبل وحدثت كما أخبر بها، وهي كثيرة^(٣)، نذكر منها:

[١] إخباره بما سيحدث من الفتوحات على أيدي المسلمين من بعده، مثل فتح بلاد فارس والشام ومصر وغيرها، ومنها قوله: (يهلك كسرى فلا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده، ولتُقَسَّمَنَّ كنوزهما في سبيل الله)^(٤). وكل ذلك حدث.

(١) عن قصة الإسراء والمعراج انظر: صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب قوله: «سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا» حديث: ٤٧٠٩، ٤٧١٠. وكتاب الصلاة: باب كيف فرضت الصلاة. حديث: ٣٤٩. وصحيح مسلم: ١/ ١٥٦، ١٤٩. خير الدين واثلي: الصحيح من معجزات المصطفى ﷺ: ٢٣.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي آية: ١٨٦/٤. وصحيح مسلم: كتاب المناقب: باب انشقاق القمر. حديث: ٢٨٠٢.

(٣) ذكر صاحب كتاب: الصحيح من معجزات المصطفى ﷺ: ١٢٦ معجزة من هذا النوع.

(٤) البخاري: المناقب: باب علامات النبوة. صحيح مسلم: كتاب الفتن: باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت. ح/ ٢٩١٨.

[٢] قوله ﷺ لحفيده الحسن بن علي (عليه السلام): (إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فتيين عظيمتين من المسلمين)^(١). وقد حدث هذا فعلاً عام الجماعة سنة ٤١ هـ حين تنازل الحسن (عليه السلام) لمعاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه)، منهياً نزاعاً استمر بين المسلمين أكثر من خمس سنوات.

[٣] هناك أمور أخبر بوقوعها ﷺ ولم تقع بعد ولكنها ستقع حتماً، ومنها قوله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله. إلا شجر الغرقد فإنه من شجر اليهود)^(٢). وقوله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً)^(٣).

تكثير الطعام والشراب،

حدث تكثير الرسول ﷺ للطعام والشراب مرات كثيرة، حيث يدعو أحده أصحابه إلى طعام لا يكفي لعشرة أشخاص، فيأتي الرسول ﷺ ويغمس يده، أو يضع شيئاً من ريقه فيه، ثم يدعو بالبركة، فيأكل منه جيش بأكمله، والطعام على حاله لم ينقص. حدث هذا في غزوة الخندق حين دعاه جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) على طعام له^(٤). وحدث ذلك حين دعاه أبو طلحة (رضي الله عنه) على طعام له كذلك^(٥).

وكذلك حدث كثيراً تكثيره للماء في غزواته وأسفاره مع أصحابه، حين يدركهم العطش ولا ماء عندهم، فيؤتى بالماء القليل في الإناء، ويدعو ويتوضأ منه، ثم يتوضأ منه أصحابه ويشربون، ويبقى منه بقية^(٦).

(١) البخاري: ك/ فضائل الصحابة: مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما. سنن الترمذي: مناقب: مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما.

(٢) البخاري: ك/ الجهاد: باب قتال اليهود. صحيح مسلم: ك/ الفتن: باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت.

(٣) صحيح مسلم: ١٥٧ (١/٥٦). الحاكم (٤/٥٢٤).

(٤) البخاري: المغازي: باب غزوة الخندق. مسلم: الأشربة: باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق به.

(٥) البخاري: أطعمة: باب من أدخل الضيفان عشرة عشرة. مسلم: المصدر السابق.

(٦) البخاري: ك/ الأنبياء: باب علامات النبوة. مسلم: المساجد: باب قضاء الصلاة الفائتة.

سنن أبي داود: ك/ الصلاة: باب من نام عن صلاة.

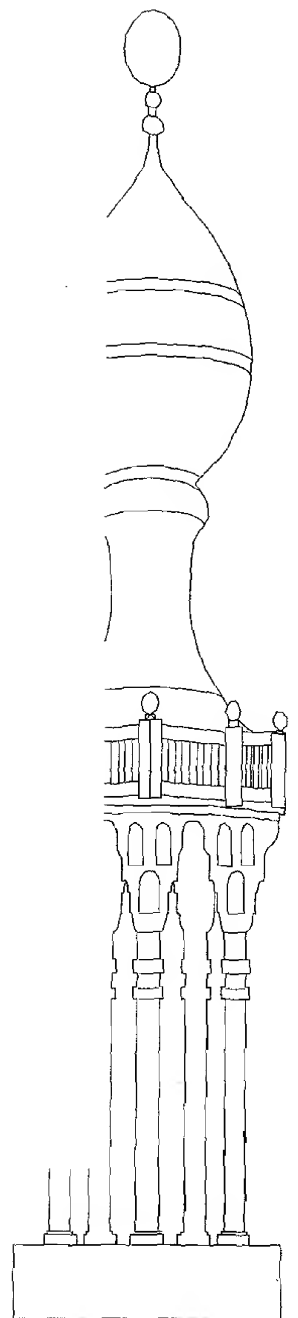
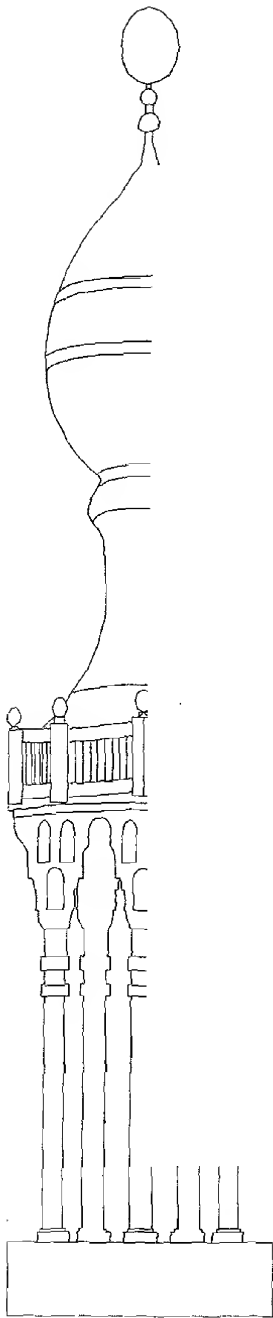
تكليم الجمادات له:

ومن معجزاته ﷺ تكليم بعض الأشجار والأحجار وغيرها له، وجاء ذلك في مواقف كثيرة منها قوله ﷺ: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن)^(١). وجاء أعرابي إلى الرسول ﷺ فقال له الرسول: (أتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله؟). قال الأعرابي: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: (هذه السلّمة) - وهي نوع من الشجر - فدعاها الرسول ﷺ فأقبلت حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً فشهدت، ثم رجعت إلى منبتها^(٢).

(١) صحيح مسلم: ك/ الفضائل: باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه. سنن الترمذي: ك/ مناقب/ ٩. ٤ / ١٧٨٢.

(٢) صحيح ابن حبان ١٤ / ٤٣٤. مسند أبي يعلى: ١٠ / ٤٣.

الخاتمة



الخاتمة

وبعد هذه الجولة المباركة في رحاب السيرة النبوية العطرة، على المسلم أن يسائل نفسه: ماذا استفاد من قراءة سيرة المصطفى ﷺ؟ وما الآثار التي ينبغي أن تتركها مثل تلك القراءة في نفسه وعلى أعماله؟. وهنا أحب أن أوجز بعضاً مما ينبغي أن تتركه هذه الجولة من آثار:

أولاً: بعد أن عرف المسلم تلك المكانة الرفيعة التي شرف الله بها نبيه، واختصه بها من بين خلقه، حيث جعله سيد المرسلين، وخاتم النبيين، فعلى المسلم أن يجعل للنبي ﷺ في نفسه مكانة عالية لا يدانيها أحد من الناس. وهذا واجب، ولا يتم إيمان المسلم إلا به، كما قال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)^(١). ومن مظاهر محبته ﷺ:

* الإكثار من ذكره، والمداومة على الصلاة والسلام عليه. فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره.

* اتباع سنته والسير على منهجه ﷺ، وتقديم ذلك على شهوات النفس ورغباتها، وعدم تقديم قول سواه من البشر، مهما اعتقدنا في صلاحه، على قوله ﷺ، بل نجعل قوله وسنته هي الحكم الفصل فيما ندع ونذر، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا^١ وَاتَّقُوا اللَّهَ^٢ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^٣﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ^٤ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^٥﴾.

* عدم الغلو فيه ورفعه إلى مكانة أعلى من المكانة الواجبة له. فلا يمدح ولا يوصف بما ليس له من الصفات، التي لا تليق إلا لله. كمن يدعي بأنه يعلم الغيب من

(١) صحيح البخاري: ك/ الإيمان: باب حب الرسول ﷺ.

(٢) سورة الحشر، الآية [٧].

(٣) آل عمران، الآية [٣١].

غير أن يخبره الله، أو يبده النفع والضرر، أو يسأله ما ليس له، كمن يسأله بعد موته تفريج الكربات، أو جلب المنافع. لأن في ذلك مخالفة لأمره ﷺ، وتعدُّ على حقوق الله وصفاته، فقد صح عنه ﷺ قوله: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله، فقولوا عبد الله ورسوله)^(١). وعن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من بني عامر، فسلمت عليه فقلت: أنت والدنا، وأنت سيدنا، وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغراء. قال ﷺ: (قولوا بقولكم لا يستهوينكم الشيطان)^(٢). وفي رواية أنه قال: (أنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَا أَحْبُّ أَنْ تُرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)^(٣). وقال الله فيه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْمَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٤) وأخبر سبحانه وتعالى أن كشف الضرر خاص به تعالى، ليس ذلك لنبي أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥).

ثانياً: اطلعنا من خلال سيرة المصطفى ﷺ على جملة من شمائل الرسول ﷺ وأخلاقه، فمن الواجب على المسلم أن يتأسى به في أخلاقه وتعامله مع الله ومع الناس، وفي جميع أحواله.

(١) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء/ ٤٨.

(٢) أبوداود: كتاب الأدب/ ٩. باب كراهية التماذج.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: حديث: ١٣٠٤١. محمد ناصر الدين الألباني: السلسلة الصحيحة: حديث: ١٠٩٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية [١٨٨].

(٥) سورة الأنعام، الآية [١٧٠].

ثالثاً: أدركنا من خلال السيرة النبوية ما للصحابة الكرام من منزلة عظيمة عند الله وعند رسوله ﷺ، وما لهم من أثر عظيم في نصرة دين الله، وما لهم علينا وعلى البشرية من فضل في نشر الإسلام وتبليغهم دعوة الله، فوجب علينا لهذا محبتهم جميعاً، وتقديرهم، والترضي عنهم كما رضي الله عنهم بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١). كما يجب أن نتأدب معهم بعدم النيل من أحدهم، أو تنقيص قدره، ومن نال من أحدهم أو تنقصه فقد عصى الله وخالف أمر رسول ﷺ حيث قال: (لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد^(٢) ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه^(٣)). بل يجب على المسلم الذب عن أعراضهم إن نال أحد من أهل الكفر أو النفاق منها، فرضي الله عن صحابة رسوله الكريم ﷺ وأرضاهم.

رابعاً: من دراسة السيرة يدرك المسلم أن هذا الدين لم يتشر إلا بجهود بشرية كبيرة، وتضحيات جسيمة، وهذه سنة الله في هذا الأمر، وإلا فهو سبحانه قادر على إعلاء كلمته وإظهار دينه وإذلال الكفر وأهله بقول كن فيكون، ولكن أراد الله بذلك ابتلاء خلقه فيرفع بذلك المؤمنين درجات وقيم الحجة على الكافرين والمتخاذلين. فعلى المسلم أن يجعل من نفسه جندياً لنصرة دين الله، ويبذل في ذلك ما يستطيع، ولا يكون من الذين يخذلون عن دين الله، أو يحارب أوليائه.

وفي الختام نسأل الله التوفيق والسداد، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد.

(١) سورة التوبة، الآية [١٠٠].

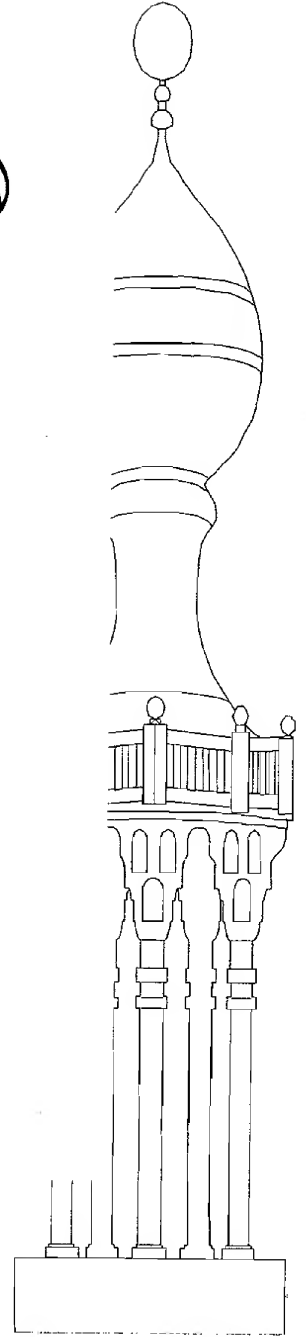
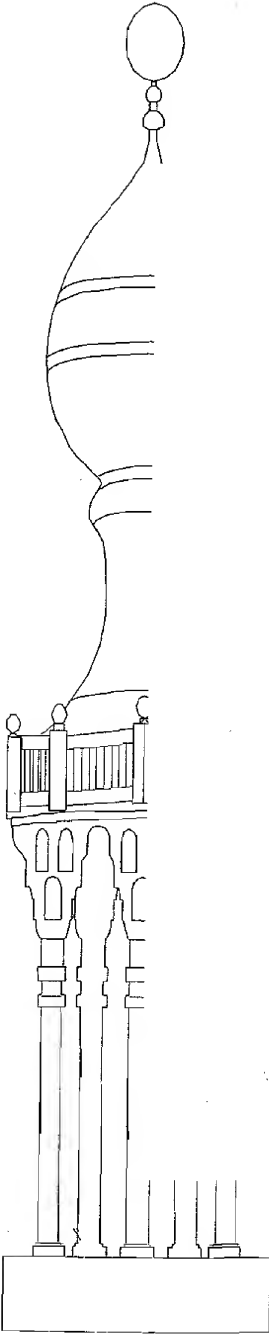
(٢) أحد الجبل المشهور الذي وقعت عنده غزوة أحد.

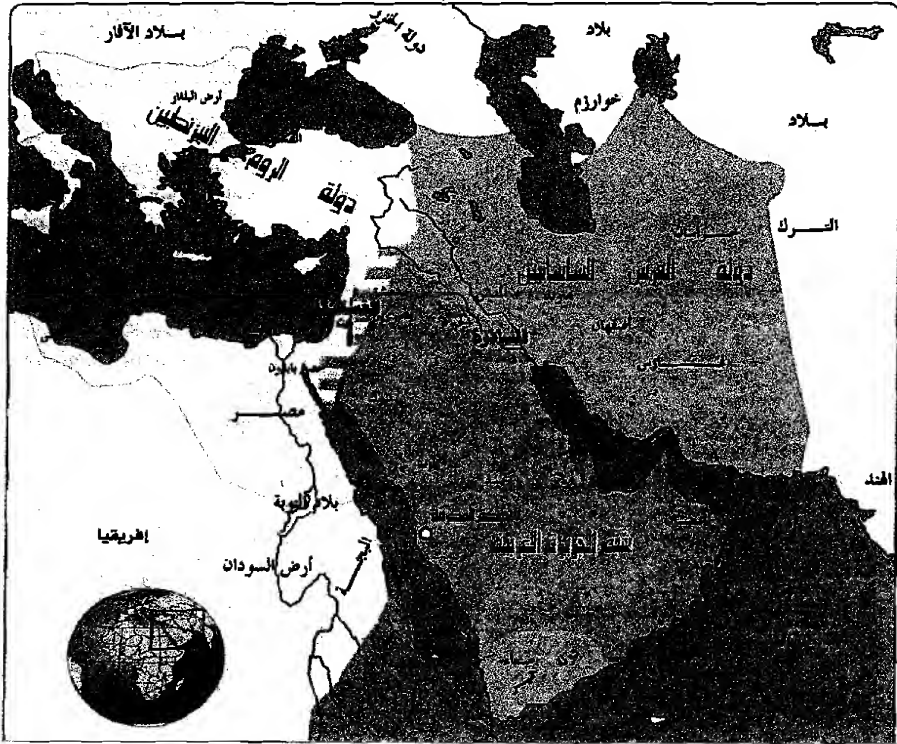
(٣) أبو داود: كتاب السنة: باب النهي عن سب الصحابة/ ١٠.

رَفَعُ

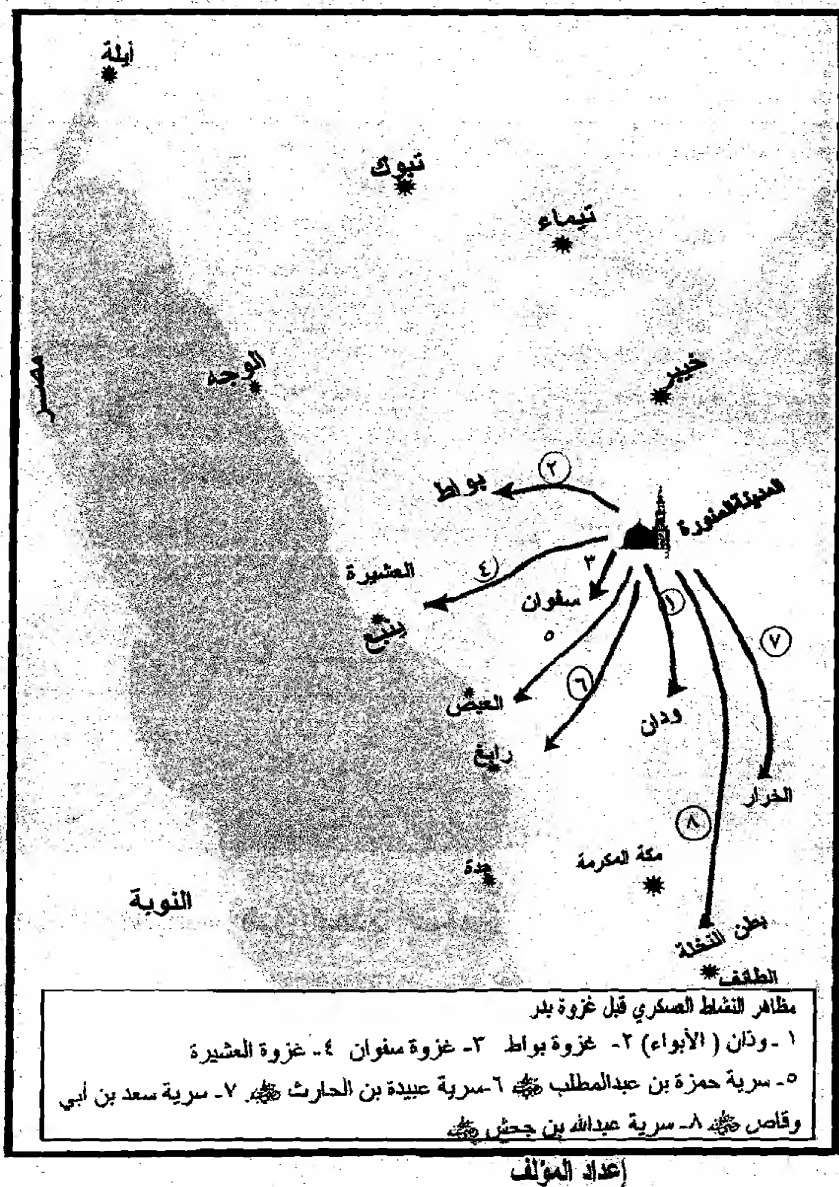
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

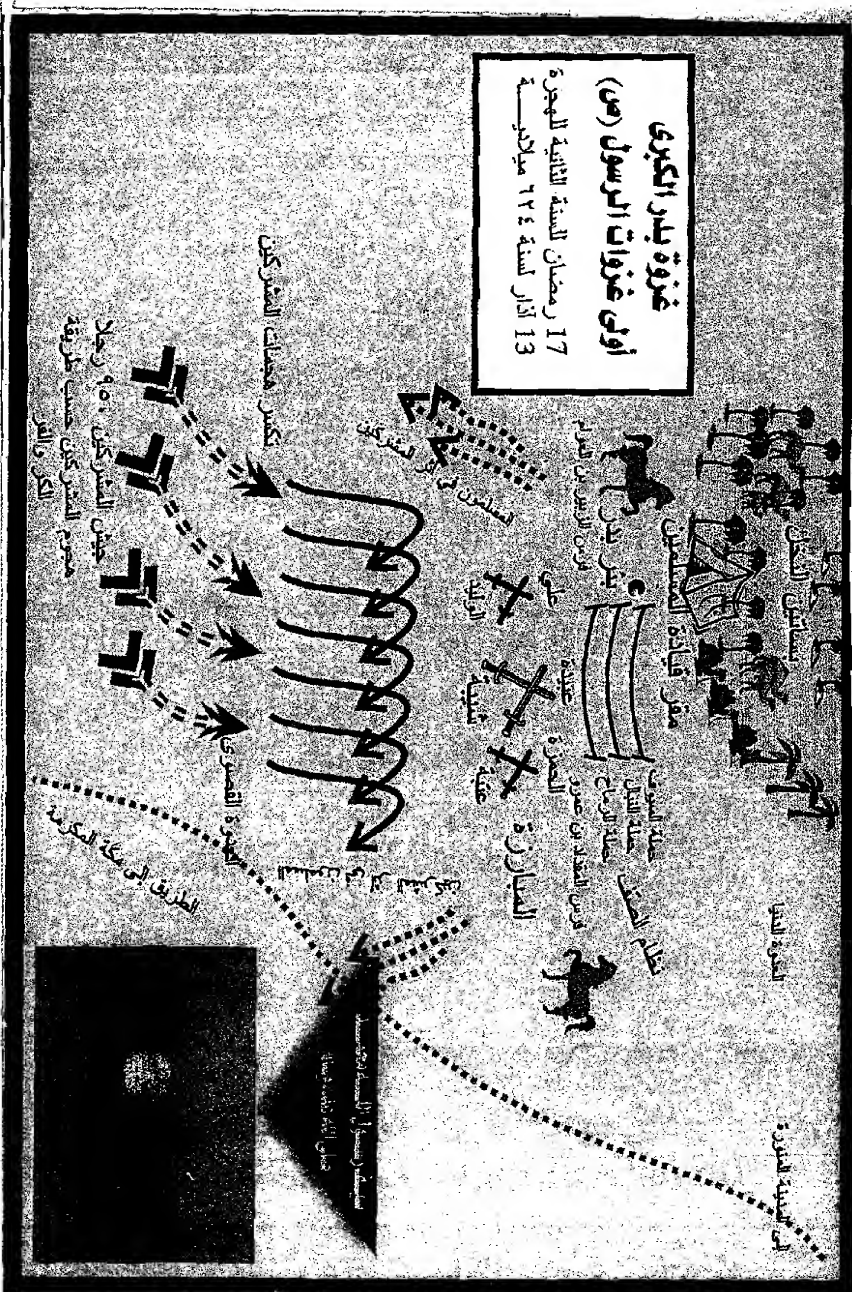
ملحق الخرائط



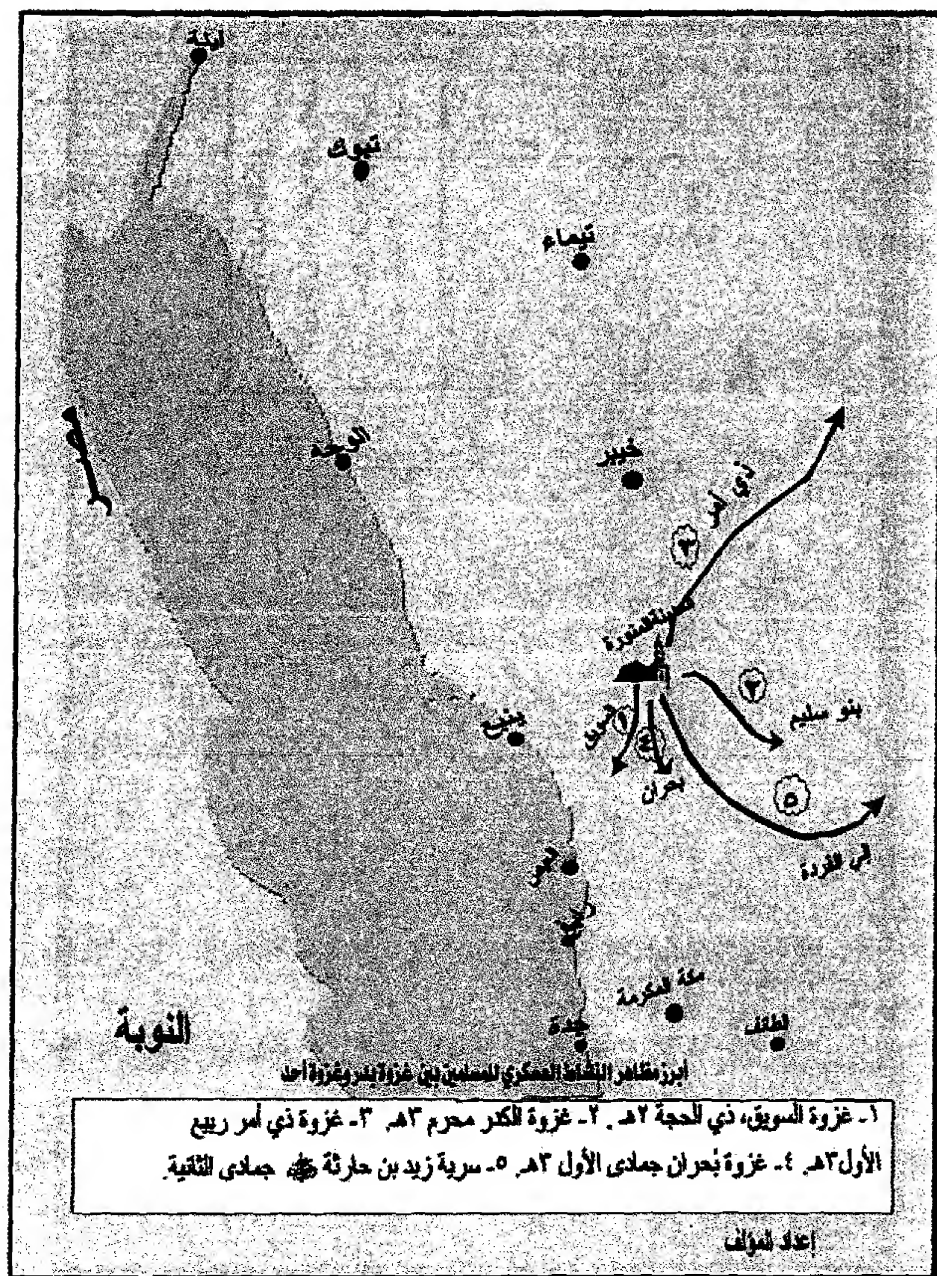


الحالة السياسية قبل البعثة النبوية



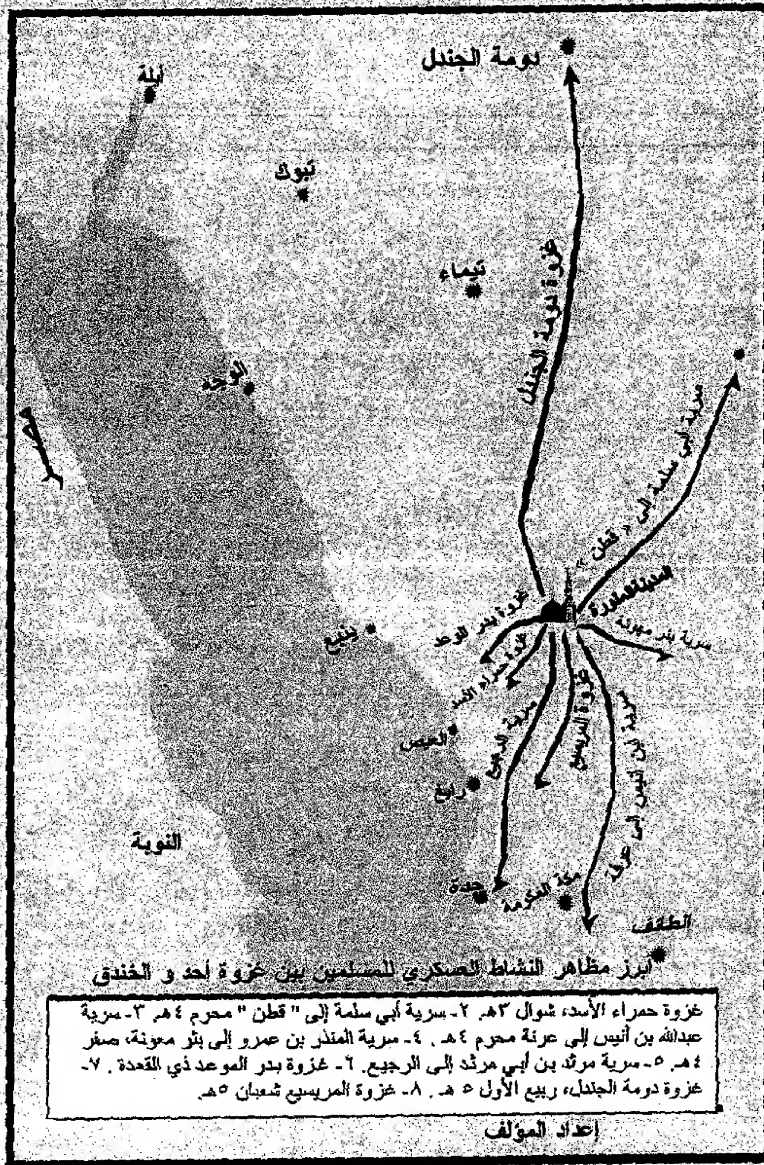


(أطلس تاريخ العالم القديم والمعاصر. هاني أبو غزيب ٢٩)

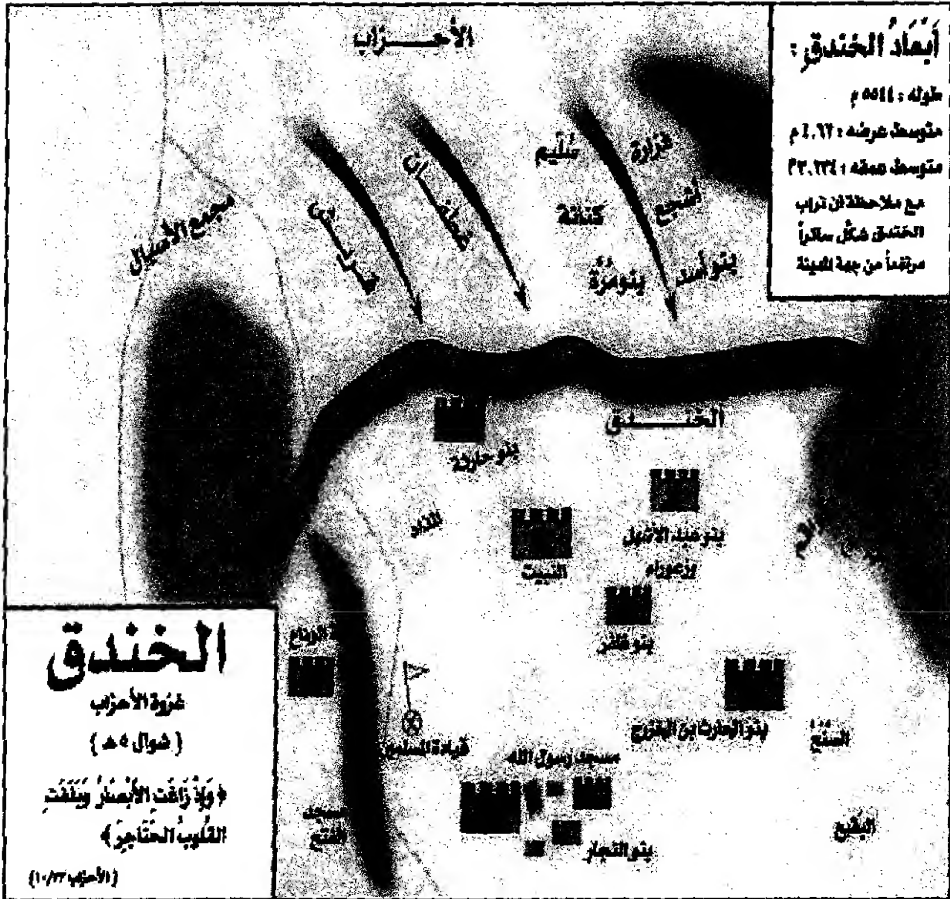


غزوة أحد. أطلس السيرة. المغلوث: ٢٤٣

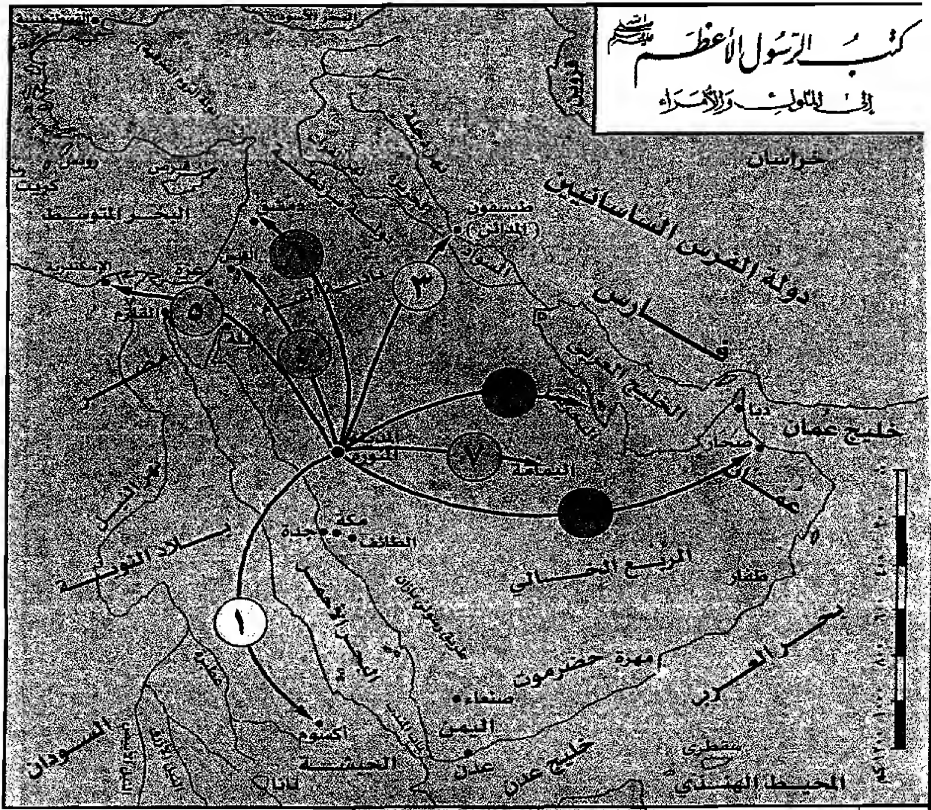




أطلس السيرة النبوية. شوقي ضيف. ١٣٧.







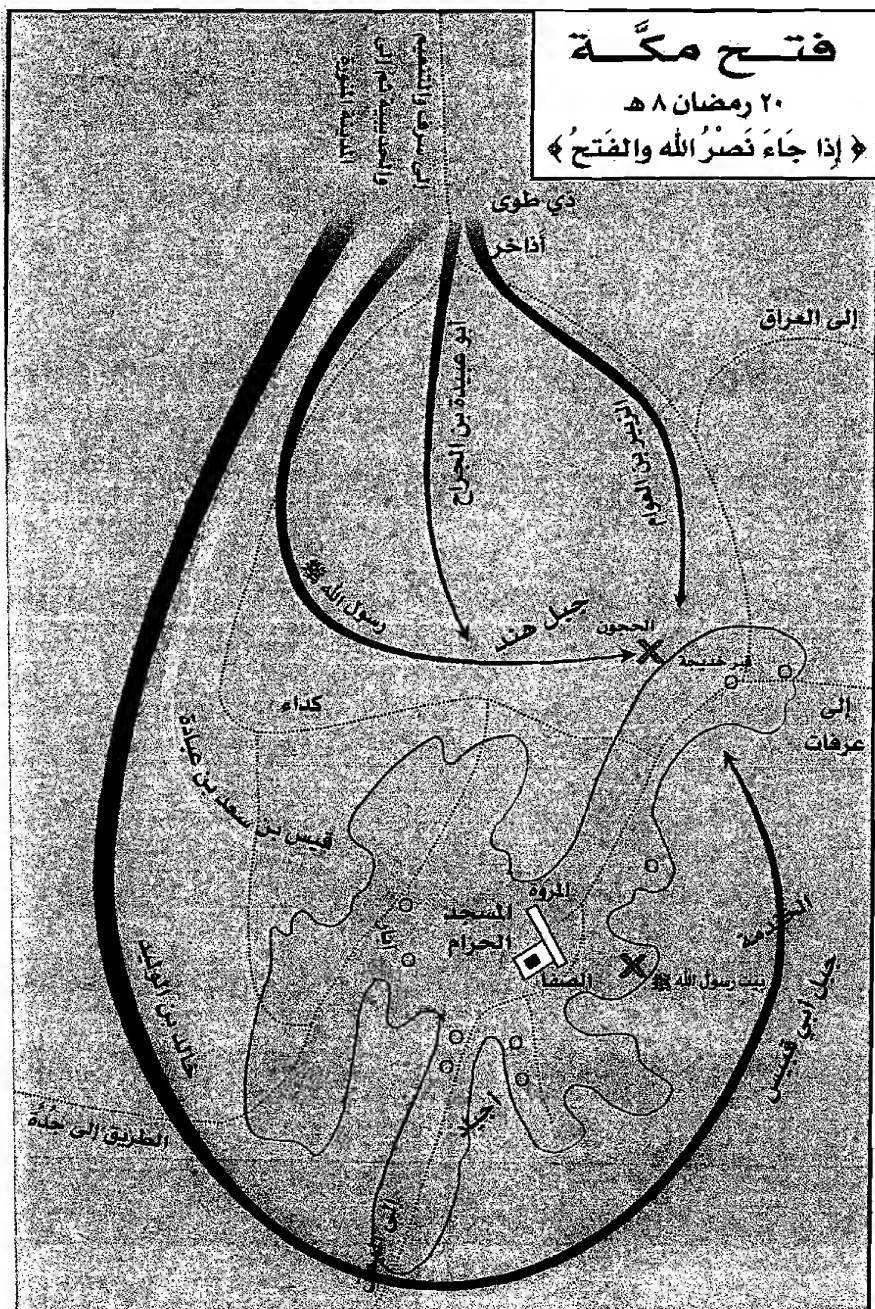
رسالته صلى الله عليه وسلم
إلى المتولين ساوى

الرقم	حامل الكتاب	الجهة	المُرسل إليه
١	عرو بن أمية الضمري	الحيرة	التجاني
٢	العلاء بن الحضرمي	البحرين	البيدر بن عاوى
٣	عبد الله بن حذافة السهمي	طيسفون (المدائن)	كثير الغري
٤	ذجة الكلبي	القدس	هرقل قيس الروم
٥	حاتب بن أبي بلتعة	الإسكندرية	القفوس عظيم مصر
٦	عرو بن العاص	عُمان	جعفر وعبد أبي الحنفى
٧	سليط بن عرو العامري	البصرة	هودة بن علي
٨	شجاع بن وهب الأسدي	هوخة دمشق	الحارث بن أبي ثمر القسائي

- ١٢٣ -

أطلس السيرة، شوقي ضيف.

شوقي أبو خليل / أطلس السيرة: ١٩٨



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفهارس

وتشمل:

[١] قائمة المصادر والمراجع.

[٢] فهرس الموضوعات.

قائمة المصادر والمراجع

- [١] القرآن الكريم.
- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، ت: (٦٣٠هـ).
- [٢] أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الألباني: محمد ناصر الدين:
- [٣] صحيح سنن الترمذي، مكتب التربية العربي لدول الخليج. ط/ الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٩٨٦م. الرياض.
- [٤] السلسلة الصحيحة: حديث: مكتبة المعارف - الرياض
- الألوسي: محمود ت: (١٢٧هـ).
- [٥] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مكتبة دار التراث، القاهرة.
- ابن ماجة : محمد بن يزيد القزويني، (٢٧٥هـ).
- [٦] سنن ابن ماجة، مراجعة محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، ت: (٢٥٦هـ).
- [٧] صحيح البخاري: المكتبة الإسلامية، استانبول، ١٩٧٩م.
- البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين ت: (٤٥٨هـ).
- [٨] دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥ هـ.
- [٩] السنن الكبرى، مراجعة محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.
- الترمذي: محمد بن عيسى، ت: (٢٧٩هـ).
- [١٠] سنن الترمذي، مراجعة أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث، بيروت.
- ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم ت: (٧٢٨هـ).
- [١١] الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم. الأجزاء، ٧، ١٩، ٢٨. النبوات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢ هـ.
- [١٢] النبوات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢ هـ.

مجموع: سميرة محمد:

[١٣] المعوقون للدعوة الإسلامية في عهد النبوة وموقف الإسلام منهم، دار المجتمع، جدة، ١٤٠٧هـ.

الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ت: (٤٠٥ هـ).

[١٤] المستدرك على الصحيحين، مراجعة مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ.

ابن حبان: محمد بن حبان البستي، ت: (٣٥٤ هـ).

[١٥] صحيح ابن حبان، مراجعة شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ.

ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني ت (٨٥٢ هـ).

[١٦] الإصابة في تمييز الصحابة، إعداد أبو هاجر محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

[١٧] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، قرأ أصله تصحيحاً وتعليقاً الشيخ عبد العزيز بن باز، ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

ابن حزم: محمد بن حزم الأندلسي: ت: (٤٥٦ هـ).

[١٨] جوامع السيرة: تحقيق إحسان عباس و ناصر الدين الأسد نشر حديث أكاديمي، فيصل آباد، باكستان، ١٤٠١هـ.

همادة: فاروق:

[١٩] مصادر السيرة النبوية وتقويمها، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط: الأولى ١٤٠٠هـ.

همزة: فؤاد همزة:

[٢٠] قلب جزيرة العرب، المطبعة السلفية، مصر، الروضة، ١٣٥٢هـ.

ابن حنبل: الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد، ت: (١٤٢).

[٢١] مسند الإمام أحمد، مؤسسة قرطبة، مصر، مصور عن الطبعة الميمنية.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد ت: ٨٠٨هـ.

[٢٢] العبر (تاريخ ابن خلدون) بيروت، ١٣٩٩هـ.

خليل، عماد الدين،

[٢٣] دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: السادسة، ١٤٠٢هـ.

رزق الله: مهدي رزق الله:

[٢٤] السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: ط/ الأولى. الرياض ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

الزيري: أبو عبد الله المصعب بن عبد الله ت: (٢٣٦ هـ).

[٢٥] نسب قريش، تصحيح وتعليق ليفي برونفيسال، ط: الثالثة، دار المعارف، القاهرة.

زرزور: عدنان محمد.

[٢٦] علوم القرآن، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: الأولى، ١٤٠١هـ.

ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع، ت: (٢٣٠ هـ).

[٢٧] الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.

السمهودي: علي بن أحمد ت: ٩١١هـ.

[٢٨] وفاء الوفاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

شاكر: محمود:

[٢٩] التاريخ الإسلامي "السيرة": المكتب الإسلامي ط: الأولى ١٣٩٩هـ.

الشنقيطي: محمد الأمين ت: ١٣٩٣هـ.

[٣٠] أضواء البيان في إيضاح القرآن، ١٤٠٣هـ.

الشوكاني: محمد بن علي، ت: (١٢٥٠هـ).

[٣١] فتح القدير، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ، دار الفكر، بيروت.

ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد ت: (٢٣٥ هـ).

[٣٢] الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق عامر الأعظمي، الدار السلفية،
بومباي، الهند.

آل شيخ: عبد الرحمن بن حسن:

[٣٣] فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، طبع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء
والدعوة والإرشاد، الرياض ١٤٠٣ هـ.

صبحي الصالح:

[٣٤] علوم الحديث ومصطلحه: دار العلم للملايين، بيروت، ط: السادسة عشر،
١٩٨٦ م.

الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، ت: (٣٦٠ هـ)

[٣٥] المعجم الكبير، مراجعة حمدي السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل
الطبري: محمد بن جرير: ت ٣١٠ هـ

[٣٦] تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار سويدان، بيروت.

ابن عبد الوهاب: محمد ت: ١٢٠٦ هـ:

[٣٧] مختصر سيرة الرسول، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة البيان، دمشق ط: الثالثة،
١٤١٤ هـ.

العلي: إبراهيم العلي:

[٣٨] صحيح السيرة النبوية، دار النفائس الأردن، ١٤١٦ هـ.

العمرى: أكرم ضياء:

[٣٩] السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة،

الغزالي: محمد:

[٤٠] فقه السيرة: دار الكتب الحديثة، مصر، ط: السابعة، ١٩٧٦ م.

- ابن القيم: محمد بن أبي بكر، ت: (٧٥١ هـ).
- [٤١] زاد المعاد، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى ٣٩٩ هـ.
- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمرو ت: (٧٧٤ هـ).
- [٤٢] البداية والنهاية، ط: الثانية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧ م.
- [٤٣] تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد البنا وآخرون. دار الشعب، القاهرة.
- [٤٤] السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٣ هـ.
- [٤٥] السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت، ١٣٥٦ هـ.
- المباركفوري: صفي الرحمن:
- [٤٦] الرحيق المختوم. مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الشرعية، ط. ٣، ١٤٢٧ هـ.
- مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري ت: (٢٦١ هـ).
- [٤٧] صحيح مسلم، مراجعة محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٤ هـ.
- الندوي: السيد سليمان، ت (١٣٧٣) هـ.
- [٤٨] الرسالة الحمديدية، مكتبة دار الفتح، دمشق، ١٣٩٣ هـ ط: الثالثة.
- النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، ت: (٣٠٣ هـ).
- [٤٩] السنن الكبرى، مراجعة عبد الغفار، وسيد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١ هـ.
- أبو نعيم الأصبهاني: أحمد بن عبد الله ت: ٤٣٠ هـ.
- [٥٠] دلائل النبوة، دار الباز، مكة المكرمة، طبع بمصر ١٣٩٧ هـ.
- ابن هشام: عبد الملك ت: (٢١٨ هـ).
- [٥١] السيرة النبوية، شرح وتعليق: محمد محي الدين عبد الحميد، توزيع دار الإفتاء بالرياض.

المهيمني: علي بن أبي بكر، ت: (٨٠٧ هـ).

[٥٢] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط، الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢ هـ.

وانلي: خير الدين:

[٥٣] الصحيح من معجزات المصطفى: دار ابن الأثير، الكويت ط: الأولى،

١٤٢١ هـ.

أبو يعلى: أحمد بن علي بن المثنى، ت: (٣٠٧ هـ).

[٥٤] مسند أبي يعلى، مراجعة حسين سليم، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٤ هـ.


فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
مداخلت عامة	٧-٣٢
أولاً: أهمية دراسة السيرة النبوية	٩
ثانياً: حاجة البشر إلى بعثة الأنبياء والرسل	١١
[١] تعريف البشر بخالقهم، والحكمة من وجودهم	١١
[٢] الإخبار بالغيبات وأحداث الدار الآخرة	١١
[٣] تصحيح الانحرافات التي تطرأ على البشر	١٢
[٤] حاجة البشر إلى بعض الشرائع لضبط حياتهم	١٣
ثالثاً: مضمون دعوة الأنبياء	١٤
رابعاً: واجبتنا تجاه الأنبياء عليهم السلام	١٥
خامساً: تفاضل الأنبياء	١٦
سادساً: تميز سيرة النبي محمد ﷺ عن سيرة غيره	١٨
[١] تكامل حلقاتها، ودقة تفاصيل أطوارها، من الولادة حتى الوفاة ..	١٨
[٢] صحة نقلها وثقة مصدرها	٢١
[٣] شمولها لجميع جوانب الحياة البشرية	٢٢
سابعاً: مصادر السيرة النبوية	٢٣
المصطفى ﷺ قبل البعثة	٢٣-٤٨
نسبه	٣٥
مولده	٣٦
المسلمون والمولد	٣٦
رضاعته في ديار بني سعد	٤٠
حادثة شق الصدر الأولى	٤١

الموضوع	الصفحة
وفاة أمه وجده وتوغله في اليتيم	٤٢
الاعتماد على النفس	٤٣
سفره إلى الشام وقصة بحيرى الراهب	٤٤
أخلاقه ومكانته قبل البعثة	٤٤
الزواج السعيد	٤٦
وقفات حول مكانة خديجة <small>رضي الله عنها</small>	٤٧
البعثة وانطلاق الرسالة	
٤٨-٤٩	
حالة العرب قبل البعثة	٥١
الحالة الدينية	٥١
الحالة السياسية	٥٤
الحالة الاجتماعية	٥٦
أخلاق العرب	٥٨
نشأة مكة ومكانة قريش	٥٩
نشأة مكة	٥٩
مكانة قريش عند العرب	٦١
البعثة النبوية	٦٥
بدء الوحي	٦٥
وقفات حول بدء الوحي	٦٦
أطوار الدعوة	٦٧
الدعوة في العهد المكي	٦٧
المرحلة السرية	٦٧
المسلمون الأوائل	٦٨
مرحلة الجهر بالدعوة	٧٠

الصفحة	الموضوع
٧١	أساليب المشركين لمواجهة الدعوة في مكة
٧١	[١] الاستهزاء والسخرية
٧٢	[٢] اضطهاد أتباعه وفتنتهم
٧٥	وقفة مع التعذيب
٧٦	[٣] محاولة إحراج الرسول ﷺ بطلب المعجزات
٧٧	[٤] بث الإشاعات والتشويش للحيلولة دون سماع القرآن
٧٨	[٥] المفاوضات مع أبي طالب ليتخلى عن حماية الرسول ﷺ
٧٩	[٦] مساومة الرسول ﷺ للوصول معه إلى حل
٨٢	[٧] مقاطعة قريش لبني هاشم
٨٣	[٨] الاعتداء على الرسول ﷺ بعد وفاة أبي طالب وخديجة
٨٥	موقف الرسول ﷺ من هذه الابتلاءات
٩١	البحث عن نصير للدعوة
٩٢	التسلية والتثيت (الدعم المعنوي)
٩٥-١٢٠	الهجرة إلى المدينة وقيام الدولة الإسلامية
٩٧	تمهيد: يثرب قبل الهجرة
٩٨	مقدمات الهجرة
٩٨	بدء إسلام الأنصار
٩٩	بيعة العقبة الأولى
١٠٠	سفير موفق ودعوة ناجحة
١٠٢	بيعة العقبة الثانية
١٠٤	هجرة المسلمين
١٠٦	الهجرة النبوية
١١١	ركائز المجتمع المسلم في المدينة

الصفحة	الموضوع
١١١	بناء المسجد
١١٢	المؤاخاة
١١٤	المعاهدة مع اليهود
١١٥	التشريعات وقيام مؤسسات الدولة
١٩٢-١٢١	الدولة الإسلامية في مواجهة القوى المختلفة
١٢٣	أولاً: الدولة الإسلامية في مواجهة المشركين
١٢٤	أهم السرايا والغزوات قبل معركة بدر
١٢٧	مراحل مواجهة المشركين
١٢٧	المرحلة الأولى: غزو المشركين للمسلمين
١٢٧	غزوة بدر
١٢٧	سببها
١٢٨	تتطور الأمور إلى غير ما يريده المسلمون
١٣١	أسباب النصر في بدر
١٣٣	أسرى بدر
١٣٣	مواقف القوى بعد بدر
١٣٦	غزوة أحد
١٣٨	غزوة أحد... دروس وعبر
١٤٠	تضحيات جسيمة في المواجهة مع المشركين
١٤٠	سرية غزوة الرجيع: صفر/ ٣هـ
١٤٢	سرية بئر معونة
١٤٣	غزوة الأحزاب
١٤٧	المرحلة الثانية: مرحلة الصلح
١٤٧	بيعة الرضوان

الموضوع	الصفحة
نتائج صلح الحديبية	١٤٩
أهم الأحداث بين صلح الحديبية وفتح مكة	١٥٠
مكاتبة الملوك والزعماء	١٥٠
المرحلة الثالثة: غزو المسلمين للمشركين	١٥٤
سير المسلمين إلى مكة وفتحها	١٥٥
من نتائج فتح مكة	١٥٨
ثقيف تتزعم الشرك	١٥٨
غزوة حنين (شوال / سنة ثمان هـ)	١٥٨
حصار الطائف	١٦٠
قسمة الغنائم	١٦١
ثانياً: المواجهة مع أهل الكتاب	١٦٥
المواجهة مع اليهود	١٦٥
نقض بني قينقاع العهد	١٦٦
جلاء بني قينقاع: (شوال / السنة الثانية)	١٦٦
نقض يهود بني النضير العهد وجلاؤهم. (ربيع الأول / ٤ هـ)	١٦٧
نقض يهود بني قريظة العهد. (ذي القعدة / ٥ هـ)	١٦٨
لماذا هذا العقاب الشديد لبني قريظة؟	١٦٩
المواجهة مع يهود خيبر	١٧٠
المواجهة مع النصارى	١٧٣
نصارى نجران	١٧٣
نصارى الشمال	١٧٤
سرية ذات السلاسل	١٧٧
تجهيز جيش أسامة  أسامة	١٨٢

الموضوع	الصفحة
ثالثاً: المواجهة مع المنافقين	١٨٣
ظهور النفاق	١٨٣
أساليب المنافقين في مقاومة الإسلام	١٨٣
[١] محاولة تفريق كلمة المسلمين بعد أن جمعهم الله على الدين	١٨٣
[٢] التخذيل عن الجهاد بالقول والعمل	١٨٤
[٣] موالاة أعداء الإسلام ومظاهرتهم في حربهم للمسلمين	١٨٤
[٤] السخرية والاستهزاء بالمسلمين	١٨٥
[٥] ترويع الإشاعات الكاذبة في المجتمع المسلم	١٨٦
[٦] محاولة اغتيال الرسول ﷺ	١٨٧
أسلوب الإسلام في مواجهة المنافقين	١٨٧
الأحداث الأخيرة في حياة الرسول ﷺ	١٩٠
الوفود إلى رسول الله ﷺ	١٩٠
حجة الوداع	١٩١
مبادئ ووصايا في حجة الوداع	١٩٢
وفاة مرض الرسول ﷺ وشمائله ومعجزاته	١٩٣
مرض الرسول ﷺ ووفاته	١٩٥
تجهيز الرسول ﷺ ودفنه	١٩٦
أثر وفاة الرسول ﷺ	١٩٧
شمائل الرسول ﷺ	١٩٨
من أخلاق النبي ﷺ وشمائله	١٩٨
أولاً: تعامله مع ربه	١٩٨
ثانياً: تعامله مع المؤمنين	٢٠٠
(أ) تعامله مع أهله وخاصته	٢٠٠

الموضوع	الصفحة
(ب) تعامله مع عامة أصحابه	٢٠٤
* التواضع ولين الجانب	٢٠٤
* زيارتهم في منازلهم وموانستهم	٢٠٥
* قبول هداياهم والاستجابة لدعواتهم	٢٠٥
* عيادة مريضهم ومواساة مصابهم	٢٠٥
* التلطف بالمخطئين منهم وعدم تعنيفهم	٢٠٦
* سخاؤه لهم وعدم رد حاجة من سأله منهم	٢٠٦
ثالثاً: تعامله مع أعدائه	٢٠٧
حرصه على هدايتهم	٢٠٧
العفو عنهم عند المقدرة وعدم مبادلتهم	٢٠٨
احترام عهودهم وموائقيهم	٢٠٩
حصار القتال معهم في أضيق نطاق	٢٠٩
الرفق بأسراهم	٢١٠
أداء حقوق من يعايش منهم	٢١١
مكافأة أهل المعروف منهم والثناء عليهم	٢١١
معجزات الرسول ﷺ ودلائل نبوته	٢١٣
المعجزة الخالدة «القرآن الكريم»	٢١٣
معجزات أخرى	٢١٧
الإسراء والمعراج	٢١٧
انشقاق القمر	٢١٨
إخبار الرسول ﷺ بأمور مستقبلية	٢١٨
تكثير الطعام والشراب	٢١٩
تكليم الجمادات	٢٢٠

٢٢٣ الختام
٢٢٧ ملحق الخرائط
٢٤١ قائمة المصادر والمراجع
٢٤٧ فهرس الموضوعات

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

السيرة الميسرة
لنبي الرحمة

محمد بن عبد الله

تأليف

د. صيد الله بن صيد الرحمن الخرجاني

مصر: هيئة التدريس بقسم التاريخ والحضارة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣١ هـ

دار الفكر